المملكة العربية السـعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

قامت الطالبة بإجراء التعديلات التى طلبتها لجنة المناقشة.

المشرف	مناقش	مناقش

علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علوم البلاغة

إعداد

الطالبة/ فائزة سالم صالح يحيى أحمد

إشراف

الأستاذ الدكتور / علي محمد حسن العماري

المجلد الأول

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى النهر الدافق الذي لاينضب
والدي العزيز

إلى أيكة الظل الوارف
والدتي العزيزة

أهدي إليكما ثمرة غرسكما الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية.

الدرجة العلمية : دكتوراه.

اسم الطالبـــة : فائزة سالم صالح يحيى أحمد.

ملخص البحث

قام هذا البحث بدراسة كل مايتعلق بأحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال في تفسير الفخر الرازي.

وقد بُني البحث على تمهيد وثلاثة أبواب :

التمهيد: تحدثت عن حياة الفخر الرازي باختصار مرتكزة في ذلك على التفسير.

الباب الأول: يبحث عن علم المعاني قبل الفخر وهو مبني على ثلاثة فصول ، تحدثت في الأول: عن المراد بعلم المعاني، وفي الثاني:عن علم المعاني عندالبلاغيين، وفي الثالث: عن علم المعاني عند المفسرين.

الباب الثاني: بُني على خمسة فصول، تناول الأول : النظم عند الفخر في التفسير، والثاني: عن نظرته في المفردات، والثالث : عن بناءالجملة في التفسير، والرابع : عن بناء الجمل ، أما الخامس : فعن الإعجاز القرآني في التفسير.

أما **الباب الثالث** : فقد خصصته لبيان تأثر الفخر بمن قبله وأثره فيمن بعده.

ثم **الخاتمة** : وعرضت فيها لخلاصة البحث وأهم ما توصلت إليه من نتائج ، ومن هذه النتائج :

١ - إن بلاغته تنوقية خالية من الأحكام العقلية والقواعد التقريرية التي نجدها في كتابه البلاغي (نهاية الإيجاز).

٢ - كان لديه القدرة على استنباط معاني متعددة للوجه البلاغي الواحد، وهو يميل في ذلك إلى الإطناب.

٣ - اهتم كثيراً بالكشف عن أوجه المناسبة بين كثير من الآيات والسور.

٤ - له نظرات بلاغية تفوق نظرات غيره من المفسرين كالزمخشري مثلاً.

٥ - كان يثبت القاعدة البلاغية في التفسير ثم يطبق عليهاآيات كثيرة.

الطالبة	المشرف	عميد كلية اللغة العربية
فائزة سالم أحمد	أ.د.علي محمدحسن العماري	د.محمد بن مريسي الحارثي

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن وجعله حجة ،وأوضح به للناس طريق المحجة ،وأظهر لهم بآياته نوراً ،وجعله تبصرة لأولى الألباب . أجل الكتب قدراً ، وأغزرها علماً ،وأعذبها نظماً .

اللهم إني أعوذ بك من غلظة القلب ،وضلال الرأى ،وفساد القول ، كما أعوذ بك من التزيد بما لا أعلم ،والعجب فيما أعلم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام العالمين ،وخاتم المرسلين ، سيد الفصحاء ،وإمام البلغاء ، صلاة تكون لنا نوراً ،وتهدينا إلى طريق الرشاد .

وبعد : فتكاد تختفي وتطوى جهود الإمام فخر الدين الرازى البلاغية ذلك أنه عرف مفكراً وعالماً في أكثر علوم عصره ،فبرع فى شتى ميادين العلم والمعرفة فكان :

كالبَدْرِ مِنْ حَيثُ التَفَتَّ رأيْتَهُ
يُهْدِى إلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثاقِبَا

والبلاغة جانب لامع من جوانب ثقافته ،عرف بها من خلال كتابه (نهاية الإيجاز) الذى لخص به كتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ،أما بلاغته في التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب) فقد ظلت تائهة زمناً طويلاً ،ومن خصها بنصيب من الدراسة تحدث عن جانب منها بعجالة واختصار ،لذا فقد رأيت أن أتناول بلاغته في التفسير

بالدراسة ،ولما وجدتها ممتدة متشعبة إقتصرت منها على ما يتصل بأحوال اللفظ العربي التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال مما سمى بعلم المعاني، وتتبعته تتبعاً دقيقاً شاملاً، فقرأت التفسير مرات ،واستغرق ذلك مني وقتاً طويلاً لكثرته ودقته ،فهو يقع في اثنين وثلاثين جزءاً ، وقد استخرجت منه جلّ ما يتصل بعلم المعاني ،ثم جمعت النظير إلى النظير، وصنفته في أربعة وعشرين مبحثاً ،تناولت كل مبحث بالدراسة ،فحددت ملامحه ،وحررت مسائله ،وبينت ما أضافه من آرائه الخاصة ،وما أفاده من غيره ،وكنت أستأنس في أكثر الأحوال بآراء غيره ممن يوضح رأيه .

وقد رأيت الفخر في التفسير على غير ما رأيته في (نهاية الإيجاز) فهو هناك مخضع الأصول البلاغية إلى أحكام عقلية ،وهو هنا محلل ومتذوق، لذلك فقد عمل على تثبيت وتنمية كثير من المسائل البلاغية التي أثيرت من قبله، كما حرر مسائل أخرى ،وله سبق إلى كشف كثير من الدقائق البلاغية في آيات القرآن ، فقد لاحظ أسرارها المكتنة وراء كلماتها وتراكيبها ،وكان يقف أمام كلمات القرآن يتأملها ، و يستجلى منها فيوضات المعاني بطريقة متفردة قادرة على النفاذ إلى مسافات ممتدة وراء المعاني الظاهرة .

هذا وقد قامت هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

تحدثت في التمهيد عن حياة الإمام الفخر باختصار مرتكزة في ذلك على تفسيره .

ثم الباب الأول : و يبحث عن علم المعاني قبل الفخر الرازى ،وقد كنت على ألا أضع هذه الدراسة ضمن البحث ،لكني رأيت أنا وأستاذى أن الأبر بهذه الدراسة البدء بمثل هذا الباب ،وقد قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : يحدد المراد بعلم المعاني .

الفصل الثاني : يبحث عن علم المعاني عند البلاغيين وأهل اللغة .

الفصل الثالث : يبحث عن علم المعاني عند المفسرين ودارسي الإعجاز.

والباب الثاني : يبحث عن علم المعاني عند الفخر ، وهذا يضم خمسة فصول :

الفصل الأول : تتبعت فيه النظم عند الفخر .

الفصل الثاني : يتحدث عن نظرته في المفردات .

الفصل الثالث : يتناول نظرتــه في بناء الجملة .

الفصل الرابع : يتحدث عن نظرته في الجمل .

الفصل الخامس : يتحدث عن الإعجاز القرآني في التفسير .

ثم الباب الثالث : خصصته لبيان تأثر الفخر بمن قبله وأثره فيمن بعده .

وبنيته على فصلين :

الفصل الأول : تأثره بمن قبله، ويشمل تأثره بعبد القاهر الجرجاني والزمخشرى ثم ببقية المفسرين ثم بالنحاة ، وقد أفردت دراسة تأثره بعبد القاهر والزمخشرى لوضوح هذا التأثر .

الفصل الثاني : يبحث في أثره فيمن بعده ، ويشمل أثره في كتب البلاغيين ، وأثره في كتب التفسير ، وأثره في كتب علوم القرآن .

ثم الخاتمـــة عرضت فيها خلاصة البحث ، وأهم ما توصلت إليه من نتائج .

هذا وقد كان مما يشق عليّ أنني كنت أقف أحياناً حائرة أمام بعض المسائل والنظرات لا أدرى أين أضعها حتى يفتح الله عليّ فيها ،كما كنت أتردد كثيراً في الاكتفاء ببعض صور المبحث الواحد ،لأنّ كل صورة في المجال التطبيقي تمثل غرضاً جديداً ،ذلك لأنّ هدفي العام من هذه الدراسة ليس الاستقصاء الشامل لكل ما قاله في الباب الواحد ،إنما بيان منهجه وطريقته في النظر والتحليل البلاغي .

وأقول بل أؤكد أن البحث عن مثل هذه النظرات وتتبعها في كتب التراث تقوم على إثراء العلوم البلاغية ،فكثير من هذه الوجوه البلاغية لم تصل إليها الدراسات النظرية ، وهي صالحة لأنّ تكوّن منهجاً بلاغياً يطبق في مجال الكلام البليغ من شعر ونثر.

ولم يقتصر عملي على الجمع والعرض، بل حررت وناقشت وقبلت ورفضت ، مستضيئة في ذلك بآراء العلماء الأفذاذ في هذا الميدان ،هادفة إلى الكشف عن وجه الصواب دون حيف أو تعصب .

وتعد دراستي هذه - فيما أعلم - أول دراسة تقف على جلّ ما قاله الفخر في أبواب المعاني .

ثم لا يسعني إلا أن أتوجه بامتناني البالغ إلى كلية اللغة العربية التي هيأت لي مناهل المعرفة وأعانتني على ورودها .

وأتقدم بالشكر والعرفان إلى أستاذى الجليل الدكتور علىّ العمارى -أمد الله في عمره - الذى كان لي مناراً أهتدى به في أى وقت أشاء ،فقد فتح لي أبواب العلم ومنابع المعرفة أرد من نبعها الصافي ، ومنحني فرصة التعبير عن الرأى واحترام رأى الآخرين ،ليشتد عودى ،وتتقوى مداركي ،ولم يترك مسألة في هذه الدراسة إلا اطلع عليها ووجهني فيها .

وأتقدم خافضة جناح الذل إلى والدىّ العزيزين اللذين عاشا معي معاناة هذا البحث خطوة بخطوة، ومنحاني التشجيع والعون، وسدداني بالدعوات الصادقات في جوف الليل .

وأخيراً لا أدعي فيما كتبته الكمال ، ولا السلامة من زلات البيان ، فإن كنت من المقصرات فقد يستصوب للمرء اجتهاده ، وليعذر في تقصيره وخطئه ، ومن رحمة الله بطالب العلم أن جعل للحق وجوهاً يرى كل فريق منها وجهاً ، ولهذا اختلف العلماء ، واتسعت أبواب العلم الواحد .

ثم أسأل الله جلت قدرته أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، ويبارك لي فيه ، ولا يحرمني أجره ، ويجعله لي نوراً يسعى بين يدىّ يوم يجزى كل إنسان على ما قدم من عمل إنه سميع مجيب ، والحمد لله رب العالمين الذى بنعمته تتم الصالحات.

مساء الأحد ، غرة شهر رجب المحرم ١٤١٢ هـ .

التمهيد

حياة الفخر الرازي

حيـاة الإمـام الفخـر الـرازى

اسمه ولقبه وكنيته :

هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكرى.(١)

اختلفت بعض المصادر في اسم جده ، فبعضهم يسميه الحسين(٢) ، وبعضهم يسميه الحسن.(٣)

لكن الفخر الرازى يذكر في التفسير أن اسم والده عمر بن الحسين يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾(٤) : ("بِعَبْدِهِ" أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام ، وسمعت الشيخ الوالد عمر بن الحسين - رحمه الله - قال ...)(٥)

لقب بالإمام ، وبفخر الدين ، وبالرازى ، وبشيخ الإسلام ، وقد حقق أستاذنا الفاضل عليّ العمارى في كل لقب ، ومن أطلقه عليه ، فمن شاء فليرجع إلى كتابه.(٦)

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٥٥/١٣ ، وفيات الأعيان ، لابن خلكان : ٢٤٨/٤.

(٢) منها البداية والنهاية : ٥٥/١٣ ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي ٥٠٠/٢١ .

(٣) مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده : ١١٦/٢ ، الأعلام ، للزركلي : ٢٠٣/٧ ، ومعجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة : ٧٩/١١.

(٤) سورة الإسراء : من الآية ١ .

(٥) التفسير الكبير : ٢٤٧/٢٠ م ١٠

(٦) ينظر الإمام فخر الدين الرازى ، د. علي العمارى ، حياته وآثاره : ١٢-١٦.

له أكثر من كنية ، فهو يكنى بابن خطيب الرى [(١)] ، وبابن الخطيب [(٢)] وبأبي عبد الله [(٣)] ، وبأبي المعالى [(٤)].

وفى تعدد الكنى دلالة على رفعة المنزلة ، وعظم الفضل .

مـولـده :

اختلفت الرواة في سنة مولد الفخر الرازى ، فمنهم من قال إنه ولد سنة ٥٤٣ هـ ، وقيل سنة ٥٤٤ هـ كما ذكر ابن السبكي [(٥)] ومنهم من يرجح أنه ولد سنة ٥٤٤ هـ كابن خلكان [(٦)] والذهبي [(٧)] وغيرهم [(٨)] وأرجح أنه ولد سنة ٥٤٤ هـ بدليلين :

الأول : أن أكثر أصحاب السير ذكروا هذا التاريخ ، بما فيهم من عُرف بتحرى الدقة في تحقيق التواريخ كابن خلكان .

---

(١) البداية والنهاية : ١٣/٥٥ ، مفتاح السعادة : ٢/١١٦.

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ ، روضات الجنات ، للخوانسارى الأصبهاني : ٨/٣٩.

(٣) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٨ ، شذرات الذهب ، للعماد الحنبلي : ٥/٢١.

(٤) النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى : ٦/١٩٩.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى : ٨/٨٥.

(٦) وفيات الأعيان : ٤/٢٥٢.

(٧) سير أعلام النبلاء : ٢١/٥٠٠.

(٨) كصاحب شذرات الذهب ، والوافي بالوفيات ، وروضات الجنات .

الثاني : ما ذكره الفخر في تفسيره من الدلالة على أنه ولد في هذه السنة، حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (١) : (وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغتُ فيه إلى السابع والخمسين) (٢).

ثم يقول في آخر هذه السورة : (تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان سنة إحدى وستمائة) (٣) ، فإذا أضيف هذا إلى تاريخ ميلاده المرجح وهو سنة ٥٤٤ هـ كان الحاصل هي السنة التي أتم فيها هذا التفسير ، وقد ذكر هذا الدليل دكتورنا الفاضل علي العماري في كتابه عن الفخر (٤).

ولد بإقليم (الري) في مدينة هراة ، ونشأ في إقليم (طبرستان) (٥).

---

(١) سورة يوسف : ٤٢ .

(٢) التفسير : ١٨/١٤٨ م٩ .

(٣) التفسير : ١٨/٢٣٣ م٩ .

(٤) الإمام فخر الدين الرازي : ١٧ .

(٥) روضات الجنات : للخوانساري الأصبهاني : ٨/٣٢ .

نشــأته :

نشأ الفخر الرازي في بيت علم ، فقد كان أبوه الإمام ضياء الدين عمر الذي لقب بخطيب الري ذا علم وافر ، ومنزلة رفيعة ، تلقى الفخر العلــــم على يديه ، وذكره في عدة مواضع من التفسير وكان يلقبه (بالإمام) يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾(١) : (وسمعت الشيخ الإمام الزاهد الوالد - رحمه الله - يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب)(٢).

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾(٣) : (كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر - رحمه الله - يقول الرضا عبارة عن ترك اللـــوم والاعتراض)(٤).

وفي موضع آخر : (سمعت شيخي ووالدي رحمه الله)(٥).

ثم تلمذ الفقه على الكمال السمناني وصاحبه مدة ، ثم درس الحكمة وأصول الفقه على المجد الجيلي، ورحل معه لطلب العلم ،كما حرص الفخر علـــى قراءة الكتب، فيقال إنه حفظ (الشامل في أصول الدين) لإمام الحرمين وهـــو كتاب في علم الكلام ، والمستصفى للغزالي ،والمعتمد لأبي الحسن البصـــري(٦)

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢.
(٢) التفسير : ١٣/١٢٩ م٧.
(٣) سورة الزمر : من الآية ٧.
(٤) التفسير : ٢٦/٢٤٧ م١٣.
(٥) التفسير : ١٢/١٤٥ م٦.
(٦) ينظر وفيات الأعيان : ٤/٢٥٠.

ولما نبغ قصد خوارزم فجرى بينه وبين أهلها كلام فيما يرجع إلى العقيدة فخرج من بلده ، وقصد ما وراء النهر فحصل له ما حصل له بخوارزم فعاد إلى الري .

اتصل بالسلطان شهاب الدين الغوري صاحب غزنة فأكرمه كرماً عظيماً ، ثم عاد إلى خراسان واتصل بسلطان خوارزم شاه محمد بن تكش ، ثم توجه إلى الهند (١) . وذكر في تفسيره أنه رحل إليها حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) : (دخلت بلاد الهند ، فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله ، وأكثر بلاد الترك أيضاً كذلك ، وإنما الشأن في عبادة الأوثان ، فإنها آفة عمت أطراف الأرض ، وهكذا الأمر كان في الزمان القديم) (٣) .

وأكثر المصادر لا تذكر أنه رحل إلى الهند إلاّ ما كان من صاحب الوافي بالوفيات فقد قال : (وأظنه توجه رسولاً إلى الهند) (٤) .

وفي كلامه السابق إشارة إلى أنه رحل إلى بلاد الهند والترك ، وقد ذكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور أن الإمام الفخر قد تنقل في كثير من البلدان كما يشير تفسيره إلى ذلك يقول : (تنقل الإمام فخر الدين في البلاد الأعجمية من الري إلى خراسان إلى خيوه ، وبخارى ، وعامة بلاد ما وراء النهر ، ودخل البلاد العربية العراق والشام ، كما استفدنا ذلك من تفسيره ، وإن لم ينص عليه أحد من مترجميه ، وكان أكثر استقراره وتدريسه بخوارزم ،

---

(١) الوافي بالوفيات : ٤/ ٢٥٠ .

(٢) سورة هود : من الآية ٥٠ .

(٣) التفسير : ١٨/ ١١ م ٩ .

(٤) الوافي بالوفيات : ٤/ ٢٤٩ .

وهي مدينة خيوه شرقي بحيرة قزوين ،ثم استوطن مدينة هراة من البلاد الأفغانية وكانت وفاته فيها).[1]

وفي تفسيره دلالة على أنه لم يكتبه في مكان واحد ،فقد حرص على أن يثبت في أواخر أكثر السور مكان وتاريخ انتهائه من تفسيرها ،فمثلاً يقول في نهاية سورة إبراهيم : (تمّ تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة - ختم بالخير والغفران - في صحراء بغداد ، ونسأل الله الخلاص من الهموم والأحزان ..).[2]

ويقول في نهاية تفسيره لسورة الإسراء : (تمّ تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم في بلدة غزنين سنة إحدى وستمائة).[3]

كما نبغ الفخر في الطب والطبيعيات ،وله مؤلفات في ذلك فله كتاب (الطب الكبير) و (التشريح) وكتاب (في النبض) لم يتمه.[4] ويظهر ذلك في التفسير كقوله في آية : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً ﴾[5] :

(فيه وجهان : الأول : أنه مَثَلٌ في الشدة يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال ،والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان ،أسرع فيه الشيب ،لأن كثرة الهموم توجب انعصار الروح إلى داخل القلب ، وذلك الانعصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية ،وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج ،وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط ،وذلك يوجب ابيضاض الشعر).[6]

---

(١) التفسير ورجاله : ٦٩.

(٢) التفسير الكبير : ١٥٤/١٩ م١٠.

(٣) التفسير : ٧٣/٢١ م١١.

(٤) الوافي بالوفيات : ٢٥٥/٤-٢٥٦.

(٥) سورة المزمل : من الآية ١٧.

(٦) التفسير : ١٨٤/٣٠ م١٥.

وحديثه عن الطبيعيات منتشر في كل أجزاء التفسير، ويبدو واضحاً .

كذلك نبغ الفخر في علوم العربية ،وله نقولات كثيرة من أئمة النحو في تفسيره ، وقد قال بعض من ترجموا له إنه كانت له انتقادات على النحويين (١) ،ومن كتبه : (شرح المفصل للزمخشري) .

كذلك عرف بأنه بلاغي من خلال تناوله لكتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) وتلخيصه وتحريره لمسائلهما في كتابه (نهاية الايجاز) .

وهو في كل هذه العلوم نراه مثالاً للباحث المدقق ،الذى يغوص في مسائل العلم بأنواعه ،فيكشف الغامض ،ويحرر المبهم .

صفاته :

كان يحضر مجلسه حشد كبير من الناس من شتى المذاهب والمعتقدات والطبقات ،بل الحكام وأهل السلطة أيضاً ، فكان يجيب عن سؤال كل واحد بأحسن إجابة ،ولذلك كان موضع إجلال وإكبار وحب من تلاميذه ، وكل من يحضر مجلسه . وقد كان لوعظه أثر كبير على قلوب الناس ، فكان يَبْكي ويُبْكي كما يقول صاحب وفيات الأعيان (٢) ، وهذا يدل على فصاحة لسانه ورجاحة عقله وحسن إلقائه ،وقوة حجته .

ذكر أهل العلم أنه كان يمتاز بخصال خمس ما جمعها الله لغيره وهي :

الخصلة الأولى : سعة العبارة ، والقدرة على الكلام ،وهذا راجع إلى معرفته بأصول النحو العربي والبلاغة العربية .

---

(١) الإمام فخر الدين الرازي ،د . علي العماري : ٥٧ .
(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .

الخصلة الثانية : صحة الذهن . والثالثة : الاطلاع وهذا يعود إلى شغفه بالعلوم ،دون التمييز بين علم وآخر ، فتعلم العلوم جميعها ،فرض من الفرائض الشرعية كما يقول (١) . الرابعة : المحافظة المستوعبه وهذه نتيجة مداومته على العلم ، فهي تعين على تفجر القرائح .والخامسة : الذاكرة التي تعينه على ما يريده.(٢)

وكثير من أصحاب التراجم أثنوا عليه ومدحوه ووصفوه بصفات تدل على شدة إعجابهم به ،ومكانته العالية .

يقول الصفدي : (الإمام العلامة فريد دهره ونسيج وحده).(٣)

ويقول طاش كبرى زاده : (بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر ، وحبر سما على السماء وأين للسماء مثل ما له من الزواهر ،وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحاكي ما لديه من الأزاهر ،انتظمت بقدره العظيم عقود الملة الاسلامية).(٤)

فهو بحر لا ككل البحار ،زهر في السماء ،روضة علم لا ككل الرياض ..
فهذا هو إنصاف أهل العلم للعلماء ،وتقديرهم لهم ،وإكبارهم لمنزلتهم ومعرفة لمكانتهم.

أما صفاته الخَلْقِيّة فقد كان عبل البدن ،ربع القامة ،كبير اللحية في صورته فخامة ووقار وحشمه ،جهوري الصوت ،له ثروة ومماليك وبزة حسنة.(٥)

---

(١) تنظر وصيته في طبقات الشافعية الكبرى : ٨/ ٩٠ - ٩٣.

(٢) ينظر وفيات الأعيان : ٤/ ٢٤٨.

(٣) الوافي بالوفيات : ٤/٢٤٨.

(٤) مفتاح السعادة : ٢/١١٦.

(٥) شذرات الذهب : ٥/ ٢١.

مذهبه العقدي والفقهي :

كان الفخر سنياً أشعرياً ،دافع عن عقيدة أهل السنة والجماعة في كثير من كتبه (١) ،وتفسيره مليء بتأييدهم ،ورد سائر الفرق التي تخالفهم.

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (٢) : (اعلم أن جماعة من أصحابنا يحتجون بأمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام على أن آدم أفضل من الملائكة . . . قال أكثر أهل السنة الأنبياء أفضل من الملائكة ،وقالت المعتزلة بل الملائكة أفضل من الأنبياء، وهو قول جمهور الشيعة ،وهذا القول اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلمين منا ،وأبي عبدالله الحليمي من فقهائنا) (٣) ففي قوله : (جماعة من أصحابنا) يدل على أنه من أهل السنة.

وفي قوله : (القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلمين منا . . .) يدل على أنه أشعرى .

وقد نقل صاحب (لسان الميزان) عن ابن الطباخ : (أن الفخر كان شيعياً يقدم محبة أهل البيت لمحبة الشيعة حتى قال في بعض تصانيفه : وكان عليّ شجاعاً بخلاف غيره) (٤) .

وهذه دعوى لا أساس لها من الصحة ،فالفخر لم يكن شيعياً ولم يكن يفضل علياً على غيره من الصحابة ،وتفسيره مليء بمحبة الصحابة رضوان الله عليهم ،بل كان أحياناً يُفضل سيدنا أبي بكر -رضي الله عنه- على عليّ بن أبي طالب وله كتاب في (فضائل الصحابة) .

---

(١) ينظر الإمام فخر الدين الرازي ،د . على العمارى : ٥٩ ومابعدها .
(٢) سورة البقرة : من الآية ٣٤ .
(٣) التفسير : ٢/٢٣٤ م١ .
(٤) لسان الميزان : ٤/٤٢٩ .

كما ذكر ابن السبكي أن الفخر نازل فرق الشيعة.[(١)]

وقد مدح أبا بكر الصديق رضي الله عنه في مواضع كثيرة من التفسير راداً على مزاعم الشيعة .

فمثلاً يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾[(٢)] :

(أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر رضي الله عنه - واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية ، ويقولون إنها نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام[(٣)] .... ولما ذكر ذلك بعضهم في محضري قلت : أقيم الدلالة العقلية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر ، وتقريرها أن المراد من هذا الأتقى أفضل الخلق ، فإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد هو أبو بكر ، فهاتان المقدمتان متى صحتا صح المقصود).[(٤)]

وقد تكرر مثل هذا التفضيل في مواضع كثيرة من التفسير - كما قلت سابقاً -.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٧٢/٧ .

(٢) سورة الليل : ١٧ ، ٢١ .

(٣) ذكر الدكتور علي العماري أنه سمع بعض العلماء يقول : إن الفخر لم يذكر علياً في تفسيره إلا مقروناً بقوله عليه السلام ، ثم يقول إن ذلك في الغالب وليس دائماً ، وعلل ذلك بأن الفخر كان يحب علياً حباً شديداً ويعرف قدره ، فقد مدحه في تفسير سورة الفاتحة حيث قال : (ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى) والدليل عليه قوله عليه السلام : (اللهم أدر الحق مع علي حيث دار) ، وقوله : (ومن اتخذ علياً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه) . الإمام فخر الدين الرازي : ٦٥ .

(٤) التفسير : ٢٠٥/٣١ م ١٦ .

أما مذهبه الفقهي : فقد كان شافعياً وله مؤلفات عدة في ذلك ، له (مناقب الإمام الشافعي)[١] و (شرح الوجيز للغزالي) في فروع الفقه الشافعي[٢] و (ترجيح مذهب الشافعي وأخباره) و (شرح أبيات الشافعي الأربعة)[٣].

وقد تعصب لهذا المذهب ، ودافع عنه ، وكان يناهض الحنفية ، ويجادلهم ويناقش أقوالهم ، ويرد عليهم كثيراً كما يبدو ظاهراً في تفسيره ، دون غيرها من المذاهب ، التي قد يذكرها أحياناً.

من ذلك أنه عرض للخلاف في القراءة خلف الإمام ، وذكر رأى الشافعي الذى أوجبها ، ثم ذكر رأى أبي حنيفة الذى قال : (تكره القراءة خلف الإمام بكل حال) ، ورد عليه بثلاث عشرة حجة.[٤]

وهذا الاتجاه كثير جداً في تفسيره.

على أنه قلّ ما يخالف رأى الشافعي كقوله في تفسيره قوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[٥] : (قال أبوحنيفة : إخفاء التأمين أفضل ، وقال الشافعي رحمه الله : إعلانه أفضل ، واحتج أبوحنيفة على صحة قوله قال في قوله : " آمين " وجهان : أحدهما : أنه دعاء ، والثاني : أنه من أسماء الله ، فإن كان دعاء وجب إخفاؤه لقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وان كان اسماً من أسماء الله تعالى وجب إخفاؤه لقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾[٦] ... ونحن بهذا القول نقول)[٧].

فهو قد اختار إخفاء التأمين ، خلافاً لما رآه الشافعي.

---

(١) لسان الميزان : ٤/٤٢٧.
(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩.
(٣) الوافي بالوفيات : ٤/٢٥٥.
(٤) التفسير الكبير : ١/٢١٨-٢٢٠.
(٥) سورة الأعراف : من الآية ٥٥.
(٦) سورة الأعراف : من الآية ٢٠٥.
(٧) التفسير : ١٤/١٣٧م٧.

عصر الإمام الفخر الرازى :

عاش الفخر في النصف الثاني من القرن السادس الهجرى ، وهو عصر مليء بالاضطرابات السياسية والاجتماعية والعقلية والدينية، والدولة الإسلامية قد انقسمت على نفسها .

فالدولة الخوارزمية في خراسان وخوارزم ، والدولة الغورية في بلاد الغور والأفغان والهند ، وكانت الحروب بينهما سجالاً ، وكان التتار يزحفون نحو الدولة الإسلامية ، والحملات الصليبية قائمة في الشام وغيرها من البلدان المتاخمة .

وفي خضم هذه الأحداث كثرت الخلافات المذهبية في الرى بين الشافعية والحنفية والشيعة ، وكثرت الفرق الكلامية ، واشتد الجدل بينهما من شيعة ومعتزلة وكرامية ومرجئة ، ونشطت الحركة الفكرية والثقافية في شتى العلوم .

في هذه الأوضاع نشأ الفخر الرازى ، وفتح عينيه على كل هذه الأحوال ، فاتجه علمه نحوها ، واتصل بعامة الناس ، وجادل الفرق ، ورد أقوالهم الباطلة ، فكثرت مؤلفاته حول تثبيت عقيدة المسلم ومحاولة ترسيخ المفاهيم الإسلامية التي تزعزعت في هذه الظروف .(١)

---

(١) ينظر الإمام فخر الدين الرازى : ٢٨ ومابعدها .
مقدمة كتاب المحصول في علم أصول الفقه ، للفخر الرازى : ١/ ٢٩-٣٢ القسم التحقيقي . تحقيق : د . طه جابر العلواني .

مؤلفاتـــــه :

خلّف الفخر ثروة عظيمة من الكتب القيمة التي حظيت باهتمام كبير ، يقال إنها بلغت مائتي مصنف [(١)] ، ولا يكاد يخلو كتاب من الكتب التـــي ترجمت له من ذكر مجموعة منها .

ذكر ابن خلكان كثيراً منها ويقول فيها : (كل كتبه ممتعة وانتشرت في البلاد فاشتغل الناس بها، ورفضوا كتب المتقدمين) [(٢)] .

وسبب ذلك طريقته المتفردة في جمع المعلومات ، واستقصاؤه لكـل حقائق العلم الذى يتحدث عنه ، والقدرة على مناقشة كل رأى وتحليلـــه ، والاستنباط بعقلية ذكية فذة ، ومن البدهي أن الإنسان يحب أن يقرأ الكتب الشاملة الجامعة لكل ما قيل في العلم الواحد .

وعندما يقول (ابن خلكان) : إن الناس قد رفضوا كتب المتقدميـن لا لما فيها من العلوم ، بل لأن العلم الواحد في كتب الأقدمين متفرق بين عدة كتب ، أما كتب الفخر فقد جمعت العلم الواحد وحللته واستنبطت منه .

أشهر كتبه وأهمها (التفسير الكبير) المسمى بمفاتيح الغيـــب وقد ذكر في التفسير أسماء بعض كتبه في مواضع متفرقة ، من هذه الكتب :

١ - (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، يقول : (ومن تأمل كتابنـــا في دلائل الإعجاز ، علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحــة إلى النهاية القصوى). [(٣)] وهو مطبوع متداول .

---

(١) البداية والنهاية : ١٣/٥٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .

(٣) التفسير : ٢/١٢٧م١ .

٢ - المحصول في علم الأصول : يقول وهو يتحدث عن الميتة في آية ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ (١) : (وقد استقصينا الكلام فيه في كتاب المحصول في علم الأصول) (٢) ، وأشار إليه مرة أخرى وهو يتحدث عن تفسير قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٣) في اختلاف داود وسليمان عليهما السلام والمأخذ عليهما يقول : (أما المأخذ الأول فقد تكلمنا فيه في الجملة في كتابنا المسمى بالمحصول في الأصول) (٤). وهذا الكتاب مطبوع حققه الدكتور طه جابر العلواني .

٣ - الجبر والقدر : يقول وهو يتحدث عن خلق الله لأعمال العباد عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (٥) : (واعلم أنا أطنبنا الكلام في هذا الدليل في كتاب الجبر والقدر) (٦) ويذكر الزركلي أنه مخطوط .

٤ - كتاب الأربعين في أصول الدين : يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٧) : (وفي كتاب الأربعين في أصول الدين أن ما سوى الواحد ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محدث) (٨) ويذكر الزركلي أنه مطبوع .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٣.

(٢) التفسير ١٥/٥ م٣.

(٣) التفسير : ١٩٦/٢٢ م١١.

(٤) التفسير : ١٥/٥ م٣.

(٥) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢.

(٦) التفسير : ١٢٧/١٣ م٧.

(٧) سورة الأنعام : من الآية ١٠٠.

(٨) التفسير : ١٢٠/١٣ م٧.

٥ - الرياض المونقة : يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ (١) : (والمراد افتراق الناس في الأديان ، والأخلاق والأفعال،واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضع ،ومن أراد ذلك فيطالع كتابنا الذى سميناه بالرياض المونقة) (٢).

٦ - تأسيس التقديس : يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٣) : (ومن أراد الاستقصاء في الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس) (٤) وهو مطبوع (٥).

٧ - لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات : يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٦) يقول : (واعلم أن لنا في تفسير أسماء الله كتاباً كبيراً ،كثير الدقائق ،شريف الحقائق سميناه بلوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات) (٧) وهو مطبوع ،طبعته مكتبة الكليات الأزهرية ،راجعه طه عبد الرؤوف سعد (٨).

هذا وقد جمع الدكتورعلى العمارى أسماء كل كتب الفخر المثبتة في المصادر المختلفة ومن أراد المزيد فليرجع إليه (٩).

---

(١) سورة هود : من الآية ١١٨.

(٢) التفسير : ١٨/٧٨ م٩

(٣) سورة طه : ٥ .

(٤) التفسير : ٢٢/٧ م١١.

(٥) الأعلام : ٧/٢٠٣.

(٦) سورة الأعراف : من الآية ١٨٠.

(٧) التفسير : ١٥/٧٠ م٨ .

(٨) المباحث البيانية في تفسير الفخر ،د. أحمد هنداوى : ١٩ رسالة دكتوراه مخطوطة -جامعة الأزهر .

(٩) ينظر الإمام فخر الدين الرازى : ٤٢ ومابعدها .

شعره :

للفخر الرازي شعر هو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر ، لخلوه من الخيال والتعبيرات الشعرية .

وقد قال الصفدي في ذلك : (وكان عارفاً بالأدب ، له شعر بالعربي ليس في الطبقة العليا ولا السفلى ، وشعر بالفارسي لعله يكون فيه مجيداً) (١) .

وقد تأملت شعره فوجدته يدور حول غرضين :

الأول : حديث في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها ، وحمل النفس على طاعة الله ، والابتعاد عن الهوى .

الثاني : رثاء ابنه محمد الذي توفي في ريعان شبابه ، وقد بث بعضه في ثنايا التفسير .

فمن النوع الأول قوله في زهده في الدنيا :

نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال (٢)

---

(١) الوافي بالوفيات : ٤/٢٤٩ .

(٢) الوافي بالوفيات : ٤/٢٥٠ .

ويبدو أنه قال هذه الأبيات في أواخر عمره ،كما يظهر من البيت الثالث ، والفخر هنا يعيش غربة روح المؤمن في هذه الدنيا .

وله أبيات أخرى يذكر فيها قلة تعلقه بالدنيا يقول :

فلو قنعت نفسي بميسورِ بُلغة ... لما سبقت في المكرمات رجالها

ولو كانت الدنيا مناسبة لها ... لما استحقرت نقصانها وكمالها

ولا أرمق الدنيا بعين كرامة ... ولا أتوقى سوءها واختلالها

وذاك لأني عارف بفنائها ... ومستيقن ترحالها وانحلالها

أروم أموراً يصغر الدهر عندها ... وتستعظم الأفلاك طراً وصالها (١)

وله قصيدة نونية طويلة سماها (الهادية للتقليد المؤدية إلى التوحيد) أولها :

يا طالب التوحيد والإيمان ... أبشر بكل كرامة وأمان

واعلم بأن أجلّ أبواب الهدى ... تقرير دين الله بالبرهان (٢)

ويظهر من اسمها ومن هذين البيتين أنها من النظم التعليمي الخالي من روح الشعر .

أما النوع الثاني : فهو - كما قلت - في رثاء ابنه محمد ، فقد بكاه بكاءً مريراً .

وكثيراً ما كان يرجع حزنه وشعوره بضيق الصدر إلى فقده لهذا الولد الصالح ،فمثلا يقول عقب انتهائه من تفسير سورة يوسف : (وقد كنت

---

(١) الوافي بالوفيات : ٤/٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ٤/ ٢٥٨ .

ضيق الصدر جداً بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران، وخصه بدرجات الفضل والإحسان، وذكرت هذه الأبيات في مرثيته على سبيل الإيجاز :

فلو كانت الأقدار منقادة لنـــا فديناك من حُمَّاكَ بالروح والجسم

ولو كانت الأملاك تأخذ رشـــوة خضعنا لها بالرق في الحكم والاسم

ولكنه حكم إذا حان حينــــه سرى من مقر العرش في لجّة اليــم

سأبكي عليك العمر بالدم دائماً ولم أنحرف عن ذاك في الكيف والكم

سلام على قبر دفنت بتربــــه وأُتحفك الرحمن بالكرم الجـــم

وما صدني عن جعل جفني مدفناً لجسمك إلّا أنه أبداً يهمــــي

وأقسم إنْ مسوا رفاتي ورمتـــي أُحسوا بنار الحزن في مكمن العظم

حياتي وموتي واحد بعد بُعْدكم بل الموت أولى من مداومة الغـــم

رضيت بما أمضى الإله بحكمه لعلمي بأني لا يجاوزني حكمـــي (١)

وشعره هذا أقرب إلى الكلام العادى منه إلى الشعر، وفيه مصطلحات المنطـق كالروح والجسم والكم والكيف والحكم .

وله أيضاً أبيات في نهاية تفسير سورة الرعد في رثاء ابنه يقول : (وأقول في مرثية ذلك الولد شعراً :

أرى معالم هذا العالم الفـاني ممزوجة بمخافات وأحـــزان

خيراته مثل أحلام مفزعــــة وشره في البرايا دائــم دان (٢)

---

(١) التفسير : ١٨/٢٣٣ م٩٠

(٢) المصدر نفسه : ١٩/٧٢ م١٠٠

تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب)[١]

يعد هذا التفسير من أهم مؤلفات الفخر الرازي ، وأعلاها مكانة، ومنزلة، لم يكتبه دفعة واحدة على طريقة مرتبة ابتداءً بالفاتحة وانتهاءً بالناس كما فعل أكثر المفسرين ، إنما أملى أكثره يقول الصفدى : (ومن تصانيف الإمام رحمه الله تعالى "التفسير" الذى له وهو في ستة وعشرين مجلداً ، ذكر تفسير الفاتحة منه في مجلدة وهوعلى تجزئة ، الفاتحة في أكثر من ثلاثين مجلداً ، وأكمل التفسير على المنبر إملاء)[٢] ، وقد لاحظت في تفسيره أنه كان يحيل عند تفسير السور المتقدمة من القرآن إلى السور المتأخرة.
وهذا يدل على أنه لم يفسره مرتباً حسب سور القرآن .
فقد أحال وهو يفسر سورة البقرة على سورة الشعراء ، فيقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[٣] : (إن محل العلم هو القلب . . . واستقصينا بيانه في قوله ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾[٤] في سورة الشعراء)[٥] .

---

(١) من طبعات الكتاب : طبعة المطبعة الخيرية بمصر عام ١٣٠٨هـ في ثمانية مجلدات ، وطبعة المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر في ستة عشر مجلداً ، ومنها نسخ مصورة : طبعة دار إحياء التراث ببيروت ، وطبعة دار الفكر عام ١٤٠٥هـ وتقع هاتان الطبعتين في ستة عشر مجلداً والطبعة الأخيرة هي التي اعتمدت عليها، وهي مليئة بالأخطاء في النحو والإملاء وكتابة الآيات القرآنية ، وقد صححت منها ما صادفني .

(٢) الوافي بالوفيات

(٣) سورة البقرة : من الآية ٧ .

(٤) سورة الشعراء : ١٩٣ ومن الآية ١٩٤ .

(٥) التفسير : ١٣٣/٧ م٤ .

وأحال في تفسير سورة الحجر إلى سورة الملك عند قوله تعالى : ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١) يقول : (... فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك ... فلا نعيد ههنا إلا القدر الذى لا بد منه) (٢).

وهكذا نجد ذلك في أكثر السور.

ويبدو من التفسير أنه ألفه في فترة ممتدة من عمره قاربت الثمان سنوات كما يفهم من التواريخ التي كان يثبتها عند نهاية تفسير أكثر السور. فأول تاريخ أثبته في نهاية تفسير سورة آل عمران يقول : (تم تفسير هذه السورة بفضل الله وإحسانه يوم الخميس أول ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة) (٣).

وآخر تاريخ أثبته سنة ٦٠٣ هـ يقول عقب تفسير سورة "الفتح" : (تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية) (٤).

وعلى هذا فتفسيره للقرآن وقع بين سنة ٥٩٥ هـ و ٦٠٣ هـ (٥).

---

(١) سورة الحجر : من الآية ١٦.

(٢) التفسير : ٩/١٧٢ م١٠

(٣) التفسير : ٩/١٦٢ م٥.

(٤) المصدر السابق : ٢٨/١٠٩ م١٤.

(٥) ينظر الإمام فخر الدين الرازى ، د. علي العمارى : ١٧٠.

آراء العلماء حول التفسير الكبير

تعرض منهج الفخر في تفسيره لكثير من انتقادات العلماء ، ذلك لأنهم رأوا أن تفاسير القرآن قبله اقتصرت على تحليل تراكيبه وبيان لنكته ولطائفه وإعرابه ، كما عند الزجاج والفراء والشريف الرضي والزمخشري .

ثم وجدوا تفسير الفخر الرازي قائماً على نمط آخر ، فهو ملئ بكل أنواع العلوم والحكم ، ولم يقتصر على الناحية المتصلة بمعناه اللغوى ، فقد تعرض لكل علم وفن ورأى وشبهه ، فناقش وحلل وفند وشرح .

ولذلك فقد قال ابن خلكان فيه : (له تصانيف مفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم ، جمع فيه كل غريب وغريبة).(١)

وكان الفخر قاصداً أن يجمع فيه كل شيء ، لأنه رأى أنه لا بد من الغوص في منابع القرآن ، وتفجير كل ما فيه من أسرار ، من ذلك أنه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾(٢) بعد أن يبين الفوائد الفلكية في الآية : (.. إنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار ، لا لتكثير النحو الغريب ، والاشتقاقات الخالية عن الفوائد ، والحكايات الفاسدة نسأل الله العون والعصمة).(٣)

ولذلك أخذ الفخر ينتقل من علم إلى آخر ، ومن رأى إلى آخر ومن شبهة إلى أخرى على مدار التفسير كله ، حتى إن صاحب كشف الظنون

---

(١) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .

(٢) سورة الأعراف: من الآية ٥٤ .

(٣) التفسير : ١٤/١٢٧م٧ .

يقول فيه : (إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شئ إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب) [١].

حقاً لقد ملأ الفخر تفسيره بأقوال علماء الفلسفة والمنطق ، وأدخلها في تفسير أكثر الآيات .

من ذلك أنه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٢] : (.. إنَّ التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة ، أليس تصور المنافي يوجب حصول كيفية الغضب ، ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن ، أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي ، ولو جعل كالقنطرة على وهدة لم يقدر على المشي عليه) [٣].

وكما يقول حاجي خليفة فإن الناظر يتعجب من سرده لكل هذه المعلومات المتنوعة في تفسير الآية الواحدة ، وبذلك يُشْهد له بتفرده في هذا النوع من التأليف .

ومن العلماء من كان ينقص من قيمة التفسير بسبب منهجه فيقول أبوحيان في تفسيره : (جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك قال بعض المتطرفين من العلماء فيه كل شيء إلاّ التفسير) [٤].

في كلامه نظر ، ولعل الذين قالوا بأن فيه أشياء لا حاجة بها في علم التفسير يقصدون حديثه عن أشياء لا تمثل أهمية كبيرة ،

---

(١) نقلاً عن التفسير والمفسرون : د. محمد حسين الذهبي : ١/٢٩٥-٢٩٦.

(٢) سورة آل عمران : من الآية ٤٥.

(٣) التفسير : ٥٣/٨ م٤.

(٤) البحر المحيط : ٣٤١/١ قال ذلك وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ .. ﴾ البقرة : من الآية ١٠٦.

كتحديده لثمن شراء يوسف عليه السلام ،وخوضه في أقوال العلماء . أوكتحديده لمقدار المال الممدود في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ﴾ [1] أو تحديده لصفة سفينة نوح ومساحتها في قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴾ [2] حيث يقول : (ذكروا في صفة السفينة أقوالاً كثيرة : فأحدها : أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة فى سنتين ،وقيل في أربع سنين ،وكان طولها ثلثمائة ذراع ،و عرضها خمسون ذراعاً ،وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ،وكانت من خشب الساج) [3].

وكما أن هناك من يقول عن التفسير إن فيه كل شيء إلاّ التفسير كذلك هناك من يحكم عليه بأنه جامع لعلم التفسير ،إلاَّ أن فيه عيوباً، يقول صاحب لسان الميزان : (ورأيت فى "الاكسير في علم التفسير" للنجم الطوفي ما ملخصه : " ما رأيت في التفسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي ومن تفسير الإمام فخر الدين إلا أنه كثير العيوب ") [4].

ويعد هذا التفسير جامعاً ،لأنّ الفخر لم يترك شيئاً مما قاله السابقون في الآية إلاَّ ذكره ، متتبعاً لمقالاتهم ، مهتماً بمناقشة مذاهبهم ،مفنداً الباطل منها ثم ذاكراً رأيه.

وهناك من صنف عن التفسير كتباً ،يبين فيه مآخذه عليه ،كالشيخ السرمياحى ، الذى كان شديد الحمل على الفخر والتهمة له.

---

(١) سورة المدثر : ١٢ .

(٢) سورة هود : من الآية ٣٨ .

(٣) التفسير : ٢٣٢/١٧ م٩ .

(٤) لسان الميزان : ٤/ ٤٢٧ - ٤٢٨ .

يقول صاحب لسان الميزان : (... حدثني شرف الدين النصيبي عن شيخه سراج الدين السرمياحي المغربي أنه صنف كتاب المأخذ في مجلدين، بين فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج ، وكان ينقم عليه كثيراً ويقول : يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق ، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق في غاية من الوهاء) .[١]

هل أكمل الفخر تفسيره؟:

ذكر بعض من تحدث عن سيرة الفخر الرازي أن له تفسيراً لم يكمله وذكر آخرون أن الذي أكمله شهاب الدين بن خليل الخوييّ ونجم الدين أحمد بن محمد القمولي .

يقول ابن خلكان : (له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم ، جمع فيه كل غريب وغريبة ، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله).[٢]

ويقول العماد الحنبلي : (ومن تصانيفه تفسير كبير لم يتمه في اثني عشر مجلداً كباراً) .[٣]

ويقول حاجي خليفة : (وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي تكملة له وتوفي سنة ٧٢٧ هـ ، وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخوييّ الدمشقي كمل ما نقص منه أيضاً وتوفي سنة ٦٣٩ هـ) .[٤]

---

(١) المصدر السابق : ٤/٤٢٨ .
(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .
(٣) شذرات الذهب : ٥/٢١ .
(٤) كشف الظنون : ٢/١٧٥٦ .

ويقول ابن أبي أصيبعة في كتابه : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عند ترجمته لحياة أحمد بن خليل الخويّي : (ولشمس الدين من الكتب تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الرى) .(١)

ويقول ابن السبكي في (طبقات الشافعية) في ترجمته لنجم الدين القمولي: (وله تكملة في تفسير الإمام فخر الدين) .(٢)

وقد لاحظت في التفسير ما يوهم أن الفخر لم يكمله ذلك أنه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾(٣) في سورة الواقعة : (وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين الرازى -رحمه الله- بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطرى خاطره ،على أني معترف بأني أصبت منه فوائد لا أحصيها) .(٤)

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٥) من السورة نفسها : (قال المفسر : المسألة الأولى أصولية ،ذكرها الإمام فخر الدين -رحمه الله- في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها) .(٦)

وقد علق العلماء الذين نهضوا بتحقيق طبعته الأخيرة على الآية السابقة بقولهم في هامش الصفحة : (هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازى ،وإنما هو لأحد تلامذته ،وربما كان من العلماء المتأخرين) .(٧)

---

(١) ٢/ ١٧١ .

(٢) ٥/ ١٢٩ .

(٣) سورة الواقعة : ٢٣ .

(٤) التفسير : ٢٩/ ١٥٥م ١٥ .

(٥) سورة الواقعة : ٢٤ .

(٦) التفسير : ٢٩/ ١٥٦م ١٥ .

(٧) التفسير : ٢٩/ ١٥٦م ١٥ .

وحددت بعض المصادر الموضع الذى وصل إليه الإمام الفخر في تفسيره فقد جاء في هامش كشف الظنون قوله : (الذى رأيته بخط السيد مرتضى نقلاً عن شرح الشفاء للشهاب أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء)[١].

فنحن الآن أمام مسألتين لا بد من التحقيق فيهما :

الأولى : هل أتم الفخر التفسير أو أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء ومابعدها ليست له.

الثانية : هل فسر الفخر سورة الواقعة أو أنها لغيره.

الذى أراه أن الفخر قد أتم تفسيره ، لأنه يحيل في تفسير بعض السور إلى ما بعد سورة الأنبياء .

فمثلاً يحيل وهو يفسر سورة سبأ على سورة الأعراف ، وسورة سبأ بعد سورة الأنبياء كما نعلم ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾[٢] : (قد ذكرنا في سورة الأعراف أن قوله ﴿ لَا تَسْتَأْخِرُونَ ﴾ يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل)[٣].

ويحيل في الحديد على البقرة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[٤] : (... وهذه الآية مفسرة في سورة البقرة)[٥].

---

(١) نقلاً من كتاب (الإمام فخر الدين الرازى) ، للدكتور علي العمارى : ٦٣ .

(٢) سورة سبأ : ٣٠ .

(٣) التفسير : ٢٥/٢٥٩ م١٣ .

(٤) سورة الحديد : من الآية ١١ .

(٥) التفسير : ٢٧/١٦٩ م١٤ .

كذلك نجد أن التواريخ المثبتة في أواخر السور التي بعد الأنبياء توافق تاريخ حياة الفخر، وهذا يعني أنه مفسر هذه السور.

يقول في آخر سورة (ص) : (تم تفسير هذه السورة يوم الخميس الثاني من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة).(١)

ويقول في آخر سورة فصلت : (تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ..).(٢)

وهذه أدلة تدل على أنه هو الذى أكمل التفسير .

كذلك لاحظت أن التفسير يسير على نمط واحد وطريقة واحدة في الأسلوب، لأن لكل متكلم خصائص صياغية خاصة به ويعرف بها وقد لاحظ الدكتور أحمد هنداوى أن الفخر كان يكثر من عبارة (لا بد وأن) في كل تفسيره، وهذا يدل على أنه له.(٣)

فمثلاً يقول الفخر عند شرح معنى الاستعاذة في أول التفسير : (... إن قوله : "أعوذ بكلمات الله التامات" إنما يحسن ذكره إذا كان قد بقي في نظره التفات إلى غير الله، وأما إذا تغلغل في بحر التوحيد ... فلا جرم أن يقول : " أعوذ بالله " و : " أعوذ من الله بالله "كما قال عليه السلام : " أعوذ بك منك " واعلم أن في هذا المقام يكون العبد مشتغلاً أيضاً بغير الله، لأن الاستعاذة لا بد وأن تكون لطلب أو لهرب وذلك اشتغال بغير الله تعالى ..).(٤)

---

(١) المصدر السابق : ٢٦/٢٣٦ م١٣.

(٢) المصدر السابق : ٢٧/١٤١ م١٤.

(٣) ينظر المباحث البيانية في تفسير الفخر : ٤٢ ومابعدها.

(٤) التفسير : ١/٧٩ م١.

ويقول وهو يفسر قوله تعالى من سورة الأنبياء : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (١) : (ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه ؛ لأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد ، فلو كان لله ولد لأشبهه في بعض الوجوه ، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر ..) (٢).

ويقول عند تفسير قوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (٣) : (ذكروا في حد الثواب أنه لا بد وأن يكون منفعة ، ولا بد وأن تكون خالصة من الشوائب ، ولا بد وأن تكون دائمة ، ولا بد وأن تكون مقرونة بالتعظيم) (٤).

وتكرار مثل هذه الظاهرة تثبت أنه كتب التفسير كله ، وقد قال الدكتور أحمد الهنداوي : (وهذه الظاهرة ليست منتشرة في التفسير وحده ، بل إنها منتشرة في باقي كتبه) (٥).

وقد لاحظت ظاهرة أخرى في أسلوبه تكثر في التفسير كله ، ذلك أنه دائماً يكرر عبارة : (وإذا عرفت هذا) ، (وإذا ثبت هذا) بعد شرحه للمقدمات.

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ (٦) : في تقرير هذا القول القراءة الشاذة ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ فإن معناه

---

(١) آية : ٢٦.

(٢) التفسير : ٢٢/١٥٩ م١١.

(٣) آية : ٢١.

(٤) التفسير : ٣٠/١١٢ م١٥.

(٥) المباحث البيانية في تفسير الفخر : ٤٥.

(٦) سورة البقرة : من الآية ١٨٤.

: وعلى الذين يشجمونه ويكلفونه ،ومعلوم أن هذا لا يصح إلاّ في حق من قدر على الشيء مع ضرب من المشقة . إذا عرفت هذا فنقول : القائلون بهذا القول اختلفوا على قولين).[1]

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[2] بعد أن يشرح معناها اللغوى : (إذا عرفت هذا فنقول : قيل هم الأختان ..).[3]

ويقول عند تفسير : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[4] بعد ذكر الأحكام المشتملة عليها الآية : (... إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم ،فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم ،وذلك حاصل بمحض العقل ،فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه. وإذا ثبت هذا فنقول : في الآية قولان : ...).[5]

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾[6] : (.. فثبت أن الأصل في الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب ، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ،وإذا ثبت هذا فنقول : إن هذه الأجزاء ... قابلة للحياة).[7]

---

(١) التفسير : ٥/٨٥ م٣.

(٢) سورة النحل : من الآية ٧٢.

(٣) التفسير : ٢٠/٨٣ م١٠.

(٤) سورة الإسراء : من الآية ١٥.

(٥) التفسير : ٢٠/١٧٤ م١٠.

(٦) سورة الصافات : ١١.

(٧) التفسير : ٢٦/١٢٥ م١٣.

وتكثر هذه الظاهرة الأسلوبية في التفسير ،وسنصادف في ثنايا البحث العديد منها .

بعد هذا بقي أن أثبت أن تفسير سورة الواقعة هي من عمل الفخر؛ لأنني تأملت في السورة فوجدت فيها أدلة قاطعة تشير إلى ذلك . وجدت أن الفخر يحيل عند تفسيره لآيات منها إلى ما فسره قبلها أو إلى ما سيفسره بعدها من سور ، يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (١) : (تقدم تفسيره في الصافات) (٢) .

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) : (ما الفرق بين هذا الموضع وبين أول سورة تبارك حيث قال هناك : "خلق الموت والحياة" بتقديم ذكر الموت . . . وأما في سورة الملك فنذكر إن شاء الله تعالى فائدتها) (٤) .

والفخر هو الذى فسر سورة الملك بدليل إحالته في تفسيرها على سورة البقرة (٥) ،كذلك أحال وهو يفسر سورة الإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ (٦) على سورة الواقعة : (وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة) (٧) .

---

(١) سورة الواقعة : من الآية ١٩ .

(٢) التفسير : ٢٩/١٥٣م١٥ .

(٣) سورة الواقعة : ٦٢ .

(٤) التفسير : ٢٩/١٧٨ م١٥ .

(٥) ينظر الإمام فخر الدين ،د . علي العمارى : ١٨٠ .

(٦) آية : ١٩ .

(٧) التفسير : ٣٠/٢٥١ م١٥ .

كذلك في العبارة التي أوهمت أن تفسير سورة الواقعة ليست لـه دلالات على أنها له ،ففي قوله : (مصنف الكتاب) دلالة على أنه الفخـر ؛ لأنّ الذى يكتب تكملة لا يدعي أنه مصنف الكتاب .

قوله : (ختم الله له بالحسنى) توافق حال الفخر[١] الذى كان يكثر من الدعاء لنفسه ،وطلب الدعاء له ممن يقرأ التفسير .

كذلك طريقته في تفسيره لها يسير على نهج تفسيره لبقية السور من تفصيله للمسائل ،والسؤال ثم الاجابة ،ومن ذكر النكات واللطائف البلاغية، واستعانته بأقوال الزمخشرى عند تفسير آياتها .

وبهذا رأينا أن التفسير كله للفخر الرازى ،وما حدث فيه من اضطراب كان من تدخل النساخ . خاصة وأنه قد صنف التفسير في آخرحياته ، وتمكن من إخراج بعض منه في تحريره النهائي ،وبقي منه شيء فى المسودات والأمالي ،فلما مات قام بعض تلاميذه بتصنيف الباقي وتحريره والحاقه بالأول .[٢]

---

(١) ينظر الإمام فخر الدين : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) ينظر التفسير ورجاله : ٨٧ - ٨٨ .

مكانته البلاغية :

لم يعرف الفخر بلاغياً إلّا من خلال كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) الذى يعد خلاصة لفكر عبد القاهر في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، ولا نرى الفخر ملخصاً و ناقلاً منهماً إنما محرراً ومنظماً وضابطاً ، ومستعيناً بآراء علماء آخرين كالرماني ، والزمخشري ، والوطواط في (حدائق السحر في دقائق الشعر) [1].

يقول في مقدمة كتابه : (ولما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ، ومقاصد فرائدهما ، وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير مع التقرير ، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية ، مع الإجتناب عن الإطناب المُمِلّ ، والاحتراز عن الاختصار المُخِل) [2].

وقد اهتم كثير من الدارسين بهذا الكتاب وأولوه جلّ عنايتهم ، وبينوا أثره في الدراسات البلاغية [3].

ويعد هذا الكتاب حلقة الوصل بين بلاغة عبد القاهر والسكاكي [4]

---

(١) كتاب بالفارسية ترجمه إلى العربية : إبراهيم أمين الشواربي ، نقل عنه الفخر بعض الألوان البديعية مع أمثلتها العربية.

(٢) نهاية الإيجاز : ٧٥ .

(٣) ينظر البلاغة عند السكاكي ، د. أحمد مطلوب : ٢٤٨ ومابعدها ، البلاغة تطور وتاريخ ، د.شوقي ضيف : ١٧٤ ومابعدها ، فخر الدين الرازي بلاغياً ، ماهر مهدي هلال : ٢٥٧ ومابعدها .

(٤) ينظر البلاغة عند السكاكي ، د . أحمد مطلوب : ٢٤٨ .

وتظهر أيضاً الروح البلاغية للفخر من خلال تفسيره ،فقد أودعه كثيراً من النكات البلاغية واللطائف ،ونقل جلّ ما قاله في النهاية من قوانين وأصول إلى حيز التطبيق والتحليل ،بل إنه وسّع القول فيها، فأضاف وناقش وخالف ووافق بعقلية متميزة ، وهو في كل هذا يستمد ضوءه من مشكاة عبد القاهر والزمخشري وغيرهما .

وسأتناول -بإذن الله - مباحث علم المعاني في التفسير ،وهي كثيرة جداً، وقد جمعت الكثير منها ،وحاولت أن أبين رأيه وطريقته في كل باب من أبواب المعاني .

وهذا أول بحث -على حسب علمي - يتناول مباحث علم المعاني في التفسير الكبير وقد سبقته دراسة لمباحث علم البيان في التفسير - بحث دكتوراه للدكتور أحمد هلال هنداوي ، كما علمت أن هناك دراسة تبحث في مباحث علم البديع في التفسير .

وهكذا فإن هذه البحوث حلقات تتواصل لتكشف عن البلاغة القرآنية كما يراها الفخر الرازي .

وأكثر الدراسات التي تناولت الفخر الرازي بلاغياً اتسمت بالشمول والعموم كدراسة الدكتور محمد جلال الذهبي (1) (الفخر الرازي والبلاغة العربية) و (فخر الدين الرازي بلاغياً) للأستاذ ماهر مهدي هلال (2) .

حيث إنها ركزت على بلاغته في (نهاية الإيجاز) .

---

(١) رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .

(٢) كتاب مطبوع من منشورات وزارة الإعلام بالعراق - بحث ماجستير .

وفاتـــه :

اختلف العلماء في يوم وفاته - كما اختلفوا في يوم مولده - على رأيين :

الأول : أنه توفي في غرة شوال يوم عيد الفطر يوم الاثنين سنة ٦٠٦هـ.(١)

الثاني : أنه توفي في ذي الحجة سنة ٦٠٦ هـ.(٢)

وقيل في سبب وفاته إن الكرامية(٣) سموه ، وكان بينه وبينهم عـــداء شديد(٤) ، وقد بالغ في سبّهم وتكفيرهم لسوء معتقداتهم ، وبادلوه السب والتكفير ، وآذوه كثيراً .

وله وصية أملاها في مرض موته على أحد تلامذته تدل على حســن عقيدته(٥) وطلب منه المبالغة في إخفاء موته خوفاً على نفسه من هذه الفرقـة التي جادلها كثيراً ومن غيرها . رحمه الله وجعله من الصالحين ، وألحقنـا بهم كرامة نفس و قرة عين .

---

(١) وفيات الأعيان : ٢٥٢/٤ ، طبقات الشافعية : ٩٣/٨ ، الوافـي بالوفيات : ٢٥٠/٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٥٥/١٣ ، النجوم الزاهرة : ١٩٧/٦ .

(٣) الكرامية فرقة تنسب إلى عبد الله محمد بن كرام ، كان ممن يثبت الصفات وينتهي بها إلى التجسيم والتشبيه ، وهم طوائف ، يبلغ عددهم اثني عشرة فرقة ولكل واحدة منها رأي . الملل والنحل ، للشهرستاني : ١٤٤/١ على هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل ، لابن حزم .

(٤) شذرات الذهب : ٢١/٥ ، مفتاح السعادة : ١١٧/٢ .

(٥) ينظر الوافي بالوفيات : ٢٥٠/٤-٢٥١ .

الباب الأول
علم المعاني قبل الفخر الرازي

الفصل الأول : ما المراد بعلم المعاني ؟

الفصل الثاني : علم المعاني عند البلاغيين .

الفصل الثالث : علم المعاني عند المفسرين وعلماء الاعجاز

الفصل الأول

ما المراد بعلم المعاني ؟

ما المراد بعلم المعاني ؟

أهدف من هذه الدراسة إلى تتبع لفظة (المعاني) لنعرف معناها ومدلولاتها حتى غدت علماً من علوم البلاغة ، له معناه وأبوابه المستقلة به .

ينقل ابن منظور عن الأزهري معنى هذه الكلمة فيقول : (وروى الأزهري عن أحمد بن يحيى قال : المعنى والتفسير والتأويل واحد ، وعنيت بالقول كذا : أردت ، ومعنى كل كلام ومعناته ومعنيته مقصده) .(١) ويقول الأزهري أيضاً : (ومعنى كل شيء محنته وحاله التي يصير إليها أمره) .(٢)

وكان الأوائل يطلقون (المعاني) على الكتب التي تبحث عن معاني ما يشكل من القرآن ، ويحتاج إلى بعض العناء في فهمه ، وهي كثيرة منها (معاني القرآن) للفراء ، و(معاني القرآن) للزجاج ، و (معاني القرآن) للأخفش . كما تطلق على الأبيات التي لا تفهم بيسر وسهولة بسبب ما يشوبها من غموض وإبهام ، إما بسبب غرابة المعنى المعبر عنه ، أو بسبب تركيب صورة وتداخلها في البيت ، أو غير ذلك من أنواع الغموض .

وقد جمع بعض العلماء هذه الأبيات في كتب مستقلة كابن قتيبة في (المعاني الكبير) ، وأبي هلال العسكري في (ديوان المعاني) . وتعني هذه التسميات تدقيق النظر والتأمل في الكلام لاستخراج معانيه التي لا تظهر واضحة .

ثم يطالعنا ابن فارس في كتابه الصاحبي بباب (معاني الكلام) فيذكر أن معاني الكلام عند أهل العلم عشرة : خبر ، واستخبار ، وأمر ، ونهي ، ودعاء ، وطلب ، وعرض ، وتحضيض ، وتمن ، وتعجب .(٣) ثم يتحدث عن خروج كل نوع من

---

(١) لسان العرب : ١٥/٦ .

(٢) تهذيب اللغة : ٣/٢١٣ .

(٣) الصاحبي : ٢٨٩ .

هذه الأنواع عن معناه إلى معاني أخرى . فالخبر يخرج إلى التعجب والتمني والنفي والأمر والنهي .

والاستخبار - أي الاستفهام - يخرج إلى التعجب والتوبيخ والتفجع وغير ذلك من المعاني ، ضارباً الأمثلة لكل نوع منها، وهكذا في بقية معاني الكلام الأخرى . فالمقصود بالمعاني هنا ليست المعاني المفهومة من الكلام مباشرة ، إنما المعاني التي هي مستتبع التركيب .

و يعد بعض من المحدثين كلام ابن فارس هذا هو الأساس الذي قامت عليه نشأة أبواب علم المعاني (١) . بل إن بعضهم قد قال إن ابن فارس ربما أوحى لعبد القاهر كثيراً من أفكاره في الدلائل (٢) ، ومن الأفضل عدم الجزم بمثل هذا التأثير ، لأنه يعني إغفالاً لدراسات أخرى أسهمت في نشأة هذا العلم . ثم إن معاني الكلام التي قال عنها ابن فارس قد عرفت عند غيره من العلماء . كذلك نجد خروج مثل هذه المعاني عن معانيها الأصلية عند كثير من العلماء كسيبويه والفراء ، وليس لابن فارس إلا أفضلية الجمع بين كلمة (معاني) وبين خروج الكلام عن ظاهره .

ثم يذكر عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغيين (المعنى) و(معنى المعنى) و(معاني النحو) ، وعرف المعنى بأنه المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة . ومعنى المعنى : (وهو أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر) (٣) . ويذكر عبد القاهر

---

(١) ينظر البيان العربي ، د . بدوي طبانة : ١٢٨-١٢٩ .
البلاغة عند السكاكي ، د . أحمد مطلوب : ٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ، د . شوقي ضيف : ٦٣ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٦٣ .

أن معنى المعنى يكون في الكناية والاستعارة والتمثيل .

ويربط عبد القاهر بين معاني النحو والنظم ، ذلك أنه يعرف النظم بقوله : (اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه . . . وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه)[١] ثم يجعل بعد ذلك مباحث علم المعاني ، فقد ذكر الإسناد والمسند والمسند إليه وما يجريان فيه من صور كثيرة وأحوال مختلفة .

فالمسند يكون اسماً أو فعلاً ، ويكون معرفاً أو منكراً ، ويتقدم المسند إليه ويتأخر عنه ، وقد يفصل بينهما بضمير فصل ، ولكل ذلك أحواله المختلفة ، كما بحث في الشرط والجزاء على صوره المختلفة ، ودلالة كل صورة ، والحال حين يكون اسماً أو فعلاً مضارعاً أو ماضياً أو جملة اسمية ، ثم تحدث عن الحروف وخصائصها الدقيقة في الكلام ، فالنفي (بما) غير النفي (بلا) ومواضع استخدام (إنْ) الشرطية غير موضع استخدام (إذا) ، كما ذكر مواضع الفصل والوصل بين الجمل بالواو أو الفاء أو ثم ، كما يرى أن النظم يتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإضمار والإظهار . وهذه هي مباحث علم المعاني التي انتهى إليها العلماء من بعده . وهي محصورة في أبواب ثمانية .

ويرجع عبد القاهر صحة النظم وفساده إلى معاني النحو وأبوابه التي ذكرها[٢] ، ثم يعقد فصولاً في أكثر أبواب المعاني يصور فيها المعاني الإضافية التي تفيدها هذه الأبواب .

---

(١) المصدر السابق : ٨١ .

(٢) ينظر المصدر السابق : ٨٢-٨٣ .

ثم يأتي الزمخشرى ويذكر (علم المعاني) مقروناً بعلم البيان في مقدمة تفسيره الكشاف دون تمييز أحدهما عن الآخر فهو يقول : (ولا يغوص على تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان) (١) وكرر هذين المصطلحين في ثنايا تفسيره دون تحديد دقيق لمعنييهما ،كما أشار إلى علماء المعاني ، وكان يعني بهم العلماء الذين يغوصون في بواطن الكلام لاستخراج المعاني (٢) ، ولم يحدد خصائص هذا النوع من المعاني .

ويلخص الفخر الرازى من بعده كتابي عبد القاهر فيذكر علم المعاني والبيان قارناً بينهما دون تحديد لمعنييهما في كتابه (نهاية الإيجاز) . ويقسم الكتاب إلى مقدمة وجملتين ،الجملة الأولى خاصة بالمفردات وأكثر ما فيها يتعلق بعلم البيان ، والجملة الثانية خاصة بالجملة ، تحدث فيها عن النظم ، وذكر أبواباً من علم المعاني ،متبعاً فيها طريقة عبد القاهر في الحديث عن معاني هذه الأبواب . ويتحدد المعنى الدقيق لعلم المعاني عند السكاكي ، فقد فصل بينه وبين علم البيان ،وعرف كلاً منهما تعريفاً دقيقاً يميزه ،ويحدد أبوابه، فيقول في تعريف علم المعاني : (هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره) (٣) .

فهذا العلم يبحث في أحوال مباني الكلام ،وكيف تقوم كل جملة على بناء خاص يدل على المراد ،ويؤدى المعنى المقصود على ما تقتضيه الأحوال

---

(١) الكشاف : ١/ ١٦ .

(٢) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ، د . محمد أبو موسى : ٢٤٩ .

(٣) مفتاح العلوم : ٧٠ .

التي قيلت فيه ، ويبني السكاكي هذا العلم على تراكيب البلغاء ممن يحسنون صنع الكلام ، ويحملونه أدق المعاني وألطفها ، لأنهم القادرون على ذلك لا العامة ، وكأنه يريد أنه يوجهنا إلى الغوص في أفضل المعاني والتراكيب ، ثم يقسمه إلى قانونين :

الأول : يتعلق بالخبر ، والثاني : بالطلب .

وقسم القانون الأول إلى أربعة فنون :

الفن الأول: في تفصيل اعتبارات الإسناد الخبرى . والثاني : في اعتبارات المسند إليه . الثالث : في تفصيل اعتبارات المسند . الرابع : في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل والإيجاز والإطناب.

وقسم القانون الثاني إلى خمسة أبواب هي : التمنى ، الاستفهام ، الأمر ، النهى ، النداء .

وبهذا استطاع السكاكي أن يميز هذا العلم تمييزاً واضحاً ، استقر عليه حتى يومنا هذا .

ومن ثم فقد ألفت بعد المفتاح كتب كثيرة حوله أشهرها كتابا الخطيب القزويني (الإيضاح) و (التلخيص) وضح فيهما ما غمض من كلام السكاكي ، وناقشه في كثير من المسائل ، وترك بعض تعريفاته ووضع مكانها تعريفات أخرى أكثر دقة وضبطاً مستنيراً في ذلك بكتابي عبد القاهر ، وكشاف الزمخشري ، ويعرف علم المعاني تعريفاً جديداً تاركاً تعريف السكاكي إذ يقول : (وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال) .(١)

---

(١) الإيضاح : ٨٤ .

فأحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال هي الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والإثبات والحذف وغير ذلك، فهو علم يبحث في تنوع بناء الجمل حسب الحالة التي تقتضيها أحوال النفس، وفي اختيار طريقة للتعبير عن ذلك، ثم حصر الخطيب هذا العلم في ثمانية أبواب وهي :

١ - أحوال الإسناد الخبرى. ٢ - أحوال المسند إليه.

٣ - أحوال المسند. ٤ - أحوال متعلقات الفعل.

٥ - القصر. ٦ - الإنشاء.

٧ - الفصل والوصل. ٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة.

وأرى أن تعريف السكاكي أشمل وأدق ؛ لأنّ السكاكي ضبط المسألة وحددها فيما يفيد خواص التراكيب، والأبواب التي حددها السكاكي هي التي ذكرها الخطيب القزويني غير أنه قدم في ترتيبها وأخر، فقد جعل الإسناد الحكمي أو المجازى في باب الإسناد الخبرى، بينما جعله السكاكي نوعاً من أنواع الاستعارة في علم البيان، وأرى أنه أمس رحماً بعلم البيان منه بعلم المعاني، فالأولى أن يجعل باباً فيه.

وهكذا فعلم المعاني يبحث في الخصوصيات الزائدة المفهومة من المعاني المباشرة، والتي حصرت في أبواب محدودة على حد ما رأينا.

ودراستي لعلم المعاني في تفسير الفخر لا يتعدى هذه الأبواب التي ذكرها السكاكي والخطيب.

وقد رأيت أن قيام البحث على مثل هذه التقسيمات سيكون له سلبياته، حيث إن الأبواب سوف تتكرر، ففي أحوال المسند إليه يذكر حذفه وذكره وتنكيره وتعريفه، وكذلك في أحوال المسند، وفي متعلقات الفعل، ولذلك فقد رأيت أن الأبر بالدراسة البلاغية القائمة على تذوق النصوص الأدبية وإظهار رونقها الخروج على مثل هذه القيود التي لا تؤثر فيها، فلذلك

جمعت كل ما له صلة بالتعريف فجعلته في باب ،وكل ماله صلة بالتنكير في باب آخر . . . وهكذا في سائر أبواب علم المعاني . ثم إني رتبت هذه الأبواب ترتيباً استضأت فيه بدراسة دكتورنا الفاضل محمد أبي موسى لعلم المعاني عند الزمخشري، فما تقتصر فيه النظرة البلاغية على مفرد واحد جمعته تحت فصل واحد وسميته باب المفرد .

وما تتعدى فيه النظرة البلاغية إلى أكثر من كلمة بأن تشمل جملة جعلته تحت اسم باب الجملة.

وما تمتد فيه النظرة البلاغية إلى غيره من جملة أوجملتين أو أكثر جعلته تحت باب الجمل .

الفصل الثاني

علم المعاني عند البلاغيين

علم المعاني عند البلاغيين

أهدف من هذا الفصل إلى تتبع أصول علم المعاني قبل الفخر الرازي ، وأبين كيف تضافرت جهود العلماء حتى مخضت علماً متكاملاً بمباحثه المعروفة ، وحتى أتبين مواقع نظرات الفخر في هذا العلم ، ومدى استفادته منه ، وهل كان امتداداً لهم؟. وتتعدد طرق التأريخ لأي علم من علوم البلاغة ، فقد يؤرخ له من جهة موءلفاته أو رجاله أو فنونه .

وبما أن دراستي تتناول البلاغة القرآنية ، فقد رأيت أن أبحث عن تطور قواعد وأصول علم المعاني من جهتين :

الأولى : من جهة علماء البلاغة ، الذين اعتنوا بإثبات القاعدة البلاغية ، والبحث عن شواهد محدودة لها من القرآن وكلام العرب ، ويسهم علماء اللغة مع البلاغيين في تطور هذا العلم ، لاهتمامهم بأحوال اللغة وكيفياتها المختلفة .

الثانية : عند المفسرين ومعهم دارسو الإعجاز البلاغي ، وهوءلاء اهتموا بالنظر إلى آيات القرآن ، والكشف عما تحتويه من مباحث تتعلق بعلم المعاني ، فهم محللون ومطبقون لما قيل في البلاغة على القرآن ، وقواعد البلاغة تتسع عندهم وتتشعب مسائلها لأنها في ظل التطبيق .

وسأتناول كل فن من فنون المعاني عند كل منهم ، وأتتبع تطوره حتى بدت معالمه قبل الفخر .

وسأتوخى في ذلك الإجمال والإيجاز ، ذلك لأن التتبع الدقيق لنشأة الفنون يحتاج إلى بحوث قائمة بذاتها ، تهدف إلى التوغل في المسائل ، واستبطان أولياتها ، وهذا ما لا أهدف إليه في هذا البحث .

النظر في المفردات :

اهتم العلماء منذ فترة مبكرة بالألفاظ ،فحددوا صفاتها ،ومواطن جمالها ،وحسن وقوعها في الكلام .

ينقل الرماني عن الخليل سبب تنافر وتلاؤم حروف الكلمة فيقول : (وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد ،أو القرب الشديد ،وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ،وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد)[(١)] .

ثم يذكر أن التلاؤم يكون : (في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ،وذلك يظهر بسهولته على اللسان ،وحسنه في الأسماع ،وتقبله في الطباع)[(٢)] .

وواصل ابن جني اهتمامه بحروف الكلمة ،فرأى أن تجاور الحروف ذات القرب الشديد في المخرج هو سبب التنافر[(٣)] .

وأيده ابن سنان وشرح كلامه فقال : (إن الحروف التي هي أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ،ولا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة . . . وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة ،لا يحسن النزاع فيه ،كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش)[(٤)] .

---

(١) ، (٢) النكت في اعجاز القرآن : ٨٩ .

(٣) ينظر الخصائص : ٢/٢٢٧ .

(٤) سر الفصاحة : ١٩ .

ويذهب عبد القاهر إلى أن اللفظة المفردة من حيث هي لفظة لا وزن لها في فصاحة أو في بيان أو بلاغة ،إنما يرجع حسنها إلى النظم وكيفيات الصياغة وخصائصها . يقول : (وهل تجد أحداً يقول هذه الكلمة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها).(١) ويذكر أن من المزايا المتصلة بفصاحة اللفظ عذوبته وسلاسته وسهولة مخارجه في النطق ، وكل ذلك إنما هو من صفات الفصاحة التي لا تدخل في إثبات الإعجاز القرآني يقول : (واعلم أنا لا نأبى أن تكون حذاقة الحروف وسلاستها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة ،وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ،وإنما الذى ننكره ونُفَيِّل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده،ويجعله الأصل والعمدة).(٢)

ويهتم عبد القاهر بالمفرد من حيث معناه ،فقد تحدث عن اللفظة التي تأتي في جمله فتحسن فيها وتؤنس ،ثم تأتي في جملة أخرى فتقبح كلفظ (الأخدع) فهي تحسن في قول الشاعر :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي   وَجِعْتُ من الإصْغَاءِ لِيتاً وأخْدَعَا

وتقبح في قول أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعيْكَ فَقَدْ   أَضْجَجْتَ هَذا الأنَامَ مِنْ خُرُقِكْ(٣)

كذلك فرق عبد القاهر بين المفرد اسماً وفعلاً ،فالتعبير بالاسم يدل على الاستمرار والدوام ،والتعبير بالمضارع يدل على التجدد والحدوث يقول : (إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء).(٤)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٤٤ . تحقيق : محمود شاكر.

(٢) المصدر السابق : ٥٢٢ .

(٣) المصدر السابق : ٤٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٧٤ .

وقد سبقه في إبراز هذا الفرق ابن فارس في كتابه (الصاحبي) في باب (الفصل بين الفعل والنعت) يقول فيه : (النعت يؤخذ من الفعل نحو قام فهو قائم ... وهذا يسميه بعض النحويين الدائم ، وبعض يسميه اسم الفاعل، وتكون له رتبة زائدة على الفاعل ، قال جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ (١) ولم يقل لا تغل يدك ، وذلك أن النعت ألزم ، ألا ترى أنا نقول : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٢) ولا نقول : آدم عاصٍ وغاوٍ ، لأن النعوت لازمة ، وآدم وإن كان عصى في شيء ، فإنه لم يكن شأنه العصيان فيسمى به) (٣).

واهتم العلماء كذلك بالكلمة وموقعها الملائم لها في الكلام فنقلوا لنا ملاحظات تُعزى إلى العصر الجاهلي ، تبين إحساسهم بقيمة الكلمة في أداء أدق المعاني التي يريد ونها .

من تلك الملاحظات نقد النابغة لحسان بن ثابت حين أنشد :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعْنَ في الضُّحى
وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نَجْدةٍ دما

وَلَدْنا بَني العَنْقاءِ وابْنَي مُحَرِّقٍ
فأَكْرِمْ بِنا خالاً وأَكْرِمْ بِنا ابْنَمَا

قال له : لقد قللت جفانك فقلت (الجفنات) ولو قلت (الجفان) لكان أكثر، وقلت : (يلمعن في الضحى) ، ولو قلت : (يبرقن بالدجى) لكان أبلغ في المديح ، وقلت : (يقطرن من نجدة دما) ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك) (٤).

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ٢٩ .

(٢) سورة طه : ١٢١ .

(٣) الصاحبي : ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٤) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٢٩ .

فالنابغة كان يعلم ما يريده حسان من المبالغة في الفخر ، فرأى أن بعض كلماته لا تؤدى المعنى الذى أراد ، لذلك وجه إليه هذا النقد ونبهه إلى كلمات تصف شعوره وتدل عليه .

كذلك لما سمع طرفة بن العبد قول المسيب بن علس :

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهَمَّ عِنْدَ احتِضَارِه
بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيةُ مُكْدَم

قال له : استنوق الجمل ، أى أنك وصفت البعير بوصف الناقة ، وهذا عند البلاغيين وصف شيء بغير صفته ، ووضع اللفظ في غير موضعه ، فتفوت المطابقة بين ما يتطلبه الحال وبين اللفظ الدال .(١)

التقديم :

يرفض ابن طباطبا في كتابه (عيار الشعر) التقديم ، ويحيل فساد بعض أبيات من الشعر وسوء نظمها إلى ما فيها من تقديم وتأخير أبعدها عن الفصاحة .(٢)

وأكثر من درس مبحث التقديم في الكلام لم يلتفت إلى ما يفيده من معاني في الكلام .

وكان سيبويه -على حد ما وصل إلينا - أول من تحدث عن أسرار التقديم والتأخير في الكلام . ويعد كلامه الأساس الذى قام عليه مبحث التقديم عند أكثر علماء البلاغة كعبد القاهر ، فمن أهم أسراره عنده أنه يأتي للعناية والاهتمام ، وقد حرص على ذكره في أكثر صور التقديم ، يقول في تقديم الظرف : (والتقديم

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ، د . محمد أبو موسى : ٥١-٦ .
(٢) ينظر عيار الشعر : ٤٤ .

ههنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً في العناية والاهتمام، مثله فيما ذكرت لك من باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير، والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير)[١].

ويقول في باب تقديم المفعول على الفعل : (وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد، كما كان عربياً جيداً، وذلك قولك : زيداً ضربت، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء، مثله في : ضرب زيد عمراً وضرب عمراً زيد)[٢].

وقد يكون التقديم من أجل عامل نفسي يطرأ على النفس. يقول في باب " ظن " : (فإن ألغيت قلت : عبد الله أظن ذاهب، وهذا أخال أخوك، وكلما أردت الإلغاء فالتأخير أقوى، وكل عربي جيد ... وإنما كان التأخير أقوى، لأنه إنما يجيء بالشك بعدما يمضي كلامه على اليقين، أو بعد ما يبتدىء وهو يريد اليقين ثم يدركه الشك)[٣].

وقد يأتي التقديم لتنبيه المخاطب، وتأكيد الكلام يقول : (فإذا بنيت الفعل على الاسم قلت : زيد ضربته، فلزمته الهاء. وإنما تريد بقولك مبنى عليه الفعل أنه في موضع منطلق إذ قلت : عبد الله منطلق فهو في موضع هذا الذى بنى على الأول وارتفع به، فإنما قلت : عبد الله، فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء)[٤].

---

(١) الكتاب : ١/٥٦.

(٢) المصدر السابق : ١/٨٠-٨١.

(٣) المصدر السابق : ١/١١٩.

(٤) المصدر السابق : ١/٨١.

ثم يرى ابن جني أن التقديم ليس له علة بلاغية في كتابه (الخصائص)؛ لأنه مذهب العرب، وطريقتهم، وأن المفعول إذا قدم صار الوضع له وكأنه لم يتقدم. يقول: (وذلك أن المفعول قد شاع عنهم واطرد من مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل حتى دعا ذاك أبا علي إلى أن قال: إن تقدم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه، كما أن تقدم الفاعل قسم أيضاً قائم برأسه، وإن كان تقديم الفاعل أكثر ... والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له، حتى إنه إذا أخر فموضعه التقديم ...) (١) ويشعر ابن جني أن كلامه غريب وربما يستنكر فقال: (ولا تستنكر هذا الذي صورته لك ولا يجف عليك، فإنه مما تقبله هذه اللغة ولا تعافه ولا تتبشعه) (٢).

فالمفعول بمنزلة الفاعل، فإذا تقدم لم يخرج عن وضعه، بل يبقى في مكانه المعتاد، أي ليس لتقدمه سر بلاغي.

لكنه في (المحتسب) يعدل عن هذا الرأي، ويرى أن تقديم المفعول يكون للعناية بشأنه، ويظهر ذلك في أربع صور (٣).

ثم تتفجر ينابيع مبحث التقديم على يدي عبد القاهر، وتكتمل أصوله، فقد درس التقديم في النفي، والتقديم في الإثبات، والتقديم في الاستفهام، مستفيداً من الأسس التي ذكرها سيبويه في هذا الباب، سائراً على خطاه في تشقيق حقائق العلم.

---

(١)، (٢) الخصائص: ١/٢٩٧.

(٣) ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين: ٣٠٤ ومابعدها.

فقد ذكر أن للاسم موضعاً يحسن فيه تقديمه على الفعل ، وللفعل موضع يحسن فيه تقديمه على الاسم ، ثم يبين الفروق الدقيقة بين هذه الصياغات يقول : (... إنك إذا قلت : " أفعلت " فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . وإذا قلت: " أأنت فعلت ؟ " فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو ، وكان التردد فيه .. وتقول : " أأنت بنيت هذه الدار " ، " أأنت قلت هذا الشعر " فتبدأ في ذلك كله بالاسم ، ذاك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان).(١)

ثم بين فساد بعض التراكيب التي لم تراع هذه القاعدة ، فخطأ أن نقول : " أأنت قلت شعراً قط ؟ " ، لأنه جمع فيه بين إثبات الفعل والشك في حدوثه ، ولأنه موجه إلى الفاعل لا إلى فعله(٢) ... وهكذا .

وقد انتفع عبد القاهر في هذا الأصل المهم بكلام سيبويه في " باب أم إذا كان الكلام بها بمنزلة أيهما وأيهم " فهو يقول : (وذلك قولك : أزيد عندك أم عمرو ، وأزيد لقيت أم بشراً ... فأنت مدع أن المسئول قد لقي أحدهما ، أو أن عنده أحدهما ... واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن ، لأنك لا تسأله عن اللقاء ، وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدرى أيهما هو ، فبدأت بالاسم لأنك تقصد أن يبين لك أى الاسمين في هذا الحال ، وجعلت الاسم الآخر عديلاً للأول ، فصار الذى لا تسأل عنه بينهما ولو قلت : ألقيت زيداً أم عمراً كان جائزاً حسناً ، أو قلت : أعندك زيد أم عمرو كان كذلك).(٣)

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١١ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز : ١١٢ .

(٣) الكتاب : ٣/١٦٩ - ١٧٠ .

ونلاحظ هنا أن سيبويه يجيز صوراً يجوز فيها أن يتقدم المسئول به عنه في الكلام ،وأن يتأخر مثل قوله : (ألقيت زيداً أم عمراً) . ويلتقط عبد القاهر المعنى الأول في أن المسئول عنه لا بد أن يكون مقدماً سواء كان اسماً أو فعلاً ، وإذا تأخر فإن الكلام يصبح فاسداً فيقول : (إذا قلت أفعلت فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه .. وإذا قلت : أأنت فعلت فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو) . (١) ثم بين فساد بعض صور التقديم.

وهذا يعني أنه لم يأخذ كل ما وجد عند سيبويه من أصول ،وإنما كان يأخذ ما يرى أنه صواب ،ثم يرفض ما عداه ،وهكذا العلماء الأفذاذ الذين لا يهدفون إلا الى الوصول إلى الحقائق الصحيحة بعيدين عن روح التعصب. وتحدث عبد القاهر عن التقديم والتأخير في النفي ،وذكر أمثلة كثيرة له وبين صحتها ،وما ترمي إليه من معاني . ومن النفي انتقل إلى التقديم في الإثبات ، وذكر أن تقديم المسند إليه الضمير يأتي لأحد غرضين :

الأول : تخصيص المسند إليه ،كقولك : (أنا كتبت في معنى فلان) .

الثاني : تقوية الحكم وتأكيده كقولك : (هو يعطي الجزيل) .

ثم يسوق أمثلة كثيرة على ذلك .

وفي هذا المبحث يذكر تأثره صراحة بسيبويه ،وإفادته منه من نص له وهو الذي ذكرناه آنفاً : (إذا بنيت الفعل على الاسم ...) من حيث إفادة التقديم تنبيه السامع فيقول : (وهو الذي ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له ،وقد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء وبني الفعل الناصب كان له عليه ،وعدى إلى ضميره فشغل به ،كقولنا في :

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١١ .

(ضربت عبد الله) : (عبد الله ضربته) فقال : وإنما قلت : (عبد الله) فنبهته له ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء) .(١) وقد ظلت هذه الأصول تتردد في أكثر كتب البلاغة التي بُحِث فيها عن التقديم والتأخير دون إضافات تذكر .

الاستفهام :

لسيبويه إشارات مهمة عن الاستفهام من الناحية البلاغية قامت عليها أكثر الدراسات بعده ، فهو يبين الفرق بين هل والهمزة ، فهل تستعمل في طلب التصديق دائماً ، والهمزة تستعمل لطلب التصور والتصديق ويذكر أن (هل) ليست بمنزلة همزة الاستفهام فهمزة الاستفهام أوسع في افادة المعاني يقول : (ومما يدلك على أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة (هل) أنك تقول للرجل : أطربا ! وأنت تعلم أنه قد طرب ، لتوبخه وتقرره ، ولا تقول هذا بعد " هل ") .(٢)

ويتحدث سيبويه عن خروج الاستفهام عن أصل معناه إلى معاني أخرى في عدة أبواب من كتابه . استفاد منها البلاغيون بعده في إقامة باب الاستفهام . فيذكر أن الاستفهام لا يكون للاسترشاد دائماً ، فقد يخرج عنه إلى معان أخرى يقول : (باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل) : (أتميمياً مرة وقيسياً أخرى) فأنت في هذه الحال تعمل على تثبيت هذا له ، وهو عندك في تلك الحال في تَلَوُّن وتنقُّلٍ ، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ، ولكنه وبخ بذلك) .(٣)

---

(١) المصدر السابق : ١٣١ .

(٢) الكتاب : ٣/١٧٦ .

(٣) المصدر السابق : ١/٣٤٣ .

فالاستفهام ليس للاستخبار أو الاسترشاد ؛ لأنّ السائل أراد أن يوبخه فلذلك خرج عن أصل وضعه .

ويعرض علينا سيبويه معاني كثيرة للاستفهام ، فقد يستخدم للتقرير ، أى حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر .

يقول في : (أَطَرَبًا وَأَنتَ قِنّسْرِىّ) : (وأنت تعلم أنه قد طرب ، لتوبخه وتقرره)(١) .

وقد يأتي الاستفهام للتعجب يقول : (فإنك تقول : سبحان الله من هو ؟ ، وما هو ؟ فهذا استفهام فيه معنى التعجب)(٢) .

وقد يأتي للتنبيه على ضلال ويستشهد لذلك بآية من القرآن وبكلام الناس ، كما يذكر دلالة الاستفهام على التسوية ، وهو يتحدث عن دلالة النداء على الاختصاص ، وقاس خروج النداء إلى الاختصاص على خروج الاستفهام إلى التسوية .

يقول : (. . . فالاختصاص أجرى هذا على حرف النداء ، كما أن التسوية أجرت ما ليس باستخبار ولا استفهام على حرف الاستفهام ؛ لأنك تسوى فيه كما تسوى فى الاستفهام ، فالتسوية أجرته على حرف الاستفهام ، والاختصاص أجرى هذا على حرف النداء)(٣) .

فهناك صلة بين المعنى الأصلي للاستفهام والنداء ، وبين المعنى الذى دل عليه . ولا يستبعد أن يكون كلامه هذا أساس قول المتأخرين من أن هناك

---

(١) المصدر السابق : ٣ / ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق : ٣ / ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق : ٢ / ٢٣١-٢٣٢ .

علاقة مجازية بين المعنى الأصلي للاستفهام وبين ما خرج إليه من معان .[١]

ولابن جني حديث عن خروج الاستفهام إلى غير معناه الأصلي إلى صور أخرى ، في باب (إقرار الألفاظ على أوضاعها الأولى ما لم يدع داع إلى الترك والتحول) حيث تحدث عن خروج كثير من الأساليب عن معانيها الأصلية منها: الاستفهام فقد يفيد التقرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ راحِ

ويكشف ابن جني عن أثر همزة التقرير في تغيير المعنى ، فهي تحول النفي إلى إثبات والإثبات إلى نفي .[٢]

ويذكر أيضاً معنى الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾[٣] و : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ .[٤]

يقول : (أي لم يأذن لكم ، ولم تقل للناس اتخذوني وأمي إلهين ، ولو كانت استفهاماً محضاً لأقرت الإثبات على إثباته ، والنفي على نفيه . .) .[٥]

ويشير ابن جني إلى أن الاستفهام إذا خرج عن معناه يظل ملاحظاً لهذا المعنى ، فهو لا يفقد كل معنى الاستفهام حين يراد به غرض آخر .

يقول : (واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظاً له ، وعلى صدد من الهجوم عليه) .[٦]

---

(١) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د . محمد أبو موسى : ١٤٤ .

(٢) الخصائص : ٢/٤٦٣ .

(٣) سورة يونس : من الآية ٥٩ .

(٤) سورة المائدة : من الآية ١١٦ .

(٥) الخصائص : ٢/٤٦٤ .

(٦) المصدر السابق : الجزء والصفحة .

وهذا ما حرص عبد القاهر على بيانه في باب الاستفهام.

ثم يبين لنا ابن جني الأسباب التي تدعو إلى خروج الاستفهام عن صورته الأصلية، ونراه هنا يغور في أعماق النفس كاشفاً عن الدواعي. يقول: (وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه الاستفهام عن أشياء. منها أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه. ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به. ومنها أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما له في ذلك من الغرض، ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقاً..)(١)

فابن جني قد أسهم إسهاماً كبيراً في بناء أساسيات بحث الاستفهام البلاغي.

وتتكامل دراسة الاستفهام عند عبد القاهر الجرجاني، وقد درسه تحت باب التقديم والتأخير؛ لأن هذا الباب لم يهتد العلماء فيه إلى قول فصل، لذلك تظهر معالمه في باب الاستفهام، فيقرر أولاً أن ما ولي الهمزة هو المسئول بها عنه إذ يقول: (إن ما ولي همزة الاستفهام يكون المسئول بها عنه: (... إذا قلت: أفعلت؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإذا قلت: أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه).(٢)

ثم يبين صحة وخطأ بعض الأساليب المتداولة مطبّقاً ما قاله أولاً، ثم ينتقل بنا إلى ذكر أمثلة للاستفهام من القرآن الكريم والشعر فيذكر آية:

---

(١) الخصائص: ٢/٤٦٤ - ٤٦٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ١١٦.

﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(١) وتفصيل القول فيها في أن الاستفهام جاء للتقرير بفعل منه كان ، ولإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه)(٢)؛لأن ما ولي الهمزة الاسم لا الفعل .

ثم يتحدث عن الهمزة إذا وليها الفعل المضارع ،والمراد بها إنكار الفعل ، فإذا كان الفعل مضارعاً وأردت به الاستقبال كان المعنى إذا ابدأت بالفعل على أنك تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون(٣) ، ويضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾(٤).

ويذكر عبد القاهر بأنه لا يقرر بهمزة الاستفهام للمحال وبما لا يكون إلا على سبيل التمثيل ،كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾(٥) فالمعنى جاء على سبيل التمثيل والتشبيه ،وأن ينزل الذى يظن بهم أنهم يسمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ، ويهدى العمى .

ويقاس على إنكار الفعل هنا إنكار المفعول ،فإذا قدم المفعول اتجه الإنكار إلى أن يوقع به مثل ذلك الفعل ،كتقديم (غير) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾(٦):(فالمعنى : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ،وأن يرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ،وأن يكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ،ولا يكون هذا المعنى إذا قيل : أأتخذ غير الله ولياً)(٧)

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٦٢ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز: ١١٣ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ١١٦ .

(٤) سورة هود : من الآية ٢٨ .

(٥) سورة الزخرف : من الآية ٤٠ .

(٦) سورة الأنعام : من الآية ١٤ .

(٧) الدلائل : ١٢٢ .

وحرص عبد القاهر على بيان أثر الاستفهام على النفس، وما فيه من إيقاظ للنفس، وإثارة لحركة الفكر والحس حتى يلتفت الحضور الواعي إلى السياق، فيلتقط المعنى، ويتحقق الأثر.

يقول: (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في هذا بالإنكار، فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، أما لأنه قد أدعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ... وأما لأنه هَمَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ....، وأما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ..)[1].

ولم يضف أحد شيئاً إلى ما قاله عبد القاهر في هذا المبحث، ولا نجد له امتداداً إلا في كتب المفسرين على حد ما سنرى.

الأمر والنهي:

كانت الإشارة إلى خروج الأمر عن معناه الأصلي إشارة مبكرة من علماء النحو، ذلك أن معنى الأمر والنهي يحدده سياق الجملة الواقع فيها.

فسيبويه ذكر بعض معاني صيغة الأمر. يقول: (واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي، وإنما قيل (دعاء) لأنه استعظم أن يقال: أمر أو نهي وذلك قولك: اللهم زيداً فاغفر ذنبه، وزيداً فأصلح شأنه، وعمراً ليجزه الله خيراً، وتقول زيداً قطع الله يده، وزيداً أمرّ الله عليه العيش، لأن معناه الحقيقي: زيداً ليقطع الله يده)[2].

ثم تتسع معاني الأمر عند ابن فارس الذى ذكر أن معاني الكلام عند أهل العلم عشرة، منها الأمر والنهي، ثم مضى يتحدث عن خروج كل نوع من هذه الأنواع إلى دلالات عارضة.[3]

---

(١) دلائل الإعجاز: ١١٩-١٢٠.

(٢) الكتاب: ١/١٤٢.

(٣) الصاحبي: ٢٨٩.

وكانت صيغ الأمر والنهي موضع عناية من الأصوليين والفقهاء ولذلك اهتموا بدلالتيهما على التحريم والوجوب والإباحة،وطبقوها على آيات كثيرة من القرآن ،بل تداخلت في كتب النحو، فابن الشجري في أماليه يعرف الأمر، ويحدد صيغته ،ودلالتها يقول: (وأقول حد الأمر استدعاء الفعل بصيغة مخصوصة مع علو الرتبة . . . فأما علو الرتبة فإن أصحاب المعاني قالوا: الأمر لمن دونك والطلب والمسألة لمن فوقك، كقولك للخليفة : أجرني ،وسموا هذه الصيغة إذا وجهت إلى الله تعالى : دعاء) .(١)

ثم يعدد المعاني التي يخرج إليها الأمر ،فقد يراد بها الندب والاستحباب.والندب كل ما في فعله ثواب وليس في تركه عقاب كقوله تعالى : * اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * .(٢)

وقد يراد بها الإباحة كقوله تعالى : * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ * .(٣)

ويكون بمعنى الوعيد كقوله تعالى : * اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ * .(٤)

وقد يأتي تأديباً وإرشاداً إلى أصلح الأمور كقوله : * وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ *.(٥)

كما يأتي تحدياً في قوله تعالى : * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ * .(٦)

وغيرها من المعاني التي حرص ابن الشجري على الإحاطة بها .

---

(١) أمالي ابن الشجري : ١/ ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ١/ ٢٦٩ ← سورة الأحزاب : من الآية : ٤١ .

(٣) سورة الجمعة : من الآية ١٠ .

(٤) سورة فصلت : من الآية ٤٠ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٨٢ .

(٦) سورة هود : من الآية ١٣ .

كذلك تناول النهي وعرفه وذكر معانيه التي يخرج إليها . يقول :

(النهي هو المنع من المفعول بقول مخصوص مع علو الرتبة . . .) .(١)

ومن المعاني التي يخرج إليها : التنزيه كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾.(٢)

وقد يرد النهي بغير صيغته كما في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾.(٣)

وقد يأتي بلفظ النفي كقوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(٤)

أى لا تكرهوا في الدين .

وقد يأتي بلفظ الخبر كما في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾(٥)

أى لا يلهكم التكاثر وغيرها .

وتعد هذه الدراسات أوفى دراسات نظرية تناولت هذين المبحثين،

وإن كنا نجد لابن جني قبله دراسة في الأمر يُراد به الخبر ،والخبر يراد به

الأمر ،لم يهتم فيها بإبراز الأسرار البلاغية .(٦)

الحذف :

يعد الحذف طريقا هاما من طرق التعبير التي تعتمد على الإيجاز

في أكثر تراكيبها ،اهتم به العلماء على اختلاف وجهاتهم في دراسة العربية .

---

(١) أمالي ابن الشجرى : ١/ ٢٧١ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٣٧ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٢٣ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٦ .

(٥) سورة التكاثر : ١ .

(٦) ينظر المحتسب : ٢/ ٣٠٩ .

وقد كثر حديث سيبويه عن الحذف، وبيان المحذوف، وذكر السبب الذى ألجأ العرب إليه، فرأى أن الذى دفعهم إليه، إما طلب الخفة على اللسان أو اتساع الكلام والاختصار، ولا بد أن يكون المحذوف معلوماً لدى السامع، وأنه سيفطن إليه لدلالة الكلام عليه. يقول في (باب ما يكون فيه المصدر محذوفا حيناً لسعة الكلام والاختصار): (وذلك قولك: متى سير عليه؟ فيقول مقدم الحاج، وخفوق النجم... فإنما هو زمن مقدم الحاج، وحين خفوق النجم، ولكنه على سعة الكلام والاختصار)[1].

ويقول: (وإنما أضمروا ما كان يقع مظهراً استخفافاً، ولأن المخاطب يعلم ما يعنى، فجرى بمنزلة المثل، كما تقول: لا عليك وقد عرف المخاطب ما تعنى، أنه لا بأس عليك..)[2].

ثم يدخل في تفصيل الحذف، فيتحدث عن حذف حرف الجر، والمضاف والصفة، والمبتدأ، والفعل. ويذكر أبياتاً في الحذف ذكرها عبد القاهر في بداية باب الحذف وهي:

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ ... وَهَاجَ أَهْوَاءَكَ المَكْنُونَةَ الطَّلَلُ

رَبْعٌ قواءٌ أَذَاعَ المُعْصِرَاتُ بِهِ ... وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَاؤُهُ خَضِلُ[3]

وقول الشاعر:

هَلْ تَعْرِفُ اليَوْمَ رَسْمَ الدَّارِ والطَّلَلَا ... كَما عَرَفْتَ بِجَفْنِ الصَّيْقَلِ الخِلَلَا

دَارٌ لِمَرْوَةَ إِذْ أَهْلِي وَأَهْلُهُمُ ... بِالكَانِسِيَّةِ نَرْعَى اللَّهْوَ وَالغَزَلَا[4]

أراد هو ربع قواء، وتلك دار المروة.

---

(١) الكتاب: ١/٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ١/٢٢٤.

(٣) الكتاب: ١/٢٨١. البيتان ينسبان لعمر بن أبي ربيعة.

(٤) المصدر السابق: ١/٢٨٢.

ويذكر سيبويه أن حذف حرف الجر كثير في كلام العرب فيقول : (وهذا أكثر من أن يحصى)[١] ، وكذلك حذف المضاف ، ويمثل بقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ و (يطؤهم الطريق) ، وإنما تريد أهل القرية وأهل الطريق .

ونرى عبد القاهر يأخذ هذا الكلام ويعقد فصلاً في الحذف والزيادة ، وهل هما من المجاز ، ويبدو فيه أنه يعترض على ما فهم من سيبويه من أن الحذف مجاز ، فقال : إن الحذف لا يجرى فيه نقل الكلمة من معناها الأصلي إلى معنى جديد ، بل ما يحدث هو تغير الحكم الإعرابي فقط . وعرض لأمثلة سيبويه السابقة .[٢]

ويسمي ابن جني الحذف (شجاعة العربية) فيقول : (إن العرب قد حذفت الجملة والمفرد والحرف والحركة ، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه ، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته) .[٣] ويضرب الأمثلة لحذف الجملة ، وحذف المبتدأ والخبر، والمضاف مفرداً أو مكرراً والمضاف إليه ، كما تحدث عن حذف المفعول . ويعجب ابن جني ببلاغة الحذف لما فيه من فصاحة وبلاغة ، وأنه لا يقتدر عليه إلا من ملك ناصية اللغة ، ورأيت ابن جني في هذا الباب يعبر عن إعجابه الدائم بالحذف يقول : (وعلى ذكر حذف المفعول فما أغربه وأعذبه في الكلام ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾[٤] تذودان إبلهما ، ولو نطق بالمفعول لما كان في عذوبة حذفه ولا في علوه) .[٥]

---

(١) المصدر السابق : ١/١٠٩ .

(٢) ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي ، عبد القادر حسين : ٧٣ .

(٣) الخصائص : ٢/٣٦٠ .

(٤) سورة القصص : من الآية ٢٣ .

(٥) المحتسب : ١/٣٣٣ .

ويقول : (... وهو في المفعول كثير وفصيح وعذب ، ولا يركبه إلا من قوي طبعه وعذب وضعه) .[1] كما تحدث عن حذف الظرف ، والمعطوف ، والمعطوف عليه ، والمستثنى وخبر إنّ ، وخبر كان ، والمنادى وغيرها مما يحذف في أبواب النحو .

وظل البلاغيون قبل عبد القاهر يتبعون طريقة النحاة في ذكر الحذف وموضعه دون البحث عن سره . فأبو هلال العسكري يجعل الحذف من أنواع الإيجاز ، ويذكر له وجوهاً منها: أن يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه ، ويضرب لذلك أمثلة من القرآن والشعر ، ويقدر المحذوف دون بيان سره .

و منها: أن يوقع الفعل بين شيئين وهو لأحدهما، ويضمر للآخر فعله كقوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾[2] معناه وادعوا شركاءكم.

و منها: أن يأتي الكلام على أن له جواباً فيحذف للاختصار لعلم المخاطب به، ولا تخرج شواهد أبي هلال عما ذكره العلماء قبله فهو ناقل عنهم .

و يشير قدامة بن جعفر قبلهما إلى فساد الشعر الذي يكون فيه دليل الحذف غامضاً، ويسميه الإخلال ، ويذكر له شواهد شعرية ، ويقدر المحذوف .[3]

ويأتي عبد القاهر وأمامه هذا التراث الزاخر من الدراسات في هذا الباب فينفث فيها الروح البلاغية ، فيذكر بدءاً قيمة هذا الباب ، ويصف ما يجده في نفسه حين يكون في الكلام حذف .

يقول : (هذا باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن) .[4]

---

(١) المحتسب : ٢/ ٣٣٥ .
(٢) سورة يونس : من الآية ٧١ .
(٣) ينظر نقد الشعر : ٢٠٤ .
(٤) دلائل الإعجاز : ١٤٦ .

ثم يذكر أبياتاً شعرية ، يقدر فيها المحذوف على طريقة النحاة ، مبيناً ما اعتاده القوم في الحذف والقطع . ثم يقول بعد أن يذكر الأمثلة مرشداً إلى طريقة تعين على إدراك أثر الحذف ، (فتأمل الآن هذه الأبيات كلها ، واستقرها واحداً واحداً ، وانظر إلى موقعها في نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجد ، وألطفت النظر فيما تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر . . وتوقعه في سمعك ، فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت ، وأن رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد) . (١) فهو يحيل في معرفة سر الحذف إلى النفس وإحساسها ببلاغته وقيمته ، وهذه طريقة فذة في فهم تراكيب اللغة من هذا العالم .

ثم عقد فصلاً في تقديم المفعول به ، فذكر أن الحاجة إليه أمس ، واللطائف فيه أكثر ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر ، وقسمه إلى قسمين :

الأول : أن يذكر الفعل متعدياً والمراد إثبات المعاني للفاعلين من غير أن يتعرض فيه لذكر المفعولين مثل : (فلان يحل ويعقد) ، و(ينهى ويأمر) .

القسم الثاني : أن يكون للفعل مفعول مقصود ، ولكنه يحذف لدليل الحال عليه ، وهذا النوع ينقسم إلى قسمين :

١ - جلى لا صنعة فيه كقولهم : (أصغيت إليه) وهم يريدون أذني .

٢ - خفى تدخله الصنعة وهو أنواع :

فنوع منه أن يذكر الفعل ، وفي النفس له مفعول مخصوص قد علم مكانه ، إما لجرى ذكر أو دليل حال ، مثاله قول البحتري :

شَجْوُ حسادِهِ وَغَيْظُ عِداهُ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَ يَسْمَعَ وَاعٍ

---

(١) المصدر السابق : ١٥١ .

يقول عبد القاهر : (المعنى لا محالة أن يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره وأوصافه ، ولكنك تعلم على ذلك أنه كأنه يسرق علم ذلك من نفسه ، ويدفع صورته عن وهمه ، ليحصل له معنى شريف) .(١)

ونوع آخر منه : وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود ، قد علم أنه ليس للفعل الذى ذكرت مفعول سواه بدليل الحال ، أو ما سبق من الكلام ، إلا أنك تطرحه وتتناساه ، ثم ساق عبد القاهر أمثلة على ذلك منها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ .(٢)

يقول فيها عبد القاهر : (إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ، ويؤتى بالفعل مطلقاً ، وما ذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى غنماً أو إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض) .(٣)

ونوع آخر من حذف المفعول : وهو ما يسمى بالإضمار على شريطة التفسير وخاصة بعد فعل المشيئة كقول البحترى :

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ   كَرَماً وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

يقول عبد القاهر فيه : (الأصل لا محالة : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ،

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٥٦ .

(٢) سورة القصص : ٢٣-٢٤ .

(٣) دلائل الإعجاز : ١٦١ .

ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ... فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت : " لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها " صرت إلى كلام غث ، وإلى شيء يمجه السمع ، وتعافه النفس) .(١) ويذكر الشيخ أنه قد يتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن وذلك نحو قول الشاعر :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وسبب حسن إظهار المفعول به أنه كأنه بِدْعٌ عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً ، فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع.

وهكذا كان لعبد القاهر الفضل الأكبر في الكشف عن أسرار الحذف على هذه الطريقة .

الإيجاز :

يعود الحديث عن الإيجاز إلى مرحلة متقدمة ، ذلك لأن الإيجاز أساس لغة العرب ، ومفخرة من مفاخرها .

وقد نقل إلينا الجاحظ تعريفات عدة للإيجاز يقول : (قيل للمفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد)(٢) ، ثم يرى أن الإيجاز لا بد أن يراعي مقتضى الحال ، وأن يكون السامع على علم به يقول : (والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له

---

(١) المصدر السابق : ١٦٣ .

(٢) البيان والتبيين : ٩٧/١ .

أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لاغلاقه ،ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره ،فما فضل عن المقدار فهو الخطل) [1] . وله باب في الكلام المحذوف ، ذكر فيه أمثلة عن الحذف في الكلام ،دون أن يشير إلى أنه من الإيجاز. [2]

وقد عرض أبوهلال العسكري للإيجاز في كتابه الصناعتين مستفيداً من دراسة الجاحظ وابن قتيبة والرماني . بدأه بأقوال أهل البلاغة فيه ،في بيان فضله ،وإرجاع البلاغة إليه ، جمع أكثرها من البيان والتبيين ، ثم يقسمه إلى نوعين : قصر وحذف ،ويعرف الأول بأنه : (تقليل الألفاظ وتكثير المعاني) ويمثل له بالآية : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ويبين فضلها على قول العرب: (القتل أنفى للقتل) ،سائراً في ذلك على نهج الرماني الذى عقد الموازنة بينهما. [3] ثم يسوق لهذا القسم أمثلة كثيرة من القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الأعراب ،وقبل أن ينتهي منه ،يدخل تحته باب المساواة (وهو ما تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني) [4] ناقلاً ذلك من قدامة ابن جعفر في كتابه (نقد الشعر) [5] . ثم يعود ثانية ليتحدث عن إيجاز الحذف ، فيذكر أنواع الحذف في الكلام ،وقد نقل أكثر هذه الشواهد والتعليقات عليها عن ابن قتيبة مع إسقاط لبعض الآيات من ناحية ،وزيادة بعض الأمثلة من كلام العرب من ناحية أخرى .

وهكذا نجده قد اعتمد في دراسته على من سبقه فجمعها ثم صنفها ورتبها تحت باب الإيجاز .

---

(١) الحيوان : ١/٩١.

(٢) ينظر المصدر السابق : ٢/٢٧٨.

(٣) ينظر النكت : ٧٢.

(٤) الصناعتين : ١٩٣-١٩٥.

(٥) ينظر نقد الشعر : ١٥٣.

ثم يطالعنا الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة) بدراسة متميزة للإيجاز ،فقد جعله من شروط الفصاحة والبلاغة ،حيث يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ،ثم أشار إلى دوره في التعبير الفني ،ولا يوافق على ما يقال إن من الكلام ما يحسن فيه الإسهاب والإطالة ،كالخطب والكتب التي يحتاج أن يفهمها العوام ،وأصحاب الأذهان البعيدة ،فإن الألفاظ إذا طالت فيها وترددت في إيضاح المعنى أثر ذلك عندهم فيه ،ولو اقتصر بهم على وحي الألفاظ ، لم يقع لأكثرهم ،ويلزم من ذهب إلى هذا أن يختار الألفاظ العامية المبتذلة على الألفاظ الفصيحة ؛لأن علته في اختيار الطويل لأجل فهمهم له قائمة في الألفاظ المبتذلة ،ولا خلاف أنهم إلى فهمها أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له وهذا مما لا يذهب إليه أحد.(١) ثم يذكر أنهم قسموا دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام : المساواة ،والتذييل ، والإشارة . والمختار عنده أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة لا غموض فيها . وهو الإيجاز، ثم يمثل له بقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ وقال إن بين الآية وبين قول العرب : (القتل أنفى للقتل) تفاوتاً في البلاغة ،ثم تابع الرماني في بيان وجه الفرق بينهما .كذلك تابعه في تقسيم الإيجاز إلى حذف و قصر ومثّل له بأمثلة متنوعة.(٢)

ويبين الخفاجي السر في مدح الإيجاز ،فيرجعه إلى أن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها ، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام ،فاللفظ طريق إلى المعنى ،وإذا كان هناك طريقان يوصلان إلى المعنى أحدهما أخصر من الآخر ،فالمحمود هو الأخصر والموجز للمراد(٣)

---

(١) ينظر سر الفصاحة : ٢٠٥ ومابعدها .

(٢) ينظر المصدر السابق : ٢٠٩ .

(٣) ينظر المصدر السابق : ٢١٤ .

وهكذا فدراسته تمتاز بالتحليل وبالبحث عن العلل والأسباب .

ولم يتناول عبد القاهر الايجاز في باب مستقل ، كشأنه في بقية أبواب المعاني ، لأنه كما عرفنا لا يقف عند الفنون التي اكتملت دراستها ، واتضح طريقها ، لكنه ذكر آية : * وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * في معرض الحديث عن أن الكلامين اللذين يكونان في غرض واحد لا يؤدي كل واحد منهما معنى الثاني بعينه ، وما قاله الناس من تساوى الآية بالمثل "قتل البعض أحياء للجميع" خطأ ظاهر ، يقول : (فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا : "إنهما عبارتان مُعَبَّرُهُما واحد" فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهرة ، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر) [1] .

الفصل والوصل :

تطالعنا بعض كتب الأدب والبلاغة بأحاديث كثيرة عن أهمية الفصل والوصل في الكلام ، فيروى الجاحظ قول الفارسي : (قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل [2] كما ذكر حادثة الرجل الذى مر به أبو بكر فقال له : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل : "لا ، وعافاك الله" [3] .

وقد عُدَّ هذا موطناً من مواطن الوصل وهو كمال الانقطاع مع الإبهام مع اختلافهما خبراً وانشاءً .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٦١ .

(٢) البيان والتبيين : ١/٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ١/٢٦١ .

وينقل أبوهلال العسكرى روايات البلغاء وأصحاب الفصاحة في فضل الفصل والوصل في الكلام تحت فصل أسماه : (في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل) ينقل قول الأحنف : (ما رأيت رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ، ولا عرف حدوده ، إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ، وأعطى حق المقام ، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج ...) [1] ، وينقل إلينا قول معاوية : (يا أشدق قم عند قروم العرب وجحاجحها فَسُلَّ لسانك وَجُل في ميادين البلاغة ، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عَلَى عَلِيّ ابن أبي طالب رضي الله عنه كتاباً ، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته) [2] : (وكان يزيد بن معاوية يقول : إياكم أن تجعلوا الفصل وصلاً ، فإنه أشد وأعيب من اللحن) [3].

ثم بدت أصول هذا الباب في كتب النحو ، فقد درس النحويون جملة التأكيد والعطف والبدل والاستئناف ، ولكن دون ربطها بالمعنى .

على أن هناك من اهتم بإبراز معاني وصل وفصل الكلام كالمبرد، فقد ذكر في أثناء حديثه عن واو الابتداء أن الجملة إذا وقعت بعد نكرة أو معرفة وفيها ضمير يتصل بالكلام استغنى عن الواو اكتفاء بالضمير الذى يربط الكلام بعضه ببعض ، فتقول : (مررت برجل زيد خير منه) و (جاءني عبد الله أبوه يكلمه) بغير الواو ، وإن شئت قلت : (وزيد خير منه) ، (وأبوه يكلمه) بالواو ، فإذا قلت : (مررت بزيد وعمرو في الدار) فهو محال إلا على قطع

---

(١) الصناعتين : ٤٩٧ .
(٢) المصدر السابق : ٤٩٨ .
(٣) المصدر السابق : ٤٩٩ .

خبر واستئناف آخر. فإن جعلته كلاماً واحداً قلت : (مررت بزيد وعمرو في الدار) وقد سمى هذا فيما بعد كمال الانقطاع مع الإيهام، والتوسط بين الكمالين (١)
فقوله : (مررت بزيد عمرو في الدار) بغير ذكر الواو ، يعني أنه ليس هناك صلة بين مرور زيد وبين وجود عمرو في الدار ، وهذا يسمى عند البلاغيين (كمال الانقطاع) ، وفي ذكر الواو : (مررت بزيد وعمرو في الدار) إيذانا بوجود صلة بينهما ، وهذا يسمى عند البلاغيين (التوسط بين الكمالين).

ثم نرى أصول هذا الباب ظاهرة جلية عند عبد القاهر ، فقد أشار إلى أن هذا الباب لا يدركه إلا من أوتي فناً من المعرفة في الكلام ، ثم أخذ يفجر الحقائق من بين يديه. فقد بدأ بالحديث عن عطف المفرد ، فذكر أنه يكون للإشراك في الحكم ، ومثله الجملة التي لها محل من الإعراب ، إذا أريد التشريك عطفت وإذا لم يرد التشريك فصلت ، وهذا أمره سهل ، والذي يشكل أمره (هو الضرب الثاني، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى كقولك : زيد قائم وعمرو قاعد ، والعلم حسن والجهل قبيح) (٢) ثم قرر أن الإشكال يقع في العطف بالواو دون غيرها من أدوات العطف ؛ وذلك لأنّ هذه الأدوات لها معان ، أما الواو فلا تفيد إلا التشريك في الحكم ، فإذا لم يكن هناك حكم إعرابي عرض الإشكال .

ثم أخذ يتحدث عن العطف في الجملة التي لا محل لها من الإعراب . ويقول : إنا لا نقول : زيد قائم ، وعمرو قاعد حتى يكون عمرو بسبب من زيد وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين ، وبحيث إذا عرف السامع حال الأوّل عناه أن يعرف

---

(١) المقتضب : ٤/١٢٥ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٢٣ .

حال الثاني ، ومن هنا عابوا قول أبي تمام :

لَا وَالَّذِى هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى صَبِرٌ وَأَنَّ أَبَا الحُسَيْنِ كَرِيمُ

وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى .

ثم يتحدث عن المخبر عنه إذا كان واحداً في الجملتين كقولنا : هو يقول ويفعل، ويضر وينفع وأشباه ذلك ، فإن معنى الجمع يزداد قوة وظهوراً مثل قولك : العجب من أني أحسنت وأسأت ، وأيحسن أن تنه عن شيء وتأتي مثله ، حيث أن المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد، وواضح أن الجمل هنا ذات محل من الإعراب ، فهي من النوع الذى لا يعرض الإشكال فيه لكن عبد القاهر سكت عن هذا .

ثم أخذ يدرس دواعي الفصل في الجمل ، وقاسها على المفرد ، فكما أن الصفة لا تحتاج إلى واصل يصل معناها بالذى قبله لاتصالها به من ذات نفسها، فكذلك الجمل منها ما يتصل بما قبله اتصال الصفة بالموصوف من غير واصل يصله ، وذكر آيات قرآنية كثيرة حللها تحليلاً بصيراً واعياً ، كقوله تعالى : * الٓمٓ ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ * (١) ، فقوله : * لَا رَيْبَ فِيهِ * بيان وتوكيد وتحقيق لقوله : * ذَلِكَ الكِتَابُ * ، وقوله تعالى : * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * (٢) ، فقوله تعالى : * لَا يُؤْمِنُونَ * تأكيد لما قبلها ، وقوله : * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ * توكيد ثان أبلغ من الأول .

ويواصل عبد القاهر استقصاء الوصل في آيات البقرة الأولى فيذكر قوله تعالى : * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ * (٣) فقوله : * يُخَادِعُونَ * توكيد * آمنا * .

---

(١) سورة البقرة : ١ ، ومن الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة : ٦-٧ .

(٣) سورة البقرة : ٨ ، ومن الآية ٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ توكيد لقوله : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، وهكذا ظل عبد القاهر يدلل من القرآن الكريم وكأنه يفتح الباب لهذا الفن في رحاب التطبيق .

ثم يتحدث عن ترك العطف في الجملة التي يكون حالها مع التي قبلها حال ما يعطف و يقرن إلى ما قبله ، وإنما وجب فيها ترك العطف لأنه قد عرض ما يوجب ذلك ، فذكر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) ، والظاهر أن يعطف على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ وإنما ترك العطف لأن قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مستزئون ﴾ (٣) حكاية عنهم والأخرى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ هنا خبر عن الله . ومثله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . (٤) وقد سُمّي هذا عند المتأخرين كمال الانقطاع .

ثم يذكر عبد القاهر وجهاً ثانياً من وجوه الانقطاع والاستئناف وهو وقوع الكلام جواباً لسؤال مقدر ، ونراه هنا ينتقل إلى الشعر ليضرب الأمثلة به فيذكر قول الشاعر :

زَعَمَ العَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ ... صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِي

---

(١) سورة البقرة : ١٤ .

(٢) سورة البقرة : ١٥ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٤ .

(٤) سورة البقرة : ١١-١٢ .

وقول الآخر :

زَعَمَ العَوَاذِلُ أَنَّ نَاقَةَ جُنْدَبٍ   بِجُنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وَأُجِمَّتِ

كَذَبَ العَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاخَنَا   بِالقَادِسِيَّةِ قُلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

وقد لحظ أن في البيتين الأخيرين معنى زائداً، ذلك أنه وضع الظاهر موضع المضمر ليتأكد أمر القطع فلا يحتاج إلى ما قبله ، ويذكر شواهد أخرى وفي كل شاهد له ملحظ.(١)

ثم يتحدث عن الفصل في أساليب المقاولة وذكر لذلك أمثلة كثيرة من القرآن الكريم.

كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾(٢) ، ويحللها تحليلاً نفسياً يبين سر مجيئها مفصولة وما يقدر فيها من كلام يجعله مسبوكاً سبكاً واحداً .

وظلت هذه الأصول كما هي لم يزد عليها أحد شيئاً ، وما نجده عند المتأخرين ليس إلا تقسيماً وتفريعاً عنها .

---

(١) الدلائل : ٢٣٦ ومابعدها .

(٢) سورة الذاريات : ٢٤ - ٢٨ .

التكرار :

أكثر المشتغلين بالدراسة الأدبية من البلاغيين والأدباء لم يبسطوا القول في التكرار وأغراضه - كما فعل دارسو القرآن - .

كما أن كتب اللغويين والنحويين تكلمت عن التكرار من وجهة نحوية ، تخلو من الروح البلاغية ، ذلك أن هذا المبحث قد نشأ وترعرع في ظل الدراسات القرآنية - كما سنرى إن شاء الله - .

وسأشير إلى بعض الدراسات التي تحدثت عن التكرار - وهي قليلة فللجاحظ مثلاً - الذى امتازت كتاباته بالتكرار - (١) أحاديث عن فضل التطويل في الكلام إذا اقتضى الحال ، وسمى التكرار ترديداً ، فقد ذكر في معرض حديثه عن التلقي والقبول قصة ابن السّمّاك مع جاريته ، فقد تكلم يوماً فقال لجاريته : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه ، لولا أنك تكثر ترداده . قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد ملّه من فهمه) (٢) .

ويقول الجاحظ في الترديد : (وجملة القول في الترداد ، أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص . . . وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون وشعيب ، وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأموراً كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب . أما أحاديث القصص والرقة فإني لم أر أحداً يعيب ذلك) (٣) ، إذن فحسن التكرار نسبي على حسب

---

(١) ينظر التكرار - مظاهره وأسراره - عبد الرحمن الشهراني : ٣٤٥ ومابعدها رسالة ماجستير مخطوطة - جامعة أم القرى .

(٢) البيان والتبيين : ١/١٠٤ .

(٣) المصدر السابق : ١/١٠٥ .

المستمعين ويجد وحسنه ظاهراً في القرآن الكريم ، وهكذا تتنوع دواعي التكرار عنده .

ويتجه ابن جني وجهة أخرى في دراسة التكرار لا علاقة للمخاطب وأحواله بها ، فيستحسن التكرار إذا كان اللفظ الثاني مخالفاً للفظ الأول ،أما التكرار بلفظ الأول فلا يقبله جملة ،ولا يستحسنه في كل موضع ،بل يجيزه إذا كان الموضع للتفخيم والتعظيم مثل : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (١) ، ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ (٢) ويستحسن المخالفة بين الألفاظ في قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (٣) إذ عبر أولاً بلفظ (مهل) ثم : ﴿ رُوَيْدًا ﴾ وهي ثلاث كلمات بمعنى واحد ،لأن (رويدا) فيها معنى الإمهال .

يقول : (فلما تجشم إعادة اللفظ مع تكارهه إياه انحرف عن الأول بعض الانحراف بتغييره المثال ،فانتقل عن فَعَّلَ إلى أَفْعَلَ ،فقال : ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ فلما تجشم التثليث (٤) جاء بالمعنى ،وترك اللفظ البتة ، فقال : ﴿ رُوَيْدًا ﴾ وأما في قراءة ابن عباس : ﴿ فَمَهِّلِ الكفرين مَهِّلْهم رُوَيْدا ﴾ بغير ألف (فإنه كرر اللفظ والمثال جميعاً . . . فجعل ما تكلفه من تكرير اللفظ والمثال جميعاً عنواناً لقوة معنى توكيده) (٥) . فالتكرار يقوي المعنى ويؤكده .

وعرض ابن رشيق للتكرار ،وأسهب في الحديث عنه في الشعر ،ووضح أن له مواضع يحسن فيها ،ومواضع يقبح فيها ،ويرى أن أكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ،ويكون في المعاني أقل ، وإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فهو عيب، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشويق والاستعذاب ،في غزل أو نسيب . . . أو على سبيل التنويه به أو الإشارة إليه

---

(١) سورة القارعة : ١-٢ .
(٢) سورة الحاقة : ١-٢ .
(٣) سورة الطارق : ١٧ .
(٤) يريد بالتثليث ذكر (رُوَيْداً) و (مَهِّلْ) و(أَمْهِلْهُمْ) .
(٥) المحتسب ٢: ٣٥٤ / ٣٥٥ .

بذكر إن كان في مدح ،أوعلى سبيل التعظيم ، أوعلى وجه التوجع . . . وغير ذلك من الأغراض التي ذكرها . . وقد استشهد من الشعر على كل غرض ذكره. ثم ذكر التكرار في المعاني، وذكر أمثلة لـه ،وقابل بين المعاني المكررة ،دون أن يشير إلى أغراضها التي جاءت من أجله، وأرى أن دراسته غير وافية بكل دقائق مبحث التكرار.(١)

ولم يتناول عبد القاهر باب التكرار لأن من قبله قد أشبع القول فيه.

الالتفات :

تعد التفاتات جرير التى أشار إليها الأصمعي من أقدم ما عرف من هذا الفن ،وقد ذُكرت في كثير من الكتب ،فعن محمد بن يحيى الصولى قال : قال الأصمعي : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ،فما هي ؟ قال :

أَتنسى إِذْ تُوَدِّعُنا سُليمى ... بعودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له،وقوله :

طَرِبَ الحمام بذى الأراكِ فشاقني ... لا زلتَ في عَللٍ وأَيْكٍ نَاضِرِ

فالتفت إلى الحمام فدعا له).(٢)

وهكذا فإن صور الالتفات قد عرفت في مرحلة متقدمة دون تحديد لتعريفه الاصطلاحي. ويعد ابن المعتز الالتفات مما يحسن به الكلام والشعر فيذكر اسمه ويعرفه تعريفاً شاع في كتب البلاغة من بعده.

---

(١) ينظر العمدة : ٧٣ ومابعدها.

(٢) الصناعتين : ٤٣٨ ، إعجاز القرآن : ٨٩ ، العمدة لابن رشيق : ٢/٤٦.

يقول : (هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك)[1] ومثل له بقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾[2] ثم مثل بالتفاتات جرير ، وأبيات أخرى عُدَّت من باب الاعتراض كقوله :

لَوْ أَنَّ البَاخِلِينَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ   رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْكِ المِطَالاَ

فجملة (وَأَنْتِ مِنْهُمْ) معترضة بين لو واسمها ، وقول النابغة :

ألا زَعَمَتْ بنو سعدٍ بأنّي   ألا كَذَبُوا كبيرُ السِّنِّ فَانِ

وجملة الاعتراض (ألا كذبوا) .

ويذكر قدامة الالتفات نعتاً من نعوت المعاني ، ويعرفه تعريفاً يقرب من تعريف الاعتراض يقول : (وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أوظن بأن راداً يرد عليه قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدمه ..)[3] ، ثم يسوق أمثلة تدل على أنها من الاعتراض الذي ذكره ابن المعتز ، وهكذا تداخلت أمثلة الالتفات مع أمثلة الاعتراض .

وكل هذه الدراسات لم تهتم ببيان القيمة البلاغية لهذا الأسلوب فقط بل ركزت على الاستشهاد من القرآن وكلام العرب .

---

(١) البديع : ٥٩ - ٦٠ .

(٢) سورة يونس : من الآية ٢٢ .

(٣) نقد الشعر : ١٥٠ .

على أن لابن جني ملاحظات جيدة في الالتفات ذكرها في كتابه (المحتسب) منها أنه يقول في قراءة الحسن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً يُرْجَعُونَ فِيهِ ﴾ (١) بياء مضمومة أنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُم فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وكأنه - والله أعلم - إنما عدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة ، فقال (يُرْجَعُونَ) بالياء رفقاً من الله سبحانه بصالحي عباده المطيعين لأمره . . . فصار كأنه قال : فاتقوا أنتم يا مطيعون يوماً يعذب فيه العاصون) (٢) .

ثم يؤكد ابن جني أن الالتفات لا يكون إلا لغرض بلاغي ، ويأخذ على البلاغيين إهمالهم لذلك ، وإرجاعهم السر فيه إلى الاتساع في اللغة يقول : (فليس ينبغي أن يقتصر في ذكره على الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب بما ألف أصحاب البلاغة أن يردده وهو قولهم إنَّ فيه ضرباً من الاتساع . . . وهذا ينبغي أن يقال : إذا عرى الموضع من غرض متعمد وسر على مثله تنعقد اليد) (٣) .

على أن دارسي القرآن هم الذين اهتموا بالكشف عن الأسرار البلاغية والبحث عما وراء الانتقال من المعاني .

وهكذا رأينا كيف اهتم هؤلاء العلماء ، من أهل البلاغة واللغة بإقامة الشاهد على القاعدة بعد ذكرها ، دون الاهتمام باستقصائها .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨١ .

(٢) ، (٣) المحتسب : ١٤٥/١ .

الاعتراض :

تحدث عنه ابن جني في مرحلة مبكرة ، وبين قيمته البلاغية ، وكيف أنه يمثل جزءاً من هذه اللغة الشريفة ، ويكثر في القرآن والشعر والنثر وهو دليل على قوة النفس ، والتمكن من الفصاحة .

يقول : (والاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير حسن ، ودال على فصاحة المتكلم وقوة نَفْسِه ، وامتداد نَفَسِه ، وقد رأيته في أشعار المحدثين ..) (١).
ويقول : (اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء في القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام ، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد ، فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض بين الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره وغير ذلك مما لا يجوز فيه الفصل) (٢).

ثم يستشهد بآية قرآنية وبأقوال كثير من الشعراء ، يذكر قوله تعالى :
﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣).
ذكر أن فيه اعتراضين : الأول : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ و ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .
وفي هذا الاعتراض اعتراض آخر ، بين الموصوف الذي هو (قسم) وبين صفته ﴿ عَظِيمٌ ﴾ وهو قوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وعلى كثرته في القرآن فقد اكتفى ابن جني بهذه الآية ، وأكثر من الشواهد الشعرية ، دون أن يبين سر هذين الاعتراضين ، وتسبقه دراسة كل من ابن المعتز وأبي هلال العسكري له ، فقد أدخله ابن المعتز تحت (محاسن الكلام والشعر) .

---

(١) ، (٢) الخصائص : ١/٣٣٥ .

(٣) سورة الواقعة : ٧٥-٧٦-٧٧ .

وعرفه بقوله : (ومن محاسن الكلام أيضاً والشعر اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد)[١] ومَثّل له بقول كُثيِّر :

لَوْانَّ الباخِلِينَ -وَأَنتِ مِنْهُمْ- رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْكِ المِطَالا

ودرسه أبو هلال في فصل خاص ولم يزد على أن نقل تعريف ابن المعتز وأمثلته ، مع إضافة بعض الشواهد القليلة.

ويأتي ابن رشيق فيشير إلى أن الاعتراض عند قوم هو الالتفات[١] يعني بذلك قدامة الذى عرفه بقوله : (وسبيله أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأوّل إلى الثاني فيأتي به ، ثم يعود إلى الأوّل)[٣].

ثم ذكر أن سائر الناس يجمع بين الالتفات والاعتراض ، ولا أدرى من يقصد بسائر الناس .

وقد أشار عبد القاهر إليه إشارة بسيطة ، فذكر أن الحشو قد يكون مفيداً ، وربما لا يكون مفيداً ، ويعني بالمفيد منه الاعتراض ، يقول : (وأما الحشو فإنما كره وذم ، وأُنكر ورد ، لأنه خلا من الفائدة ، ولم يحل منه بعائدة ، ولو أفاد لم يكن حشواً ، ولم يُدع لغواً)[٤].

---

(١) البديع : ٥٩.

(٢) العمدة : ٢/٤٥.

(٣) نقد الشعر : ١٥٠.

(٤) أسرار البلاغة : ١٤.

الفصل الثالث

علم المعاني عند المفسرين وعلماء الإعجاز

علم المعاني عند المفسرين وعلماء الإعجاز

تتسع مباحث علم المعاني في رحاب تطبيقها على القرآن الكريم ، ذلك أن المسائل البلاغية عند البلاغيين بدت ضيقة محدودة ،لكنها تتسع وتتعدد وجوهها عندما تنطلق في رحاب القرآن ،وذلك في كل باب من أبواب المعاني كما سنرى .

النظر في المفردات :

اهتم الخطابي بمؤدى الكلمة وهو يبحث عن وجه إعجاز القرآن ، وما تختص به من معنى ،مما لا يلتبس معناها مع معنى رديفاتها في اللغة ، ومما يُظن أنهما بمعنى واحد ،كالحمد والشكر والعلم والمعرفة ،يقول : (إن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ،كالعلم والمعرفة ،والحمد والشكر ،والبخل والشح،وكالنعت والصفة ،وكقولك : اقعد واجلس ،وبلى ونعم ،وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات)[(١)].

وقد بين الفروق بين كل هذه الكلمات والأدوات مستشهداً على ذلك بآيات من القرآن وأحاديث وأقوال العرب . وغاية الخطاب من هذا كله تحقيق أن هذه الفروق لم تتوفر في كلام كما توفرت في القرآن الكريم ، ودارس الكلام يجب أن يكون متبحراً في معرفة هذه الفروق ،ولهذا أمسك كثير من الأئمة عن القول في التفسير[(٢)] ،ويحكي الخطابي عن الأصمعي أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ فسكت وقال : هذا في القرآن ،ثم ذكر قول بعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهي لكم شغاف ؟

---

(١) بيان اعجاز القرآن ،للخطابي :٢٦ .

(٢) ينظر الإعجاز البلاغي ، د . محمد أبو موسى : ٥٩ .

ويرد على من زعم أن في القرآن كلمات ليست واقعة موقعها من ذلك أنهم قالوا إن كلمة : ﴿ أَكَلَهُ ﴾ غير واقعة موقعها في قوله تعالى : ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ لأن العرب تستعمل في هذا الموضع (الافتراس) فيقال افترسه السبع ،فيقول : (إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب ،وأصل الفرس دق العنق ،والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه . . . وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر . . . فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة) .(١) ثم أخذ الخطابي يبين خصوصيات كل كلمة جاءت في التعبير القرآني دون غيرها في بعض الآيات .

وظل أكثر دارسي القرآن يؤكدون على أهمية الكلمة القرآنية في بناء الآية ، فقد لفت الباقلاني إلى حسن اختيار ألفاظ القرآن ،وجعلها من أوجه إعجاز القرآن ،يقول : (إنه سهل سبيله ،فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر ،عن الصنعة المتكلفة ،وجعله قريباً إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب) (٢) ، ويبين الباقلاني منزلة العلم بمعاني هذه الألفاظ ودقائقها . فيقول : (واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ،قليل الطلاب ضعيف الأصحاب . . . وهو أدق من السحر ،وأهول من البحر ،وأعجب من الشعر . وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع (الصبح) في موضع (الفجر) يَحْسُن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أوسجعاً وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تَنْفِرُ في موضع ،وَتزِلّ عن مكان لا تَزِلّ عنه اللفظة الأخرى ،بل تتمكن فيه . . . وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نِفَار،ومرمى شِراد ،ونابيةً عن استقرار) .(٣)

---

(١) البيان : ٣٧ .

(٢) إعجاز القرآن : ٧٠ .

(٣) المصدر السابق : ١٩٧ .

ثم يكشف عن قيمة بعض الكلمات في أداء التعبير القرآني ، فكلمة: ﴿ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ (١) لا يؤدي غيرها مؤداها،ولا تقوم مقامها كلمة أخرى تشبه معناها مثل يقتلوه أو يرجموه أو ينفوه . (٢)

وأدرك ابن عطية في تفسيره قيمة الكلمة القرآنية فقال : (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد ،ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ،ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة). (٣) ومع قوله هذا لا نراه يهتم في تفسيره ببيان قيمة المفردات القرآنية (لأنه لم يتجه إلى أسرار البلاغة القرآنية ،ولم يكثر من إيراد وجوه الإعجاز البياني). (٤)

لكن الزمخشري في تفسيره بحث عن أسرار المفردات من حيث كونها اسماً أو فعلاً ، نكرة أو معرفة ،أوحرف عطف أوجر أو شرط ،متخذاً في ذلك دراسة عبد القاهر أساساً لكثير مما ذكره .

---

(١) سورة غافر : من الآية ٥ .

(٢) ينظر إعجاز القرآن : ٢١٠ .

(٣) المحرر الوجيز : ١/ ٦١ .

(٤) ينظر مقدمة التفسير : ١/ ١٠٥ .
تحقيق : الرحالي الفاروق ـ السيد عبد العال السيد ،عبدالله الأنصاري ، محمد الشافعي صادق ،طبعة قطر .

التقديـــم :

لم تسهم الدراسات القرآنية المتقدمة بعد سيبويه في دفع مبحث التقديم إلى الأمام. فأبوعبيدة في كتابه يقف عند أسلوب التقديم والتأخير، دون أن يكشف عن علته، لكنه ينص على أنه مذهب من مذاهب العرب في كلامها، يقول في قوله تعالى: ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (١) مجازه أحسن خلق كل شيء، والعرب تفعل هذا يقدمون ويؤخرون) (٢).

كذلك الفراء في (معاني القرآن) لم ينتفع بدراسة سيبويه في التقديم وكان يكتفي في بعض آيات التقديم بأن يقول إن في الآية تقديماً وتأخيراً، دون أن يبين سره، المهم أن يبين آيات التقديم. يقول في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ ﴾ (٣): (يقال إنه مقدم ومؤخر معناه "حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم" فهذه الواو معناها السقوط) (٤).

ويقول في قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ (٥): (كأنك حفيٌّ عنها مقدم ومؤخر معناه يسألونك عنها كأنك حفي بها) (٦).

ثم نجد العناية بأسرار التقديم واضحة جلية في تفسير الزمخشري مستفيداً من بحوث البلاغيين فيه، فشملت التقديم بين جزأى الجملة، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم المبتدأ على الخبر، والتقديم في المتعلقات، كما اهتم بسر تقديم جملة على جملة مطبقاً في أكثر ذلك كلام عبد القاهر وأصوله.

---

(١) سورة السجدة : من الآية ٧.

(٢) مجاز القرآن : ٢/١٣٠.

(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٥٢.

(٤) معاني القرآن : ١/٢٣٨.

(٥) سورة الأعراف : من الآية ١٨٧.

(٦) معاني القرآن : ١/٣٦٩.

وأكثر ما يفيد التقديم عنده الاختصاص ،كتقديم الخبر ، يقول في قوله تعالى : * ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * [1] : (تقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص ، يعني لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن) [2].

وقد يضاف إليه معاني أخرى كالتأكيد والتفخيم والتفرد ، كما في تقديم الاسم على الفعل ، وقد أشار إليه في مواطن كثيرة،منها أنه يقول في قوله تعالى : * اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ * [3] : (وإيقاع اسم : * اللَّهُ * مبتدأ وبناء : * نَزَّلَ * عليه فيه تفخيم لـ: * أَحْسَنَ الحَدِيثِ * وتأكيد لاستناده إلى * اللَّهِ * وأنه من عنده ، وأن مثله لا تجوز أن يصدر إلا عنه) [4].

وتناول التقديم في المتعلقات ويشمل تقديم المتعلقات على العامل وتقديم بعض المتعلقات عن بعض ،والأول كثيراً ما يفيد الاختصاص كما في قوله تعالى:* وَعَلَامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ * [5] يقول : (فإن قلت قوله : * وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * خرج عن سنن الخطاب مقدم فيه " النجم " مقحم فيه " هم " كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون) [6].

ومثله كثير في القرآن ذكره الزمخشري .

أما تقديم بعض المعمولات على بعض فليس لها قاعدة تضبط بها ، وتأتي أسرارها على حسب سياق الكلام ، فمثلاً يقول في سر تقديم بعض الأقرباء على بعض في قوله تعالى : * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * [7] (وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم الصاحبة والبنين لأنهم أقرب منه وأحب) [8].

---

(١) سورة ق : من الآية ٤٤ .
(٢) الكشاف : ٤ / ١٢ .
(٣) سورة الزمر : من الآية ٢٣ .
(٤) الكشاف : ٣ / ٣٩٤ .
(٥) سورة النحل : ١٦ .
(٦) الكشاف : ٢ / ٤٠٥ .
(٧) سورة عبس : ٣٤ - ٣٦ .
(٨) الكشاف : ٤ / ٢٢٠ .

الاستفهام :

بدأت تباشير هذا المبحث في الدراسات القرآنية عند أبي عبيدة ، فقد بين أن الاستفهام في كثير من آيات القرآن لم يرد به معناه الحقيقي . وقاس ذلك على الشعر . يقول في قوله تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ (١) : (جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ولكن معناها معنى الإيجاب ، أي أنك ستفعل ، وقال جرير : فأوجب ولم يستفهم -لعبد الملك بن مروان -:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ) (٢)

ويقول في قوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهين ﴾ يقول : هذا باب تفهيم ، وليس استفهاما عن جهل ليعلمه ، وهو يخرج مخرج الاستفهام وإنما يراد به النهي عن ذلك ، ويتهدد به) (٣) .

ونحا في غير هذه الآيات هذا النحو .

والفراء في (معاني القرآن) ذكر معاني للاستفهام بـ (هل) في بعض آيات القرآن الكريم ، فقد تفيد الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٤) فهو استفهام وتأويله : انتهوا ، وكذلك قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ (٥) ، وهذا يخالف ما ذهب إليه سيبويه من أن (هل) لا تستعمل إلا في الاستفهام ، ولا تخرج عن معناها إلى أي معنى آخر ، بخلاف الهمزة التي تخرج عن معناها ، يقول : (فـ " هل " ليست بمنزلة ألف الاستفهام ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٣٠ .

(٢) مجاز القرآن : ١/٣٥-٣٦ .

(٣) المصدر السابق : ١/١٨٤ .

(٤) سورة المائدة : من الآية ٩١ .

(٥) سورة المائدة : من الآية ١١٢ .

لأنك إذا قلت : هل تضرب زيداً ؟ فلا يكون أن تدعى أن الضرب واقع ، وقد تقول : أتضرب زيداً ؟ فأنت تدعى أن الضرب واقع)[(١)] فالقاعدة قد تختلف حين تطبق على آيات القرآن الكريم ، كما يذكر معاني بقية أدوات الاستفهام في آيات أخرى ، فكيف تفيد التعجب والتوبيخ في قوله تعالى : * كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً *[(٢)] ، وقد تفيد الهمزة الأمر كما في قوله تعالى : * وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ *[(٣)] .

ويضع ابن قتيبة الاستفهام الذى يخرج عن حقيقته تحت باب : (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) فيكون للتقرير يقول : (ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير ، كقوله سبحانه : * أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ *[(٤)] .

وقد يكون للتعجب : (ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تعجب كقوله : * عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ *[(٥)] كأنه قال : عم يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال عن النبإ العظيم يتساءلون . وقد يكون للتوبيخ كقوله تعالى : * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ *[(٦)] .

وقد اتسع مبحث الاستفهام عند مفسرى القرآن . كابن عطية والزمخشرى حيث يظهر التطبيق الحي لمنهج عبد القاهر عند الزمخشرى ، فقد تجاوز المعاني المشهورة عند البلاغيين قبله ، وذكر له أغراضاً أخرى .

---

(١) الكتاب : ٣/١٧٥-١٧٦ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران : من الآية ٢٠ .

(٤) سورة المائدة : من الآية ١١٦ ، تأويل مشكل القرآن : ٢٧٩ .

(٥) سورة النبإ : ١-٢ ، المصدر السابق والصفحة .

(٦) سورة الشعراء : ١٦٥ ، المصدر السابق : ٢٨٠ .

فيأتي للتفخيم [١] كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، ويأتي للتبكيت كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [٢] ، والاستبعاد كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ [٣] ، والاستبطاء كما في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ [٤] .

الأمر والنهي :

تعرض مفسرو القرآن لآيات الأمر والنهي ، وبينوا معانيها من خلال النص القرآني .

فأبو عبيدة أشار إلى أن الأمر له ظاهر وله باطن ، وباطنه هو المعنى الذى يخرج إليه ، فيقول في قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [٥] : (إنَّ هذا ظاهره الأمر وباطنه الزجر ، وهو من سنن العرب ، تقول : إذا لم تستحِ فافعل ما شئت) [٦] .

ويشير ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن إلى بعض صور الأمر ويجعله من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه يقول : (ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد كقوله تعالى ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ ، وأن يأتي على لفظ الأمر وهو تأديب

---

(١) الكشاف : ٢٠٦/٤ .

(٢) سورة النمل : من الآية ٨٤ - الكشاف : ١٦١/٣ .

(٣) سورة هود : من الآية ٧٢ + الكشاف : ٢٨١/٢ .

(٤) سورة الشعراء : ٣٩ - الكشاف : ١١٢/٣ .

(٥) سورة الكهف : من الآية ٢٩ .

(٦) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٤٩ .

كقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾ (١) ... على لفظ الأمر وهو إباحة كقوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ ...) (٢).

وكل هذه تعد إشارات بسيطة إلى معاني بعض صور الأمر، نراها تتسع عند المفسرين، الذين حرصوا على بيان معنى الأمر والنهي كما عند الزمخشري، فقد عرف الأمر وذكر إفادته لمعاني مختلفة، يقول في تعريفه له: (فإن قلت : ما الأمر ؟ قلت : هو طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور، لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه، شبه بآمر يأمره به، فقيل له (أمر) تسمية للمفعول به بالمصدر، كأنه مأمور به) (٣).

ويذكر معاني للأمر مثل الإباحة والوجوب والندب، بالإضافة إلى اهتمامه بالمعاني البلاغية له. فقد يأتي ويراد به التهكم كما في قوله: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤) أو الاستهزاء كما في قوله : ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ ﴾ (٥)، أو طلب الثبات على فعل من الأفعال كما في قوله: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ (٦) وغيرها كثير من المعاني ، حرص الزمخشري على ذكرها وهو يفسر الأمر في الآيات، كما تناول صيغ النهي في آيات من القرآن وبين معناها . فقد يراد به الاستمرار على الحال التي عليها المخاطب كما في

---

(١) سورة الطلاق : من الآية ٢.

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٨٠ ـ سورة النور : من الآية ٣٣.

(٣) الكشاف : ١/ ٢٦٩.
عند تفسير : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ البقرة : من الآية ٢٧.

(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٣.

(٥) سورة آل عمران : من الآية ١٦٨.

(٦) سورة البقرة : من الآية ٢١.

قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١) أو لتقبيح الفعل كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ (٢).

وتتسع معاني النهي وتتعدد عند الفخر وهو يفسر الآيات على حد ما سنرى -إن شاء الله- مستفيداً مما ذكره عبد القاهر.

الحذف :

يرى الفراء عند تفسيره لبعض آيات الحذف، أن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكلام، فيحذفون من الكلام قصداً للتخفيف، لكنه يشترط أن يكون السامع على علم به. فيقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ... ﴾ (٣) : (فافعل، مضمرة بذلك جاء التفسير، وذلك معناه، وإنما تفعله العرب في كل موضع يعرف فيه معنى الجواب) (٤). ويمر على أكثر آيات الحذف، فيقدر المحذوف، ثم يرجع سببه إلى علم السامع به.

والفراء يسير في ذلك على نهج أبي عبيدة قبله الذى كان يرجع الحذف إلى هذا السبب، فيقول : (العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه) (٥). وبذلك لم تكن للفراء في هذا الباب طريقة مميزة

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٦.
(٢) سورة النساء : من الآية ٢.
(٣) سورة الأنعام : من الآية ٣٥.
(٤) معاني القرآن : ٣٣٢/١.
(٥) مجاز القرآن : ١١١/١.

و يتحدث ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن عن الحذف تحت باب (الحذف والاختصار) ويمثل له بكثير من الأمثلة من القرآن وكلام العرب ويذكر أنواعاً له ، فمن أنواعه :

أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : * وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا * (١) ، أى : سل أهلها . وكقوله تعالى : * الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ * (٢) ، أى : وقت الحج .

ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما وتضمر للآخر فعله كقوله تعالى : * فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ * (٣) ، أى : ادعوا شركاءكم .

ومن أنواعه أن تأتي بالكلام مبنياً على أنّ له جواباً فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به كقوله تعالى : * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * (٤) ، أى : لعذبكم (٥) . وغير ذلك ، وكانت طريقته لا تخرج عن تقديره للمحذوف فقط .

أما دراسة الرماني للحذف فكانت تحت باب الإيجاز ، وقد نفث فيها الروح البلاغية ، كما نفث عبد القاهر الروح البلاغية في الناحية النظرية فقد ذكر السر البلاغي للحذف بعد أن كان العلماء يكتفون بالقول بأن الحذف للإيجاز ولا يزيدون ، فيقول وهو يعرض لحذف الجواب في قوله تعالى :

---

(١) سورة يوسف : من الآية ٨٢ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٩٧ .

(٣) سورة يونس : من الآية ٧١ .

(٤) سورة النور : ٢٠ .

(٥) ينظر تأويل مشكل القرآن : ٢١٠ ومابعدها .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾[1] : (وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر؛لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ،ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان)[2] .

ويشترط في الحذف عدم الإخلال بالمعنى ،وأن يكون في الكلام ما يدل عليه . ويعتبر الرماني إيجاز الحذف محاطاً بشيء من الغموض للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها الحذف من المواضع التي لا يصلح فيها .

وأظن أن عبد القاهر قد استفاد من الرماني وهو يقيم أصول هذا الباب .

وبالتالي فقد تأثر الزمخشري بدراسة عبد القاهر للحذف ،فلم يكتف بذكر المحذوف،بل كشف عن السر البلاغي للحذف ، وقد ظهرت في دراسته جوانب لم تظهر في الناحية النظرية لهذا المبحث ،وهكذا المسألة تبدو محدودة في الدراسات النظرية،ثم تتسع حين تنتقل إلى المجال التطبيقي .

فالخبر يحذف ليفيد حذفه التوكيد والتقوية. يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾[3] : (فأنَّ لله : مبتدأ خبره محذوف تقديره : فحق أوفواجب أن لله خمسه ، وروى الجعفي عن أبي عمرو : فإنّ لله - بالكسر - وتقوية قراءة النخعي ،فلله خمسه والمشهور آكد وأثبت للإيجاب)[4] .

كما ذكر لحذف المفعول أسراراً جليلة متنوعة ،فقد يحذف للدلالة على عظمة المحذوف كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٧٣.
(٢) النكت : ٧٠-٧١ .
(٣) سورة الأنفال : من الآية ٤١ .
(٤) الكشاف : ٢/١٥٨.

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ * (١) حذف مفعول " نبين " للدلالة على عظمة قدرته وعلمه، وهو ما لا يكتنهه ذكر و يحيط به وصف. (٢)

وقد يحذف المفعول للدلالة على التعميم ، فيدخل فيه كل ما يصح أن يدخل تحت الفعل كقوله تعالى : * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * (٣) وقوله تعالى : * يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ * (٤).

و يشيع حذف مفعول المشيئة ، ويذكر الزمخشرى أنه يحذف لدلالة الجواب عليه ، ويكثر في " شاء " و " أراد ".

كما في قوله تعالى : * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ * (٥)

والمعنى : (ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها) (٦)

ويظهر هنا تأثره الظاهر بعبد القاهر.

ويظهر امتداد هذا الباب عند الفخر في تفسيره ، لأنه ذكر للحذف أسراراً متنوعة.

---

(١) سورة الحج : من الآية ٥.

(٢) ينظر الكشاف : ٣٠/٥.

(٣) سورة العلق : ١.

(٤) سورة الحجرات : من الآية ١.

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٠.

(٦) الكشاف : ١/ ٢٢١.

الايجـــاز :

عرف أصحاب الدراسات القرآنية الإيجاز منذ مرحلة متقدمة، فهـو من أهم سمات كلام العرب ، وقد بدا في القرآن واضحاً جلياً .

فأبوعبيدة ذكر أنه مذهب من مذاهب العرب في كلامها ، يفعلونه قصد التخفيف ، ويشترط فيه علم السامع به . وذكر آيات فيها حذف فقدره وألحقه بطريقة العرب في كلامها ، فمثلاً يذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنـاً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ (١) ويقول : (مجازه مجاز المكفوف عن خبره ، ثم استؤنف ، فقال : ﴿ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ فمجازه لو سيرت به الجبال لسارت ، أو قطعت به الأرض لتقطعت ، ولو كلم به الموتى لنشرت ، والعرب قد تفعل مثل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه ، واستخفافاً في كلامهم) (٢) .

كذلك يقدر المحذوف في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ (٣) ثم يلحقه بطريقة العرب في كلامهم ، ويذكر قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ فيقدر مجازها : أهل القرية .

---

(١) سورة الرعد : من الآية ٣١ .

(٢) مجاز القرآن : ١/ ٣٣١ .

(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٩١ .

ويتبع الفراء أبا عبيدة في طريقة تناول الإيجاز ، فيذكر آيات كثيرة من القرآن، ويقدر المحذوف ، ويرد كل ذلك إلى مذاهب العرب في كلامها فيرى أن من شأن العرب الإيجاز ، وتقليل الكلام ، فيحذفون من الكلام قصداً للتخفيف ، ولكنه يشترط أن يكون السامع على علم به ، لئلا يؤدي إلى لبس وغموض (١) ، وهو في هذا متفق مع أبي عبيدة .

ويذكر آيات فيما عُرف بعد ذلك بإيجاز الحذف، ويقدر المحذوف فيها ، ويلحقه بطريقة العرب في كلامها .

ثم يأتي ابن قتيبة ويعرف نوعاً من الإيجاز في القرآن من خلال آياته ويعده سمة من سماته وهو (جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه) ثم يقول : (وإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لأن في "أخذ العفو" صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين . وفي "الأمر بالعرف" تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات . . . وفي "الإعراض عن الجاهلين" الصبر ، والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج) (٣) .

فابن قتيبة على علم بما تحمله كل كلمة من معاني ، وهذا ما عرف فيما بعد بإيجاز القصر ، واستمر في ذكر الآيات وبيان فيوضاتها المعنوية فيذكر قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ (٤) ثم يقول : (كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجرة والحب والتمر والحطب ، والعصف واللباس والنار والطح ، لأن النار من العيدان ، والطح من الماء) (٥) .

---

(١) معاني القرآن : ١/ ٣٣١- ٣٣٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤-٥ .

(٤) سورة النازعات : ٣١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن : ٥ .

كما تناول آية : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) وقال فيها : (يريد أن سافك الدم إذا أُقِيد منه ارتدع من كان يَهُمّ بالقتل، فكان في القصاص له حياة وهو قتل) (٢). وهذه الآية تعد من أساسيات باب إيجاز القصر، وأكثر من يتحدث عنها يذكرها ويبين فضلها على كلام العرب، وكل عالم يستخرج منها من المعاني ما يلوح له .

كما تناول ابن قتيبة آيات أخر، وكان أحياناً يقارن بينها وبين أقوال العرب، ليبين قصورهم عن أداء المعنى، وكماله في القرآن . يقول : (وهذا في القرآن أكثر من أن نستقصيه) (٣) فهو يفتح الباب لمن أراد أن يستقصي هذا الأسلوب في القرآن .

كما تعرض لإيجاز الحذف في (باب الحذف والاختصار) وذكر له أنواعاً كثيرة تناولت حذف الحرف والاسم والفعل، وحذف الكلمة والكلمتين والجملة، ودعمها بكثير من الأمثلة من القرآن الكريم، ويشترط في الحذف أن يكون معلوماً لدى السامع، وألا يخل الحذف بالمعنى، وهذا ما قاله الفراء وأبوعبيدة قبله، لكن ابن قتيبة رأى أن المحذوف ربما لا يكون معلوماً ظاهراً في بعض آيات القرآن، فهو قد يدق ويخفى بعض الخفاء، فيحتاج إلى حسن تأت يقول : (وقد يشكل الكلام ويغمض بالاختصار والإضمار كقوله : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (٤) والمعنى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، ذهبت نفسك حسرة عليه ؟ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) (٥). وهكذا تعد

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٦ .

(٣) المصدر السابق : ٩ .

(٤) سورة فاطر : من الآية ٨ (٥) تأويل مشكل القرآن : ٢١٩ .

دراسته للإيجاز من أوسع الدراسات المتقدمة ،المدعمة بكثير من الآيات القرآنية.

وكانت دراسة الرماني للإيجاز تحت باب مستقل تعد أول دراسة منظمة - على حد ما وصل إلينا - فقد قسمه إلى قسمين :

إيجاز قصر ،وإيجاز حذف . وقد عرف كلاً منهما فقال : (فالحذف إسقاط كلمة للإجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف) .(١)

ثم ساق لكل قسم أمثلة من القرآن الكريم دون أن يحدد موضع الإيجاز أو يقدره كما فعل ابن قتيبة والفراء ،لكنه عقد مقارنة بين بلاغة القرآن وبلاغة الناس في الإيجاز من خلال عرضه لقوله تعالى : * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ * ومقارنتها بقول العرب : (القتل أنفى للقتل) . وقد أشار إلى وجه الفرق بينهما من أربعة أوجه - وسنرى كيف تناول الفخر هذه الآية وهذا المثل ،واستفاد مما قاله الرماني فيهما بل أضاف إليه.

ويعود الفضل إلى الرماني في أنه كشف عن القيمة البلاغية لإيجاز الحذف حيث يقول : (وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ،ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان) .(٢)

وإيجاز القصر عنده أغمض من إيجاز الحذف ،وسبب ذلك هو أنه يعني القدرة على إلباس المعنى الكثير بنية لفظية قليلة ذات إيحاءات ودلالات على المعنى المراد ،وهو أصعب من إيجاز الحذف وأدق وأغمض ،لأن هذه تعني إقامة العبارة على قدر المعنى ،ثم إسقاط جزء منها ،ولا شك أن الأولى أصعب وأدق ، وفي أثناء حديثه عن الإيجاز أخذ يقارن بينه وبين الإطناب

---

(١) النكت : ٧٠.

(٢) المصدر السابق : ٧١.

والتطويل ليبين مزيته وفضله في القرآن فيقول : (وإذا عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان) (١) .

ويجعل الباقلاني الإيجاز من أقسام البلاغة العشرة في فصل عقده بعنوان : (وصف وجوه من البلاغة) ويقسمه إلى إيجاز حذف وإيجاز قصر ، ويبدو هنا تأثره بالرماني واضحاً ، حتى في الأمثلة التي نقلها منه، وهكذا كان القرآن مجالاً رحباً لمعرفة الإيجاز وأقسامه .

الفصل والوصل :

ظهرت تباشير هذا الباب في إشارات بسيطة من العلماء تتحسس علاقات الكلمات والآيات في بعض سور القرآن .

من ذلك أن الفراء قد ذكر وجوهاً لصلة : * هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * بقوله تعالى : * لَا رَيْبَ فِيهِ * بقول : (فإنه رفع من وجهين ونصب من وجهين ، إذا أردت بالكتاب أن يكون نعتاً لذلك كان الهدى في موضع رفع ، لأنه خبر لذلك كأنك قلت : ذلك هدى لا شك فيه ، وإن جعلت : * لَا رَيْبَ فِيهِ * خبره رفعت أيضاً : * هُدًى * تجعله تابعاً لموضع : * لَا رَيْبَ فِيهِ * ... كأنه قال : وهذا كتاب ، وهذا مبارك ، وهذا من صفته كذا وكذا ، وفيه وجه ثالث من الرفع إن شئت رفعته على الاستئناف لتمام ما قبله ... فأما النصب في أحد الوجهين ، فأن تجعل : * الكِتَابُ * خبراً (لذلك) فتنصب * هُدًى * على القطع ، لأن * هُدًى * نكرة اتصلت بمعرفة قد تم خبرها فنصبتها ... وإن شئت نصبت : * هُدًى * على القطع) (٢) وهذه الإشارات وإن راعت جانب المعنى إلا أنها أقرب إلى النحو .

---

(١) المصدر السابق : ٧٣ .

(٢) معاني القرآن : ١/ ١١-١٢ .

ثم نجد دراسة للباقلاني يبحث فيها عن علاقات المعاني الجزئية وعن علاقات الأغراض في الآيات القرآنية ،فقد تناول كثيراً من الآيات وبين وجه ارتباطها ومناسبتها لما قبلها ،وتتبع وجه انتقالها من معنى إلى معنى .

يقول : (والقرآن على اختلاف فنونه ،وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ،والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف ،والمتباين كالمتناسب ،والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد ،وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة ،وتظهر به البلاغة ..) (١) .

وكان كثيراً ما يشير إلى تلاحم الآيات بعد ما يفرد كل جملة ،وكل آية وينظر إلى طبيعة معناها وما يميزها ،ثم ينظر إلى التي تليها ،ثم يشير إلى ما بينهما من التآلف أو التخالف ،ثم يرشد إلى براعة النظم فيها (٢) فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٣) : (فانظر إلى هذه الكلمات فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان وقوله : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافاً من الكلام المؤتلف ،وألطف انتظاماً من الحديث الملائم) (٤) . ومثل هذا كثير في كتابه ، ثم يتناول هذا الترابط في نطاق السورة كاملة ،فقد عرض لسورة النمل وسورة غافر ،ووقف عند مواطن التخلص والترابط .

ثم جاء الزمخشري وبحث في علاقات الجمل القرآنية واضعاً نصب عينيه ما قاله عبد القاهر في باب الفصل والوصل ،إلا أنني لاحظت أن هذا الباب قد اتسع بين يديه ،وهكذا الحال في المسائل البلاغية حين تخرج إلى المجال

---

(١) إعجاز القرآن : ٦٢ .

(٢) ينظر الإعجاز البلاغي، للدكتور محمد أبو موسى : ٢٠٩ .

(٣) سورة الشورى : من الآية ٥٢ والآية ٥٣ .

(٤) إعجاز القرآن : ٢٠٠ .

التطبيقي ،فالفصل عنده قد يكون وصلاً تقديرياً وهو أقوى من الوصل الظاهر يقول في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ (١) : (فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ،ونزعها وصل خفي تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر). (٢)

وقد تقع الواو بين جملتين فتفصل بين معنييهما ،وقد تسقط الواو في آية أخرى فيكون الكلام كلاماً واحداً يؤكد بعضه بعضاً يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (٣) : (فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو هنا ،وتركها في قصة ثمود ؟ قلت : إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم . . . وإذا تركت فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ،ثم قرر بكونه بشراً مثلهم). (٤)

و يتابع الزمخشرى آيات كثيرة تتكرر في القرآن في مواضع مختلفة مقترنة بالعاطف تارة ،وغير مقترنة به أخرى ،ويختلف هذا العاطف الذى قد يكون واواً وقد يكون فاءً ،ويفسر ما وراء هذا العاطف من أسرار ،وهو كثير في القرآن .

و يبحث في الآيات التي تتواصل فيها الجمل ويقرر بعضها بعضاً بنظام وتناسق داخلي كما في أول سورة البقرة فيقول : (إن قوله ﴿ الٓمٓ ﴾

---

(١) سورة هود : من الآية ٩٣ .

(٢) الكشاف : ٢/٢٨٩ .

(٣) سورة الشعراء : ١٨٥ ومن الآية ١٨٦ .

(٤) يشير إلى قوله تعالى في قصة ثمود : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سورة الشعراء : ١٥٣-١٥٤ .
الكشاف : ٣/١٢٧ .

جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ جملة ثانية ، و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ جملة ثالثة ، و ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حتى جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض) (١) .

كما اهتم بجمل الاستئناف ولاحظ ما فيها من قوة وفخامة حين تضيف معنى مميزاً للآية ، ويبحث الزمخشرى عن معنى حرف العطف الذى يستلزم أن يكون بين الجملتين قدراً من الاتفاق ليكون الربط ، ولكنه حين يسقط فإنه ينبئ عن الاتصال والاتحاد الشديد بين الجملتين، أو الانفصال بينهما ، فالعطف للتوسط بين الحالتين ، ويتناول آيات في ذلك كأن يبين السر في العطف في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) يقول : (فإن قلت : لم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٣) قلت : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة ، فإنهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد) (٤) . وهكذا وجدنا الزمخشرى يولد المسائل من مثل هذه التطبيقات ، ويوسع أسرار ودقائق هذا الباب، ويتبعه الفخر كما سنرى في دراسته لها .

التكـرار :

نما هذا الفن في ظل الدراسات القرآنية ، لأن الطاعنين في القرآن وجدوا في التكرار منفذاً للطعن فيه ، فكان من الضرورى أن ينهض العلماء للرد عليهم ولبيان أسراره البلاغية في القرآن الكريم .

---

(١) المصدر السابق : ١/ ١٢١ .

(٢) سورة البقرة : ٥ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١٧٩ .

(٤) الكشاف : ١/ ١٤٥ .

تحدث عنه الفراء في كتابه (معاني القرآن) وحديثه فيه يغلب عليه الطابع النحوي ، فقد تحدث عن تكرار الحروف ، فأجاز الجمع بين الحرفين إذا اختلف المعنى ، ومنعه إذا اتحد ، ومعنى هذا أنه لا يجيز التكرار في المعنى واللفظ إلا ما كان لتشديد المعنى وَمثَّل له بقول الشاعر :

إلَى النَّفَرِ اللاء الَّذِينَ إذَا هُمُ تهاب اللئامُ حَلْقَةَ الباب قعقعوا (١)

أجاز جمع (اللاء) و (الذين) لاختلاف لفظهما وقال : لو اتفقا لم يجز (٢) أما في الأسماء والظروف المتحدة لفظاً وشكلاً ، فيشترط اختلاف المعنى ، فإذا قال القائل : لم أره منذ يوم يوم ، فإنه ينوي بالثاني غير اليوم الأول. (٣)

كما يجيز الفراء تكرار الجمل إذا كان هناك غرض بلاغي كالتغليظ مثلاً في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) يقول : (والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف فهذا من ذاك) (٥) وهو هنا يتراجع أمام النص القرآني عما قرره سابقاً في تكرار الحرف ، ويشترط اتحاد اللفظ ، كما أنه لا يقبل قراءة من قرأ : ﴿ لَتُرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ بضم التاء الأولى وفتح الثانية لأن (الأولى أشبه بكلام العرب ؛ لأنه تغليظ ، فلا ينبغي أن يختلف لفظه). (٦)

واهتم ابن قتيبة بالحديث عن التكرار في القرآن ، وعقد باباً تحت عنوان (باب تكرار الكلام والزيادة فيه) ، ذكر فيه أن التكرار موجود في القرآن ؛

---

(١) البيت لأبي الربيس ، أحد اللصوص ، أنشده ابن منظور في لسان العرب في مادة (لوى) ، وقال إنه لأبي الربيس عَبَّادة بن طهفة المازني
لسان العرب : ١٥/٢٦٧.

(٢) ينظر معاني القرآن : ١/١٧٦.

(٣) المصدر السابق : ١/١٧٧.

(٤) سورة التكاثر : ٣-٤ .

(٥) معاني القرآن : ٣/٢٨٧.

(٦) المصدر السابق : ٣/٢٨٨.

لأنه نزل بلغة العرب ،وعلى مذاهبهم ،وذكر نوعين للتكرار : تكرار الأنباء والقصص ،وتكرار الكلام من جنس واحد ،ووضح أن تكرار الأنباء والقصص جاء نتيجة أغراض دينية اقتضاها نشر الدعوة الاسلامية ،ففيه تيسير على العباد ، وتدريج لهم ،ووعظ بعد وعظ من سنة الغفلة والنسيان ،وغير ذلك من الأسباب التي اقتضاها المقام وطلبه الحال (١) ، أما تكرار المعنى فهو على نوعين :

١ - تكرار المعنى والكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض ،كتكراره في : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٢) وفي سورة الرحمن : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فهو لإرادة التوكيد والإفهام.

وقد يأتي للتوكيد وحسم الأطماع ،كما في قوله تعالى : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

أما النوع الثاني : فهو تكرار المعنى بلفظين مختلفين ،ويكون لأغراض منها : إشباع المعنى والاتساع في الألفاظ ،ولم يستشهد على هذا بآية قرآنية ،بل قال كقول القائل : آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر ، فالأمر بالوفاء هو نهي عن الغدر .

ويأتي لبيان فضل المكرر وعظم فائدته ،كما في قوله تعالى : ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (٤) والنخل والرمان من الفاكهة ،أفردهما لفضلهما .
وقد يأتي للترغيب في المكرر كقوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ (٥) ، أفردها بالذكر ترغيباً فيها وتشديداً لأمرها (٦).

---

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن : ٢٣٢ ومابعدها .
(٢) سورة الكافرون : ١ .
(٣) سورة التكاثر : ٣-٤ .
(٤) سورة الرحمن : ٦٨ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٣٨ .
(٦) ينظر تأويل مشكل القرآن : ٢٤٠ .

وللخطابي دراسة في التكرار جاءت للرد على من طعن في القرآن ، فقسم التكرار الى قسمين :

الأول : مذموم مستغنى عنه لا يزيد في المعنى ، وهذا يكون فضلاً في القول ولغواً ، وليس في القرآن منه شيء .

الثاني : وهو الذى يأتي في الأمور المهمة ، التي قد تعظم العناية بها ، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها ، والاستهانة بقدرها ، كتكرار الأقاصيص والأخبار ، فقد جاءت للذكرى ، وكالتكرار في سورة الرحمن ، حيث ذكر علته فقال : (وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ، وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فضلاً من فضول النعم جدد إقرارهم به ، واقتضاءهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وفنون شتى) .(١) ثم يبين السبب في مجيئه بعد ذكر الوعيد في قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾(٢) يقول : (وأى موضع نعمة هاهنا ؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير والدخان يستطير ، قيل إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بازاء نعمه على ما وعد وبشر من ثوابه على طاعتهم ليرغبوا فيها) .(٣)

ويجعل الباقلاني التكرار من وجوه البديع في فصل يعقده يتحدث فيه عن وجوه البديع ، ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن ؟ وبعد أن عددها انتهى إلى القول بأنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن عن طريقها ، وذلك لأنه ليس فيها ما يخرق العادة . ودراسته للتكرار مبسطة جداً

---

(١) بيان إعجاز القرآن : ٤٨ .

(٢) سورة الرحمن : ٣٥ .

(٣) بيان إعجاز القرآن : ٤٩ .

فقد ذكـر بيتين من الشعر ،ثم دلل عليه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) دون أن يخوض في أسرار التكرار (٣) ، ويذكر في موضع آخر أن تكرار القصص في القرآن نوع من أنواع التحدى القرآني ،ثم دعا إلى النظر والتأمل في سورة كاملة للتعرف على التصرف في قصصها، ثم عرض لسورة النمل ، فقد لاحظ تكرار جزء من قصة موسى في عدة سور وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٤) وقال في سورة طـه في هذه القصة : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً ﴾ (٥) وفي موضع : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٦): (وقد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ،ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك) (٧).

وأسهم القاضي عبد الجبار في الدفاع عن التكرار في القرآن فذكر أنواعاً كثيرة له ، وذكر أن عادة الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة في مواطن متفرقة بألفاظ مختلفة لأغراض تتجدد في المواطن وفي الأحوال ، وذلك من دلالة المفاخر والفضائل ، ثم يذكر رأى شيخه في تكرار قصص الأنبياء ، وأن ذلك لنزول القرآن مفرقاً ،ولتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) سورة الشرح : ٥-٦ .
(٢) سورة الكافرون : ١ .
(٣) ينظر إعجاز القرآن : ١٢٧ .
(٤) سورة النمل : من الآية ٧ .
(٥) سورة طه : من الآية ١٠ .
(٦) سورة القصص : من الآية ٢٩ .
(٧) إعجاز القرآن : ٢٠٢ .

كما أنها تتكرر بتكرار المواقف ، وثمة فرض آخر ، وهو أن يعرف أرباب الفصاحة منزلة القرآن من الفصاحة، كذلك فيه حاجة المسلمين إلى تكرار المواعظ . ولا يرى في سورة الرحمن تكراراً : (لأنه ذكر نعماً بعد نعم وعطف كل نعمة من ذلك بهذا القول . . . وعنى بكل قول غير ما عناه بالقول الأول وإن كان اللفظ متماثلاً)(١).

ثم كان تفسير الزمخشري امتداداً لبيان أسرار التكرار ، فوقف عند كثير من صوره ليظهر أثره البلاغي في مواقعه المختلفة ، وتمتاز دراسته بصلتها المباشرة بنفس السامع أو المتكلم ، يقول في فائدة التكرار : (النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فإن لم يكرر عليها عوداً على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به ، وينصح ثلاث مرات وسبعاً ، ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم)(٢) وغير هذا كثير ، كذلك أشار إلى نوع من التكرير في القصص القرآني ، كتكرير آية أو آيتين في كل قصة من قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم كما في سورة الشعراء ، حيث تختم كل قصة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(٣) يقول في سر التكرار : (كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت بها صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور . . .)(٤).

---

(١) المغني : ١٦/٣٩٩.

(٢) الكشاف : ٣/٣٩٥.

(٣) سورة الشعراء : ٨ - ٩ .

(٤) الكشاف : ٣/١٢٧.

الالتفـــات :

يعد أبو عبيدة من أوائل من التفت إلى اختلاف الضمائر في الخطاب في القرآن وسماه مجازاً فيقول في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[(١)] : (﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ ﴾ معناه هذا القرآن ، وقد تخاطب العرب الشاهد فتظهر له مخاطبة الغائب)[(٢)] ، ويقول : (ومن مجاز ما جاءت مخاطبة الغائب قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ أي بكم)[(٣)] . ولا يقصد بالمجاز المشهور عند البلاغيين إنما يقصد بيان المعنى .

وذكره الفراء وهو يفسر آية يونس لكنه لم يسمه يقول في : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ : (يعني الفلك فقال جاءتها ، وقد قال في أول الكلام : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ ولم يقل " وجرت " ، وكل صواب ، تقول : النساء قد ذهبت وذهبن)[(٤)] .

ويجعل ابن قتيبة هذه الآية تحت باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، ويقول : (ومنه أن يخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[(٥)] .

واهتم المفسرون للقرآن بمثل هذه الانتقالات في الضمائر فالطبري تناول الحديث عنه دون تسميته في سورة الفاتحة ، يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[(٦)] : (فنصب ﴿ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ليكون

---

(١) سورة البقرة : ١-٢ .
(٢) مجاز القرآن : ١/٢٨ .
(٣) المصدر السابق : ١/١١ ، سورة يونس : من الآية ٢٢ .
(٤) معاني القرآن : ١/٤٦٠ .
(٥) تأويل مشكل القرآن : ٢٨٩ .
(٦) سورة الفاتحة : ٤ .

إياك نعبد له خطاباً كأنه أراد : يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، وعن ابن عباس أن جبريل قال للنبي-صلى الله عليه وسلم -عن الله ،قل يامحمد : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ،مالك يوم الدين ،وقل أيضاً : يا محمد إياك نعبد وإياك نستعين . وكان عقل عن العرب أن من شأنها إذا حكت أو أمرت بحكاية خبر يتلو القول أن تخاطب ،ثم تخبر عن غائب ،وتخبر عن الغائب، ثم تعود إلى الخطاب لما في الحكاية بالقول من معنى الغائب) (١) ثم يضرب لذلك أمثلة من الشعر فيذكر قول أبي كبير الهذلي :

يَا لَهْفَ نَفْسِي كَانَ جِلْدَةُ خَالِدٍ وبَيَاضُ وَجْهِكِ لِلتُّرَابِ الأَعْفَرِ

(فرجع إلى الخطاب بقوله : وبياض وجهك ،بعد ما قد مضى الخبر عن خالد ... ومنه قول لبيد بن ربيعة :

باتَتْ تَشَكَّى إليَّ النَّفْسُ مُجْهِشَةً وَقَدْ حَمَلْتُكِ سَبْعاً بعدَ سَبْعِينَا

فرجع إلى مخاطبة نفسه ...) (٢).

و يقف الزمخشري في تفسيره عند كثير من صوره ،ويبين قيمته البلاغية وأثره في إيقاظ النفس وتحريكها ،ودراسته قد جرت في كتب المتأخرين بأمثلتها . يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : (فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ... قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان ،قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ،ومن الخطاب إلى الغيبة ،ومن الغيبة إلى التكلم ،كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ ﴾ (٣) وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالأَثْمُدِ وباتَ الخَلِيُّ ولَمْ تَرْقُدِ

وباتَ وبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي العَائِرِ الأَرْمَدِ

وذلكَ مِنْ نَبأٍ جاءَنِي وخُبِّرْتُهُ عن أبي الأَسْوَدِ

---

(١)(٢) جامع البيان : ١/٦٧ .
(٣) سورة فاطر : من الآية ٩ .

وذلك من عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ،ولأن الكلام إذ نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع،وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ...) [١]. وقد تتبع كثيراً من الآيات وبين الالتفات فيها ،وذكر وجوهه المختلفة.

الفواصل القرآنية :

يعد الفراء من أوائل الذين تحدثوا عن الفواصل في القرآن الكريم في كتابه (معاني القرآن) ، وقد اتخذ من النسق القرآني مقياساً للمفاضلة بين القراءات، فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [٢] : (ذكروا أنها ليلة المزدلفة ،وقد قرأ القراء يسرى -بإثبات الياء - ويسر -بحذفها - وحذفها أحب الي لمشاكلتها لرؤوس الآيات ،ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها) [٣] فهو قد فضل قراءة على قراءة مراعاة للفاصلة.

وذكر ذلك في أكثر من موضع ،وسوّى ما بين ما يجوز في الشعر العربي وبين ما في القرآن الكريم،ولذلك فقد كان موضع إنكار شديد من ابن قتيبة [٤] خاصة عندما فسر الجنتين بجنة واحدة مراعاة للفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [٥] يقول الفراء : (أراد جنة كقوله : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [٦] فثنى لأجل الفاصلة) [٧].

---

(١) الكشاف : ١/٦٢-٦٣-٦٤.

(٢) سورة الفجر : ٤.

(٣) معاني القرآن : ٣/٢٦٠.

(٤) ينظر البرهان في علوم القرآن ،للزركشي : ٢/١٢٨.

(٥) سورة الرحمن : ٤٦.

(٦) سورة النازعات : ٤١.

(٧) نقلاً من البرهان في علوم القرآن : ٢/١٢٨.

ويقول ابن قتيبة راداً عليه : (إنما يجوز في رؤوس الآى زيادة هاء السكت أو الألف أوحذف همزة أو حرف ، فأما أن يكون الله وعد جنتين فنجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآى فمعاذ الله ،وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الأثنين قال : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ثم قال فيهما : ﴿ فِيهِمَا ﴾ ولو أن قائلاً قال في خزنة النار إنهم عشرون ،وإنما جعلهم الله تسعة عشر لرأس الآية ، ما كان هذا القول إلا كقول الفراء)(١).

فابن قتيبة لا ينكر مراعاة الفاصلة ،بل أجازها إذا كانت زيادة هاء أو حذف حرف مثلاً ،ولكنه رفض صنيع الفراء في آية الرحمن .

وجاء الرماني بعد ذلك وتحدث عن الفواصل تحت أوجه بلاغة القرآن الكريم، وعرفها بقوله : (الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن الإفهام)(٢). و فرق بينها وبين الأسجاع ،وذكر أنواع الفواصل في القرآن يقول : (والفواصل على وجهين أحدهما على الحروف المتجانسة ،والآخر على الحروف المتقاربة)(٣) وضرب أمثلة على ذلك من القرآن الكريم ،وهو بهذا لم يتجاوز حد التعريف والتقسيم دون مدارسة الآيات .

ويأتي الباقلاني ويعرض لقضية تغيير النظم من أجل مراعاة الفواصل فيوافق ابن قتيبة ،ويرفض قول الفراء ،فكان مما قاله : (وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام ولمكان السجع قيل في موضع: ﴿ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾(٤) ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾(٥).

---

(١) نقلاً من البرهان في علوم القرآن : ٦٥/١.

(٢) النكت : ٨٩.

(٣) المصدر السابق : ٩٠.

(٤) سورة طه : من آية ٧٠.

(٥) سورة الأعراف : من آية ١٢٢ ،إعجاز القرآن : ٨٣.

ثم يذكر أن الفائدة في هذا التنوع إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً ، فبه تظهر الفصاحة وتتبين البلاغة وينكر أن يتغير النظم لأجل الفاصلة.

ويوافق ابن عطية الفراء ، ويرجح سبب التقديم والتأخير إلى مراعاة الفواصل في قوله تعالى : * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى *(١) فيرى أن قوله : * وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * معطوف على : * كَلِمَةٌ * ولهذا رفع ، والمعنى : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) في التأخير : * وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * لكان العذاب لزاما لكنه قدم وأخر لتشتبك رؤوس الآي (٢).

ويأتي الزمخشري فيهتم كثيراً بالفواصل القرآنية ، وقد نقل صاحب البرهان عنه أنه كان يرفض ما رآه الفراء وغيره فيقول : (ذكر الزمخشري في كشافه القديم لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن يهمل المعاني ويهتم بتحسين الألفاظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة)(٣).

لكنني رأيته في كشافه الذي بين أيدينا يذكر أن القرآن قد يزيد حرفاً أو يعدل من لفظ إلى لفظ مراعاة لحق الفاصلة ، فيقول في قوله تعالى : * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا *(٤) : (وزيادة الألف لإطلاق الصوت ، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقوف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف)(٥).

---

(١) سورة طه : ١٢٩.

(٢) ينظر البحر المحيط ، لأبي حيان : ٢٨٩/٦ ، البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٦٣/١.

(٣) نقلاً عن الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ١٣٤/٢.

(٤) سورة الأحزاب : ٦٧.

(٥) الكشاف : ٢٧٥/٣.

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [(١)] : (وانقطع إليه فإن قلت : كيف قيل : ﴿ تَبْتِيلاً ﴾ مكان " تبتلاً " ؟ قلت : لأن معنى " تبتل " بتل نفسه فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل) [(٢)].

وهكذا نلاحظ أن من قال بمراعاة رؤوس الآيات هم العلماء الذين درسوا آيات القرآن ، وتعمقوا في معرفة أسرارها ، وعرفوا قيمة البناء الصوتي في التأثير .

ووقف الزمخشري عند كثير من الآيات ليبين وجه الملاءمة بين مدلول الفاصلة القرآنية ومدلول الآيات السابقة ، لكنه لم يهتم بها اهتماماً بيناً كما فعل في سائر الأبواب [(٣)] . وسوف نجد هذا الباب متسعاً عند الفخر - إن شاء الله - .

وهكذا رأينا أن كثيراً من الحقائق والدقائق في علم المعاني قد تفجرت على أيدي علماء التفسير وإعجاز القرآن الذين انطلقوا بقواعد البلاغيين في رحاب التطبيق على آيات القرآن فكشفوا عما فيه من حقائق ولطائف.

---

(١) سورة المزمل : من آية ٨ .

(٢) الكشاف : ٤/١٧٧.

(٣) ينظر البلاغة القرآنية ، د . محمد أبو موسى : ٤٤٠ ومابعدها .

الباب الثاني
علم المعاني في تفسير الإمام فخر الدين الرازي

الفصل الأول : النظم في التفسير

الفصل الثاني : النظر في المفردات

الفصل الثالث : النظر في بناء الجملة

الفصل الرابع : النظر في الجمل

الفصل الخامس : الإعجاز القرآني في التفسير

الفصل الأول

النظم في التفسير

النظم في التفسير الكبير

يبحث هذا الفصل عن معنى النظم عند الفخر في تفسيره، ذلك أن هذه الكلمة قد ترددت كثيراً بين ثنايا التفسير، وسوف أتتبعها لنعرف، ما هو مدلولها، وهل هي امتداد للنظم عند عبد القاهر أم أنها خرجت عما قاله.

وقد تحدث عن النظم في نهاية الإيجاز فقال: (ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله).(١)

ثم نظر في وجوه الخبر، وفي الشرط والجزاء، وفي الحال، وفي اشتراك الحروف في معنى، وانفراد كل منها بخصوصية فى ذلك المعنى، وفى أحوال الجمل، وموضع فصلها ووصلها، وانصراف الكلام إلى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والإضمار والإظهار، ثم يقول: (وإذا استقريت لم تجد شيئاً من الخطأ أو الصواب في النظم إلا لأن معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، أو أزيل عن موضعه، أو استُعمِل في غير ما ينبغي له).(٢)

والفخر في كل هذا يتابع عبد القاهر في تعريفه، وفي تحديده للنظم متابعة دقيقة، بل إنه ينقل عنه نقلاً.

أما في التفسير فكلمة النظم تعني في أكثر مواقعها المناسبة القائمة بين كل آية وآية، أو بين آخر الآية ومابعدها، أو العلاقة بين مقطع ومقطع آخر من الآيات يقول في قوله تعالى: * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ... *(٣):

---

(١)(٢) نهاية الإيجاز: ٢٧٧ - ٢٧٩.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢١٤.

: (في النظم وجهان : أنه تعالى قال في الآية السالفة : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

والمراد أنه يهدى من يشاء إلى الحق ، وطلب الجنة ، فبين في هذه الآية أن ذلك الطلب لا يتم ولا يكمل إلا باحتمال الشدائد في التكليف.

الثاني : أنه في الآية السالفة لما بين أنه هداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه (٢)، بين في هذه الآية أنهم بعد تلك الهداية احتملوا الشدائد ... فكذا أنتم يا أصحاب محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين الا بتحمل هذه المحن من اقامة الحق) . (٣)

فالآية إما أن تتصل بآخر ما قبلها . فيكون الخطاب لكل المؤمنين ، أو أنها تتصل بكل الآية التي تسبقها فيختص الخطاب بالرسول وصحابته ، وبكلا الوجهين يستقيم ترابط المعنى في الآية أو ترابط النظم.

فالنظم هو الترابط بين الآيات وإيجاد المناسبة بين كل آية وآية.

ويهتم النظم عنده أيضاً ببيان وجه الارتباط بين ما قبل جملة الاعتراض وما بعدها ، مما تخفى فيه الصلة بينهما .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (٤):

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ... ﴾ البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٣) التفسير : ١٩/٦ م٣ .

(٤) سورة النساء : ٦١-٦٢ .

:(إن قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كلام وقع في البين ، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها هكذا : وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ثم جاءوك يحلفون إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً ، يعني أنهم من أول الأمر يصدون عنك أشد الصدود ، ثم بعد ذلك يجيئونك ويحلفون بالله كذباً على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق ، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلاً)(١).

فالموافقة بين المعاني و ترتيبها ترتيباً صحيحاً حسب منازلها هو نظم عند الفخر .

فالنظم يوهم أن (جاءوك) عطف على أصابتهم ، وليس المراد من المعنى ذلك بل إن (جاءوك) عطف على (يصدون) ، وفهم الآية على وجهها الصحيح يمنع هذا التوهم ويجعل النظم مستقيماً .

وقد لاحظت أنه في كثير من المواضع يقرن النظم بالترتيب والمناسبة ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن المراد بالنظم هنا الترابط والمناسبة بين الآيات ، كأن يقول في مناسبة قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾(٢) بماقبلها : (اعلم أنه تعالى لما بين في هذه الآية المتقدمة(٣) أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا ، بين في هذه الآية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان ، بل كان حاصلاً في الأزمنة

---

(١) التفسير : ١٠/ ١٦١ م٥ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٣) أى قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ سورة البقرة : ٢١٢ .

المتقادمة . . . فهذا هو الكلام في ترتيب النظم) (١) أو يقول : (حمل كلام الله عليه يفيد قوة المعنى ، وجزالة اللفظ ، واستقامة الترتيب والنظم) (٢).

وقد لا يقصد بالنظم المناسبات المعنوية بين الآية بل يعني بها الروابط والعلاقات النحوية بين كلمات الآية ، التي يتحقق بها المعنى ، فقد كان ينقل آراء النحاة في الآية ومواقعها الإعرابية ، ثم يختار منها ما يستقيم به المعنى ويسميه نظماً ، يقول في قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنـزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٣).

بعد أن ينقل آراء النحويين في إعراب (شهر) وما يترتب عليه من معنى ذكر قولاً لأبي علي يناسب نظم الكلام قال : (.. قال أبو علي : إن شئت جعلته مبتدأ محذوف الخبر كأنه لما تقدم ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ قيل فيما كتب عليكم من الصيام شهر رمضان أي صيامه . . . والأشبه أن يكون (الذى) وصفاً ليكون لفظ القرآن نصاً في الأمر بصوم الشهر ؛ لأنك إن جعلته خبراً لم يكن شهر رمضان منصوصاً على صومه بهذا اللفظ ، إنما يكون مخبراً عنه بإنزال القرآن فيه ، وأيضاً إذا جعلت (الذى) وصفاً كان حق النظم أن يكفى عن الشهر لا أن يظهر كقولك شهر رمضان المبارك من شهده فليصمه) (٤).

---

(١) التفسير : ٦/ ١١ م ٣ .

(٢) التفسير : ٧/ ١٧٤ م ٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٨٥ .

(٤) المقصود به أبو علي الفارسي ، وقد ذكر هذا الكلام في كتابه (الحجة في علل القراءات السبع) : ١/ ٣٦ - ٣٧ ، التفسير ٥/ ٩٠ م ٣ .

فمراعاة الوجه الإعرابي الملائم للآية يدل على المعنى الأقرب للمراد من الآية ، لأن بعض الوجوه الإعرابية وإن كانت صحيحة إلا أنها تبعد بالمعنى وقد تفسده ، والنظم هو الذي يدلنا على كل ذلك .

والزمخشري قبله كان كثيراً ما يرجع النظم إلى الناحية الإعرابية في الجمل ليكشف عما وراء النحو من ترابط المعاني .(١)

وقد تختلف وجوه الإعراب ، فتتعدد الأسرار المعنوية التي تكمن وراء هذا الارتباط .

يقول في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾(٢) : (في كيفية النظم من قرأ (أنّ الدين) بفتح (أنّ) كان التقدير شهد الله لأجل أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الاسلام ...

ومن قرأ (إنّ الدين) بكسر الهمزة فوجه الاتصال هو أنه تعالى بين أن التوحيد أمر شهد الله بصحته وشهد به الملائكة وأولو العلم ...) .(٣)

---

(١) ينظر الكشاف : ١/ ٥٠١ - ٥٠٢ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ سورة النساء : ٦ .
وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ سورة الأحقاف : ١٠ ، الكشاف : ٣/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨ ومن الآية ١٩ .

(٣) التفسير : ٧/ ٢٢٤ - ٢٢٥ م٤ .

فمعنى النظم هنا هى تلك الفروق الدقيقة بين خصوصيات التراكيب وهى ما اعتنى بها عبد القاهر الجرجاني وبنى عليها نظرية النظم .

وكما يرى الفخر أن اتصال النظم هو الارتباط المناسب بين الكلمات في الآية ،كذلك يرى أن تفكك النظم هو عدم فهم الظاهرة النحوية على وجهها الصحيح ،وذلك يؤدى بالتالي إلى اختلال معنى الآية.

فمن المفسرين من قال إن المخاطب فى جملة الشرط بركنيها الفعل والجواب ليس واحداً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ (١)

وقد اعترض الفخر على هذا بقوله : (اختلف المفسرون فى أن قوله : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاب لمن ؟ فقال الأكثرون إنه خطاب للأولياء ، وقال بعضهم إنه خطاب للأزواج، وهذا هو المختار،الذى يدل عليه - أن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... ﴾ جملة واحدة مركبة من شرط وجزاء . . . ولا شك أن الشرط وهو قوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ خطاب مع الأزواج ،فوجب أن يكون الجزاء وهو قوله : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاباً معهم أيضاً ،إذ لو لم يكن كذلك لصار تقدير الآية : إذا طلقتم النساء أيها الأزواج فلا تعضلوهن أيها الأولياء ،وحينئذ لا يكون بين الشرط و بين الجزاء مناسبة أصلاً ، وذلك يوجب تفكك نظم الكلام). (٢)

ويذكر الفخر هذا التعبير (تفكك النظم) في مواضع متعددة من

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ٢٣٢ .

(٢) التفسير : ٦/ ١٢٠ م٣ .

تفسيره [١] وذلك حين تُحمل العلاقات النحوية على وجه يختل معها معنى الآية .

ويذكر الفخر أن القرآن قد يخرج عن رعاية النظم الذى يعنى به التوافق والتلاؤم بين بناء الآية وذلك لسر بلاغي أراده القرآن .

يقول في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [٢]:

(فإن قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هوالذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه ،أو فجعل لكم الليل ساكناً ،ولكنه لم يقل كذلك ... فما الفائدة فيه ؟ ... إن الليل والنوم في الحقيقة طبعية عدمية فهو غير مقصود بالذات ،أما اليقظة فأمور وجودية وهي مقصودة بالذات،وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوي في دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما ،فهذا هو السبب في هذا الفرق والله أعلم) [٣].

فالعدول عن الفعل إلى الاسم في الجملة بين أهمية النهار لحصول اليقظة فيه ،وهي المقصودة من الوجود .

ويستعين الفخر في فهم هذا المعنى بما قاله عبد القاهر في الفرق بين دلالة الاسم ودلالة الفعل ،فالنظم عنده يتمثل في الفروق بين أحوال اللفظ ،فقولنا لتبصروا فيه يختلف عن(مبصراً) ،ومراعاة التقابل في الاسمية والفعلية من شروط حسن الجمل المتضادة.

---

(١) ينظر التفسير : ٩٦/٤ م٢ ، ٣٢/١٤ م٧.

(٢) سورة غافر : ٦١ .

(٣) التفسير : ٨٣/٢٧ م١٤.

ويؤيد هذا ما ذهب إليه في (نهاية الإيجاز) من أن حسن المطابقة لا تتحقق إلا بالتناسب بين الاسم والاسم والفعل والفعل ، ثم إنه يجعل هذه المطابقة قسماً من أقسام النظم ويعرفها بقوله : (هو الجمع بين المتضادين من الكلام مع مراعاة التقابل حتى لا يضم الاسم إلى الفعل) (١) ولكنه إذا ورد في القرآن متخالفاً قصد إلى التنبيه عن علة بلاغية.

ويلطف النظم ويحسن وذلك حين يكون مطلع الكلام دالاً على ما سيأتي، وفي هذا إشارة إلى ما تحمله الكلمات من طاقات خفية ترمي بالمعنى المراد . يقول في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ (٢) : (اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب ، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل لهم : إما أن تنازعوه في معرفة الإله أو في النبوة ، فإن كان النزاع في معرفة الإله وهو أنكم تثبتون له ولداً ، وأن محمداً لا يثبت له ولداً فالحق معه بالدلائل العقلية والقطعية ، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم ، والحي القيوم يستحيل عقلاً أن يكون له ولد ، وإن كان النزاع في النبوة فهذا أيضاً باطل ، لأن بالطريق الذى عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والانجيل على موسى وعيسى فهو بعينه قائم في محمد صلى الله عليه وسلم ... فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة ، فهذا هو وجه النظم ، وهو مضبوط حسن جداً) (٣) .

فالنظم قد جاء موافقاً لما هو حاصل ، ومراعياً لمقتضى الحال .

---

(١) نهاية الإيجاز : ٢٨٥ .

(٢) سورة آل عمران : ١-٢-٣ .

(٣) التفسير : ٧ / ١٦٨ م٤ .

ولاهتمام الفخر بالنظم الذى يعنى المناسبة والترابط في الآيات ، فإنه يجعله من أسباب إعجاز القرآن ، مع فصاحة لفظه وشرف معانيه يقول : في آخر تفسيره لسورة البقرة : (ومن يتأمل في نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه ، وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)(١).

ويقصد بفصاحة اللفظ وشرف المعنى البلاغة القائمة في القرآن ، والتي يسميها دائماً الفصاحة ، ويرجع إليها إعجاز القرآن في كثير من المواضع - كما سنرى في مبحث إعجاز القرآن - وهو غير النظم عند عبد القاهر ، وهذا الرأى نقله من القاضي عبد الجبار عن شيخه أبي هاشم : (إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ولا بد من اعتبار الأمرين)(٢).

وربما لا يكون النظم عنده ترتيباً ولا انتظام إعراب ولا رعاية سياق ، وإنما يعني به المعنى القريب الموافق للآية .

يقول في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣).

: (... إذا حملنا الآية على ما يعطى في الدنيا أصناف عباده من المؤمنين والكافرين ففيه وجوه :

أحدها : وهو أليق بنظم الآية أن الكفار إنما كانوا يسخرون من فقراء المسلمين ، لأنهم كانوا يستدلون بحصول السعادات الدنيوية على أنهم على الحق ،

---

(١) التفسير : ١٣٩/٧ م٤ .

(٢) المغنى : ١٦/١٩٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٢ .

ويحرمون فقراء المسلمين ... فالله تعالى أبطل هذه المقدمة بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.(١)

فالنظم هنا يبحث عن المعنى المباشر الذى يفهم من سياق الآيات نتيجة ترابطه ويكون قريباً من نظمه الذى أتى عليه ، دون الإبعاد والحيف على القرآن .

وقد يذكر الفخر عدة معانٍ للآية ، ثم يختار أقربها لنظم الآية يقول في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(٢) : (في تفسير : ﴿فَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ إذا صار والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل ، وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله بشوءم ظلمه القطر ، فيهلك الحرث والنسل ، والقول الأول أقرب إلى نظم الآية ؛ لأن المقصود بيان نفاقه ، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ، ويظهر المحبة ، وعند الغيبة يسعى في إيقاع الفتنة والفساد)(٣) فهو يختار المعنى الذى تستوعبه ألفاظ الآية وتؤديه مباشرة .

وسأقف الآن عند مصطلح (علم المعاني) وأتتبعه في تفسيره ، لنرى هل ذكره الفخر ؟ وإن ذكره فما مفهومه لديه ؟ ، وما موضوعاته ؟ ، وهل توصل إلى أبوابه التي يشتمل عليها عند المتأخرين من علماء البلاغة .

أقول: إن الفخر لم يذكر مصطلح (علم المعاني) في تفسيره أبداً ، وإنما كان يذكر كثيراً (أهل المعانى) .

---

(١) التفسير : ٦/١٠ م٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٠٥ .

(٣) التفسير : ٥/٢١٧ م٣ .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (١) : (قال أهل المعاني قوله (أَلَمْ تَعْلَمْ) خطاب لمن حاول الإنسان تعليمه مدة وبالغ في ذلك التعليم) (٢).

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣) : (اعلم أن أكثر أصحاب المعاني على أن قوله ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر) (٤).

وأظن أنه كان يريد بأهل المعاني العلماء الذين يبحثون في دقائق معانى القرآن ،ويتعمقون في الكشف عنها ،وليس المقصود بهم علماء البلاغة.

وقد وجدت الزركشي يذكر أن أصحاب المعاني هم مصنفو الكتب في معاني القرآن كالزجاج والفراء. (٥)

ويبدو لي أن الفخر لا يقصد بأهل المعاني هؤلاء ،لأنه كان إذ أشار إلى أقوالهم ذكرهم صراحة فيقول : قال الزجاج ،وقال الفراء.

وذكر الفخر في تفسيره كذلك (علم البيان) و (علماء البيان) وقد تتبعت هذين المصطلحين فوجدته يريد بهما علم البلاغة وعلماء البلاغة ، وهوفي هذه التسمية متابع لعبد القاهر ،فقد سمى عبد القاهر علم البلاغة

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٦٣ .

(٢) التفسير : ١٢٢/١٦ م٨.

(٣) سورة الأعراف : ٤٢ .

(٤) التفسير : ٨٣/١٤ م٧.

(٥) ينظر البرهان في علوم القرآن : ١٤٧/٢.

علم البيان ، يقول في مقدمة كتابه (الدلائل) : (ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً ، وأبسق فرعاً ، وأحلى جنى ... من علم البيان الذى لولاه لم ترى لساناً يحوك الوشي ، ويصوغ الحلى)(١).

وقد ذكر الفخر في مقدمة كتابه (النهاية) : أن أرسخ العلوم أصلاً وأبسقها فرعاً هو (علم البيان) وأن عبد القاهر الجرجاني استخرج أصول هذا العلم وقوانينه.(٢) ثم إن الفخر يقرن بين علم المعاني والبيان في (النهاية) ويعتبرهما علماً واحداً.

يقول : (... لكن الخبر هو الذى يتصور بالصور الكثيرة وتظهر فيها الدقائق العجيبة ، والأسرار الغريبة من علم المعاني والبيان)(٣).

فعلم المعاني والبيان علم واحد عنده وهو علم البلاغة كما يفهم من كلامه.

وذكر الفخر كذلك (علم البيان) مفرداً في مواضع عدة من تفسيره ، من ذلك أنه بعد أن يذكر السبب في تعدية الفعل (يُغْنِى) بالحرف (عن) في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(٤) ، يقول : (... وهو مما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ، ويتفكر بقريحة وقادة فى آيات الله ووفقه الله)(٥).

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥ - ٦.

(٢) ينظر نهاية الإيجاز : ٧٤٠.

(٣) المصدر السابق : ١٤٧.

(٤) سورة الطور : ٤٦.

(٥) التفسير : ٢٧٢/٢٨ م١٤.

ومن الواضح أنه يقصد بعلم البيان هنا علم البلاغة ؛لأنه هو العلم الذى يبحث في خبايا أسرار الكلام ،ولا يقصد به علم البيان الذى يعد علماً من علوم البلاغة عند المتأخرين ؛ولأن البحث في الحرف ومعناه يعد من أبواب علم المعاني عندهم.

ويشير الفخر إلى علم البيان أيضاً في الآية نفسها وهو يبين سر تقديم الجار والمجرور (عنهم) على الفاعل (كَيْدُهُمْ) يقول : (فيه فائدة مستفادة من علم البيان ، وهو أن تقديم الأهم أولى)[1] وهذه القاعدة التي ذكرها هي الأساس الذى قام عليه بحث التقديم ، وهو من أبواب علم المعاني ، إذن فهو لم يكن يميز بين العلمين ، وحيثما ذكر علم البيان قصد به علم البلاغة بعامة.

ويذكر (علماء البيان) في تفسيره مرات عدة ، فيذكرهم وهو يبين الإيجاز في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] : (اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة بالغة إلى أعلى الدرجات)[3].

ويذكرهم وهو يتحدث عن التشبيه في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ .. ﴾[4] فيقول : (لعلماء البيان ههنا قولان)[5].

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٢٢ م١٤.

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧٩.

(٣) التفسير : ٥/٦٠-٦١ م٣.

(٤) سورة البقرة : من الآية ١٩.

(٥) التفسير : ٢/٨٦ م١.

ويريد بهم علماء البلاغة. وبهذا أستطيع أن أقول : إن الفخر قد ذكر علماء البيان وأراد بهم علماء البلاغة ،وذكرعلم البيان وأراد به علم البلاغة الذى يشمل علم المعاني كما هو مشهور عند المتأخرين من علماء البلاغة كالسكاكي . ويسمى الفخر جميع فنون البلاغة علم البيان ؛لأن معنى البيان في اللغة الظهور، وعلم البلاغة يُظْهِر ما هي مخفى وستور من الدلالات ،وهو في ذلك كما رأينا متبع لكثير من أهل هذا العلم.

ويذكر الفخر أيضاً الفصاحة في كثير من المواضع في التفسير ، خاصة وهو يتحدث عن إعجاز القرآن . فماذا يريد بالفصاحة ؟ وهل هي مرادفة للبلاغة ؟ أم أنها شيء آخر ؟ سأتتبع هذا المصطلح في التفسير لأحدد المعنى الذى أراده . لقد رأيت أنه يذكر الفصاحة ويريد بها معنيين :

الأول : أنه يريد بالفصاحة البلاغة مطلقاً ،وذلك أنه يرجع إعجاز القرآن للفصاحة كأن يقول : (والمختار عندى وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة).[(١)]

ويقول : (﴿وإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ - أى القرآن الكريم - لبلوغه فى الفصاحة أى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز...).[(٢)]

وأجده أيضاً في (نهاية الإيجاز) يرجع الإعجاز إلى الفصاحة يقول : (إن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة)[(٣)] وله فصل بين فيه شرف

---

(١) التفسير : ٢٠٣/١٧ م٩.

(٢) التفسير : ٢١٦/٢٤ م١٢.

(٣) ص : ٨٢.

علم الفصاحة قال فيه : (ثم إن الفصاحة إما أن تكون عائدة إلى مفردات الكلام أوإلى جملته) (١) ، وقد قيل : إن الفصاحة العائدة إلى مفردات الكلام أسماها السكاكي علم البيان ،والفصاحة العائدة إلى الجمل أسماها علم المعاني (٢)، وهوفي ذلك متبع لكثير من العلماء فالقاضي عبد الجبار يسمى البلاغة فصاحة يقول : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ،وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة) (٣) ولا يزال يردد كلمة (الفصاحة) قاصداً بها البلاغة ،كذلك عبد القاهر يجمع بين الفصاحة والبلاغة والبراعة. (٤)

ويذكر الزمخشرى الفصاحة مرادفة للبلاغة يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ : (كلام فصيح لما فيه من الغرابة) (٥) فقوله : (كلام فصيح معناه كلام بليغ وكلام حسن) (٦).

الثاني : أنه يجعل الفصاحة صفة للألفاظ :

يقول في أواخر سورة البقرة وهو يتحدث عن حسن نظمها : (ومن يتأمل في لطائف نظم هذه السورة علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهوأيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته) (٧). والفخر هنا يقصر الفصاحة على الألفاظ ،ولذلك يقول : فصاحة اللفظ ، شرف المعنى ، الترتيب في بيانه لوجه الإعجاز .

---

(١) المصدر السابق : ٨٤.

(٢) ينظر البلاغة تطور و تاريخ ،شوقي ضيف : ٣٠ ،مفتاح العلوم للسكاكي : ٧٠ - ١٤٠.

(٣) المغني : ١٦/١٩٩.

(٤) ينظر دلائل الإعجاز : ٣٤.

(٥) الكشاف : ١/٣٣٣.

(٦) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٥٥.

(٧) التفسير : ٧/١٣٩م٤.

ولو جُعلت الفصاحة والبلاغة والبراعة شيئاً واحداً كما قال عبد القاهر لكان الترتيب جزءاً من الفصاحة لا مقابلاً لها .

ويقول أيضاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [(١)] بعد أن بين السر في تنوع الجمل : (هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع) [(٢)] .

ولكن ما هي فصاحة اللفظ كما يتصورها الفخر ؟ .

لقد رجعت إلى نهاية الإيجاز ، لعلي أجده يذكر في أمرها شيئاً ، فوجدته في موضع يفرق بين البلاغة والفصاحة .

فيقول : (وأما الفصاحة فهي خلوص الكلام من التعقيد ، وأصله من الفصيح وهو اللبن الذي أخذت عنه الرغوة) [(٣)] ، وله مبحث عن الدلالة اللفظية تحدث فيه عن الألفاظ وقال إنها لا توصف بالفصاحة من أجل دلالاتها عن مسمياتها ، إنما من أجل إفادتها المعاني عند التركيب [(٤)] .

ثم ذكر صفات فصاحة اللفظ ، وجعلها من أربعة وجوه :

الأول : أن تكون الكلمة عربية أصلية ليست مما أحدثها المولدون .

الثاني : أن تجرى على مقاييس اللغة وقوانينها .

الثالث : المحافظة على قوانين النحو والاعراب .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٧ .

(٢) التفسير : ٢٣٥/٢٨ م١٤ .

(٣) نهاية الإيجاز : ٨٩ .

(٤) ينظر المصدر السابق : ٩٥ ومابعدها .

الرابع : الاحتراز عن الألفاظ الغريبة الوحشية ، والدليل على كون ذلك معتبراً أن تقرأ سورة من السور الطوال فلا تجد فيها من الغريب شيئاً كثيراً).(١)

ولا شك أنه كان يقصد بفصاحة ألفاظ القرآن توفر هذه الشروط فيها ، وإن لم يذكر ذلك صراحة.

ويسير الفخر في حديثه عن شروط فصاحة الكلمة على هدى السابقين كالجاحظ ، وابن سنان الخفاجي الذى رد فصاحة الكلمة إلى ثمانية أشياء : هي أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج حتى لا تثقل على اللسان ، وأن تحسن في السمع ، وأن لا تكون وحشية ، ولا ساقطة عامية ، وأن تكون جارية على العرف العربي في التصريف والاستعمال ، وألا تكون غريبة مهجورة ، وألا تكون كثيرة الحروف.(٢)

---

(١) نهاية الإيجاز : ١٤٥.

(٢) ينظر سر الفصاحة : ٦٤ ومابعدها.

الفصل الثاني
النظر في المفردات

النظر في المفـــــردات

يهتم هذا الفصل بالنظر في المفردات عند الفخر الرازى سواء كانت اسماً أو فعلاً أو حرفاً ،وهي كثيرة جداً في التفسير، فقد اهتم بالكلمـــــــــة القرآنية من حيث مادتـها وهيئتها وإيحاءاتها ،ومن حيث مجيئها في أشكال مختلفة ، تعريفاً وتنكيراً ،إفراداً وجمعاً .

كذلك اهتم بالفعل ودلالته الزمنيــة ،والفرق بينه وبين الاسم فـــي السياق الواحد أو المختلف .

تناول أيضاً حروف المعاني ،وأدوات الربط ،وأدوات العطف،وحـــروف النفي والدقائق التي تؤديها .

وقد حاولت أن أتتبع ذوقه الأدبي وحسه البلاغي وطريقته في تنـــاول كل هذا ،ومناقشة آرائه بقدر المستطاع ،فأرجو من الله التوفيق في ذلك .

الكلمة القرآنيـــــة

اهتم الإمام الفخر بالكلمة القرآنية اهتماماً بيناً ،ودرسها من نواحي متعددة ،فهو لم يقتصرعلى البحث في معناها اللغوي بل تعدى ذلك إلـــى الكشف عما توحي به الكلمة ،وماتبعثه من ظلال .

كما بحث عن ملاءمة الكلمة لسياقها وما تؤديه من معنى ،وتتبع كذلك استعمالات الكلمة القرآنية والمجالات التي تأتي فيها .

واهتم أيضاً ببيان الفروق بين الكلمات التي يظن أن معناها واحد . . . وغيرها من المباحث التي تتعلق بالكلمة والتي سأعرض لها -إن شاء اللـــه تعالـــى- .

سأعرض أولاً : لإيحاءات الكلمة القرآنية كما يراها الفخر . فكلمة الروغان تدل على معنى السرعة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (١) : (قوله هنا (فراغ) فإنَّ الروغان يدل على السرعة ،والروغ الذى بمعنـــى النظر الخفي أو الرواح المخفى أيضاً) (٢) فالفخر هنا يذكر دلالة الكلمة ثم معناها ،والمعنى كما نعرف يسبق الدلالة المفهومه من ذلك المعنى .

وأكثر العلماء فهموا معنى الخفاء من الروغان ،فالفراء يقـــول : (والروغ وإن كان على هذا المعنى فإنه لا ينطق به حتى يكون صاحبه مخفيـــاً لذهابه ومجيئه) (٣) .

---

(١) سورة الذاريات : ٢٦ .

(٢) التفسير : ٢١٣/٢٨ م ١٤ .

(٣) معاني القرآن : ٨٦/٣ .

ويقول الزمخشري : (ولا يقال راغ عن كذا إلا إذا كان عدوله عنه في خفية) .(١)

ولم يتنبه الراغب الأصفهاني إلى معنى الخفاء في الروغ حيث يقول : (روغ : الميل على سبيل الاحتيال، ومنه راغ الثعلب يروغ روغاناً) .(٢)

ومن الممكن استنباط معنى السرعة من (راغ) في هذه الآية والسياق هو الذي دل عليه .

وقد يستدل الفخر على معنى الكلمة من حروفها وتقلباتها في اللغة يقول في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٣) : (والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة ، منه لوى إذا دفع ، ولوى يلوي إذا كان قوياً ، وألوى فيه القوة على المولى عليه ..)(٤) ويكتفي في أكثر الأحايين بذكر بعض هذه التقلبات .

وهكذا .. أكثر الفخر في تفسيره من هذا الباب ، فهو يذكر الفعل واشتقاقاته وما تدل عليه تلك المشتقات من معنى يتناسب مع اللفظ .

وهذا الربط بين الألفاظ ذات الأصوات المتماثلة والمعاني المتشابهة تحدث عنه ابن جني وسماه طريقاً غريباً ومسلكاً عجيباً في هذه اللغة . ذلك أنه يقول - وهو يفرق بين الكلام والقول -: (ولنقدم أمام القول على فرق ما بينهما

---

(١) أساس البلاغة : ١٨٤ .

(٢) مفردات القرآن : ٢٠٨ .

(٣) سورة الطور : ١١ .

(٤) التفسير : ٢٨/٢٤٥ م١٤ .

طرفاً من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما ،مع تقلب حروفهما ،فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق، ويعلوه إلى ما فوقه ،وستراه فتجده طريقاً غريباً ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجباً ،فأقول إن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت مع تقدم بعض حروفها على بعض ،وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة) .(١)

واشتهر ابن فارس في مقاييس اللغة ،برد كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة .

وقد علق واعترض الدكتور ابراهيم أنيس على ابن جني وغيره وذكر أن اتفاق المعنى بين تقلبات كل كلمة في اللغة فيه تكلف وتعسف ،يقول : (ويمثل له ابن جني بعدة مجموعات لا يخلو معظمها من التكلف والتعسف وتلمس العلاقة مهما كانت تافهة أو غامضة) (٢) ثم يضرب أمثلة على ذلك لا داعي لعرضها هنا . وأقول إن إيجاد أصول معنوية للمادة الواحدة كثيراً ما تتضح ،وإذا غامت فلا بد أن نجد خيطاً رفيعاً يجمع بينها . ومن يتأمل المعاجم التي تعتني بالاشتقاق يلحظ ذلك ، ثم إن الاشتقاق قديم العهد يرجع إلى زمان الأصمعي وقطرب والأخفش كما قال السيوطي (٣) ، وقد اهتم الفخر به كثيراً وطبقه على كلمات القرآن .

وتختلف كلمة (الظل) عن كلمة (المغفرة) في معناها اللغوي ، إلا أنهما عند الفخر تشتركان في دلالتهما على معنى الستر، أحدهما حسي والآخر معنوي، وذلك حين يقارن بين نعيم الجنة في قوله تعالى :

---

(١) الخصائص : ٥ .

(٢) من أسرار اللغة : ٦٦ .

(٣) ينظر المزهر : ١/٢٠٤ .

* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا *[١]

وقوله تعالى : * وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ *[٢] يقول الإمام : (وههنا لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها : * وَظِلُّهَا * ولم يقل ههنا ذلك ،نقول قال ههنا . * وَمَغْفِرَةٌ * والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ،لأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر ،يقال : نحن تحت ظل الأمير، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد)[٣].

وقد رجعت إلى ابن فارس فوجدته يقول في مادة (ظل) : (الظاء واللام أصل واحد ،يدل على ستر شيء لشيء.)[٤] ويقول في مادة (غفر) : (الغين والفاء والراء عُظْمُ بابه الستر)[٥] فالفخر قد اعتمد على كتب اللغة في معرفة دلالة الكلمة القرآنية.

ولم تهتم الدراسة البلاغية بإيحاءات الكلمة ،ولم تضعها في اعتبارها عند دراسة النصوص الأدبية ،لذلك فقد ظلت من مباحث علم اللغة .

على أننا نجد الدراسات الأسلوبية الحديثة تهتم بها كثيراً ،وتركز في معالجتها للنصوص الأدبية على القيم التعبيرية والجمالية لأصوات اللغة في الكلمة[٦] وقد سبق الفخر إلى العناية بها في النص القرآني ، ونهدف في

---

(١) سورة الرعد : من الآية ٣٥ .
(٢) سورة محمد : من الآية ١٥ .
(٣) التفسير : ٢٨/٥٥م١٤ .
(٤) مقاييس اللغة : ٣ / ٤٦١ .
(٥) المصدر السابق : ٤/٣٨٥ .
(٦) ينظر المدخل إلى علم الأسلوب ،د . شكري محمد عياد : ٧٣ وما بعدها وهو يحلل القصائد .

مثل هذه الدراسات إلى الانتفاع بمثل هذه الإشارات والأصول في مجال دراسة الكلام من الناحية التطبيقية، لأنه من الأفضل لنا أن نتكئ على عقول علمائنا في إثراء تراثنا، حتى لا نحتاج إلى كل ما هو دخيل على فكرنا وتراثنا الإسلامي .

أعود فأقول : إن المعنى الدلالي للكلمة يفهم بعد بيان المعنى اللغوي، وهذا ما كان يذكره الفخر في أكثر الكلمات.

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾ (١) : (﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ : هي الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم ، فإذا نزعوا نفس الكافر نزعوها بشدة ، وهو مأخوذ من قولهم نزع في القوس فأغرق يقال : أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل . . . والنشط هو الجذب يقال : نشطت الدلو أنشطها نشطاً نزعتها برفق ، والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها ، وإنما خصصنا (٢) هذا بالمؤمن ، والأول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق ، فالنزاع جذب بشدة، والنشط جذب برفق ولين) (٣).

ويوافقه الألوسي في هاتين الدلالتين للنزع والنشط فيقول : (ومال بعضهم إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار والنشط والسبح بأرواح المؤمنين ؛ لأن النزع جذب بشدة . . . والنشط الإخراج برفق وسهولة وهو أنسب بالمؤمنين) (٤)

---

(١) سورة النازعات : ١-٢ .

(٢) كان الأفضل أن يقول : (وإنما خص الله هذا) بدلاً من (إنما خصصنا) .

(٣) التفسير : ٣١ / ٢٨ م ١٦ .

(٤) روح المعاني : ٣٠ / ٢٣ .

فهذه المعاني هي التي دلت على اختصاص كل فئة بما يناسبها .
ويربط الفخر بين المنحى الصوتي وبين المعنى اللغوي للكلمة ، فالصوت له أثر في تحديد المعنى ، فمعنى الإقناء فوق معنى الإغناء ، لأن مخرج القاف فوق مخرج الغين .

يقول في قوله تعالى : * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * (١) : (قوله تعالى * أَقْنَى * معناه وزاد عليه الإقناء فوق الإغناء ، والذي عندي أن الحروف متناسبة في المعنى فنقول : لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء ، وعلى هذا فالإغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان ، وهداه إلى الارتضاع في صباه ، أو على ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج إليهما ، وفي الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء ، وكل ما زاد عليه فهو إقناء) (٢) فاختلاف النغم يولد معنى دقيقاً للكلمة .

والفخر كان يعرف أهمية مخارج الحروف وصفاتها في المعنى ، لكنه لم يتحدث عن اللفظ القرآني في نظامه الصوتي - حسب علمي - إلا في الموضع السابق ، على أن له دراسة عن مخارج الحروف في (نهاية الإيجاز) (٣) أخذها من علي بن عيسى الرماني . كذلك له في التفسير حديث عن فضل اللغة العربية على سائر اللغات عند تفسير قوله تعالى : * ... قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * (٤) ذكر فيه أن الكلمة لها مادة وهي الحروف ، ولها صورة وهي الهيئة الحاصلة عند التركيب ، ثم ذكر أن للكلمة ثلاث مراتب تكمل بها فهي إما متقاربة المخرج ،

---

(١) سورة النجم : ٤٨ .

(٢) التفسير : ٢٣/٢٩ ص ١٥ .

(٣) ص : ١١٨ ، ١٢١ .

(٤) سورة فصلت : من الآية ٣ .

أو متباعدة المخرج ، وما كان متقارب المخرج فهو كمشي المقيد وهو قليل في اللغة العربية ،كما أن لبعض جنس الحروف لذة وطيباً في السمع ،وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب ،وآخر مراتبها ما يتعلق بوزنها ،فأعدلها ما بلغ ثلاثة حروف ،وبذلك يحصل كمالها.(١)

وكنت أتمنى أن أقف على تطبيق لهذا التحديد على بعض الآيات، وأنا أتتبع مسائل المعاني في التفسير لكني لم أجد فيه ما يشفي الغلة.

ولأن للصوت أثره الجاد في التأثير من حيث أنواع الحروف وصفاتها المختلفة فقد اهتم به - كما ذكرنا - بعض المتقدمين ،كما نجده متناثراً في كتب المتأخرين.(٢)

وقد يفاضل الفخر بين كلمتين من جهتين : من جهة جرسهما وإيحائهما ،ومن جهة معناهما اللغوي المجرد.

يقول في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ ﴾(٣) : (نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ﴾(٤) ثم قال المحققون قوله : ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ ﴾ أشد من قوله ﴿ الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ ﴾ لأن النازل آخراً لابد وأن يكون أبلغ ،لأن المقصود منه زيادة التنبيه ، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى ،وأما بالنظر إلى المعنى فـ(الحاقة) أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل ،و (القارعة) أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل).(٥)

---

(١) ينظر التفسير : ٩٥/٢٧ م١٤.

(٢) ينظر النبأ العظيم ،د. محمد عبد الله دراز : ١٠٣ ومابعدها - من أسرار التعبير القرآني ،د. محمد أبو موسى : ٢٢٣ ،من الإعجاز البلاغي للقرآن ،د. صبّاح دراز : ٧ ومابعدها.

(٣) سورة القارعة : ١-٢.

(٤) سورة الحاقة : ١-٣.

(٥) التفسير : ٧١/٣٢ م١٦.

فالتفضيل الأول للقارعة على الحاقة روعي فيه معنى الكلمة بحروفها التي تصور الحدث بدقة، فالقاف فيها قوة وشدة وقرع مزعج يثير الخوف والرعب، وهي أقل قوة من الحاء، ولما كان المراد التنبيه كان ما هو أشد أدل على المعنى والتفضيل الثاني للحاقة ناظر إلى المعنى مجرداً، ففي يوم القيامة يتحقق العدل وثبوت أمر الله.

وقول الفخر: (لأن النازل آخراً لابد وأن يكون أبلغ) فيه نظر وتساؤل: هل في القرآن بليغ وأبلغ، أو أنه على درجة واحدة من البلاغة؟ تعددت آراء العلماء في ذلك.

فقد أجاب الباقلاني فذكر أن القرآن تناول ضروباً مختلفة من المعاني على درجة واحدة من البلاغة فقال: (إن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه)[1] فكل كلمة منه في الذروة العليا من البلاغة.

لكن ابن سنان الخفاجي لا يرى مانعاً من أن يكون بعضه أفصح من بعض فيقول: إن بعض القرآن أفصح من بعض، ويقدم أمثلة من آيات القرآن تؤيد رأيه[2]، وهكذا اختلف العلماء في تفاوت القرآن في مراتب الفصاحة.[3]

ولا وجه لقول الفخر إن النازل آخراً يكون أبلغ.

---

(١) إعجاز القرآن: ٦.

(٢) سر الفصاحة: ٢٢٥.

(٣) ينظر الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ٢/١٥٧.

وفي موضع آخر من التفسير يذكر أن لا تفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة في القرآن وذلك حين فسر قوله تعالى : * لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * (١) يقول : (إنه تعالى حكى من قول الكفار قولهم : * لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أى قوله : * قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي * وكل ذلك كلام القوم وإنا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتاً في النظم ، فصح بهذا صحة ما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا ، والجواب : أن هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال) (٢) .

---

(١) سورة الإسراء : ٩٠ .

(٢) التفسير : ٥٩ / ٢١ م ١١ .

ملاءمة الكلمة لسياقها :

عنى الفخر بالكلمة القرآنية من جهة وضعها الملائم لسياقها ، وعلة اختيارها حيث لا تؤدى معناها أى كلمة أخرى .

وقد ورد هذا كثيراً في تفسيره ، وسوف أذكر بعضاً منه ، ما يوفى بالغرض، ويوضح الفكرة ، فليس هدفى من هذه الدراسة الاستقصاء الشامل لكل ما ورد في الباب الواحد من مباحث المعاني ، بل معرفة منهجه وطريقته . أقول : إن الفخر كان عظيم الإحساس بالكلمة القرآنية وله عبارات في التفسير تدل على ذلك كقوله : (إنَّ كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها)(١) .

ويقول في موضع آخر : (كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن)(٢) ولنتأمل قوله : (وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن) أى أن أى كلمة لا تستطيع أن تفى بالمعنى الذى أراده القرآن فلا يفي بهذا المعنى المراد إلا الكلمة التي أوردها الله تعالى في الآية ، وهذا هو الأساس الذى اتفق عليه كل العلماء الذين درسوا النظم في القرآن الكريم ، والفخر من هؤلاء العلماء الذين أدركوا عظمة الكلمة ، فقد كان يكشف عن قيمتها بمقارنتها برديفاتها من الكلمات ، فمثلاً تحمل كلمة (يحيق) من المعاني ما يناسب سياقها .

---

(١) التفسير : ٢٦٤/٢٨ م١٤ ذكر هذا عند تفسير قوله تعالى :
﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ سورة الطور : ٤٠ .

(٢) التفسير : ١٣١/٢٥ م١٣ ذكر هذا عند تفسيره لقوله تعالى :
﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾
سورة الروم : ٤٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (١)
: (قوله ﴿ يَحِيقُ ﴾ تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق ، وفيه
من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو لا يصل) (٢).

وهذه الآية جاءت في سياق الرد على المشركين الذين أقسموا بالله
إنّ جاءهم رسول ليتبعونه ، فلما جاءهم كفروا به وحاكوا له المكر (٣) ، فرد
عليهم تعالى أنه من أراد أن يحيك الكيد بالرسول ، فإنّ مكره سيعود عليه
و يحيط به من جميع النواحي حتى لا يكاد يفلت منه أبداً ، فمكره مهلكه لا محالة ،
وهذا المعنى لا يعبر عنه إلا كلمة (يحيق) .

وفي : ﴿ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ معنى لا يوجد في (استمع) ويبين الفخر
الفرق .وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٤) إذ يقول : (... ﴿ أو أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ حيث لم
يقل أو استمع ، لأنّ الاستماع ينبئ عن طلب زائد ، وأما إلقاء السمع فمعناه
أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالاً ، وإنّ لم يقصد السماع
كالسامع في الصوت الهائل) (٥).

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٤٣ .
(٢) التفسير : ٣٤/٢٦ م١٣ .
(٣) هذا المفهوم من سياق قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ... ﴾ سورة فاطر : ٤٢ - ٤٣ .
(٤) سورة ق : ٣٧ .
(٥) التفسير : ١٨٣/٢٨ م١٤ (كان الأفضل أن يقول كالسامع للصوت الهائل .

وقد حسن هذا الفعل * أَلْقَى السَّمْعَ * لأن المراد بيان أن الذكرى حاصلة لمن لم يقصد السمع بل أرسل سمعه ، وذلك لقوة الذكرى ووضوحها يتنبه إليها من له أدنى سمع * وَهُوَ شَهِيدٌ * أي شاهد ليس بغائب.(١)

ثم يقول الفخر : (فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فإن لم تحصل فلمن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاده أو لم يجتهد في سماعه)(٢) و يفسر الزمخشرى إلقاء السمع بالإصغاء(٣) واتبعه أكثر المفسرين كالبيضاوى وأبي حيان والآلوسي(٤) وانفرد الفخر -على حسب علمي - بهذا الرأى الذى أرى أنه أقرب إلى معنى الآية .

ويكشف الفخر عن سر اختيار (أصحاب) دون أرباب في قوله تعالى : * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *(٥) يقول بعد أن تساءل عن سر العدول : (... لأن الصاحب يكون من الجنس فقوله : * أَصْحَابِ الْفِيل * يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل من البهيمية ، وعدم الفهم والعقل ، بل فيه دقيقه ، وهي أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين فيقال للأدون أنه صاحب الأعلى ، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون ، ولذلك يقال لمن صحب رسول الله أنهم أصحابه ، فقوله : * أَصْحَابِ الْفِيل * يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالا وأدون منزلة من الفيل)(٦).

---

(١) ينظر معاني القرآن ، للفراء : ٣ / ٨٠ .

(٢) التفسير : ٢٨ / ١٨٣ م ١٤ .

(٣) ينظر الكشاف : ٤ / ١١ .

(٤) ينظر أنوار التنزيل : ٤ / ٩٤ ، البحر المحيط : ٨ / ١٢٩ ، روح المعاني : ٢٦ / ١٩٢ .

(٥) سورة الفيل : ١ .

(٦) التفسير : ٣٢ / ٩٨ م ١٦ .

وقد بنى الفخر على كون المصاحبة تقتضي الجنسيه أن هؤلاء الأصحاب كانوا من جنس الفيل في البهيمية ، وهذا مما يوحى به المعنى ولا يدل عليه دلالة واضحة .

ويذكر الفخر أن كلمة (الرب) فى القرآن الكريم تأتي في مقام التربية والشفقة ، وكلمة (الله) تأتي في مقام الألوهية والجبروت ، ويكرر ذلك في مواضع عدة من تفسيره يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) يقول : (قال : ﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ولم يقل من الله مع أن ما تقدم كان كله يذكر الله كقوله : ﴿ أُوذِيَ فِي اللَّهِ ﴾ وقوله : ﴿ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ ; وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة (٢) ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة) . (٣)

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً . . . ﴾ (٤) : (. . . ولم يقل واذكر إلهك ولا سائر الأسماء وإنما سماه في هذا المقام باسم كونه رباً ، وأضاف نفسه إليه ، وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان . . . لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل) . (٥)

---

(١) سورة العنكبوت : ١٠ .

(٢) كان الأفضل أن يقول (الدال على الرحمة والعطف) .

(٣) التفسير : ٢٥ / ٤٠ م ١٣ .

(٤) سورة الأعراف : من الآية : ٢٠٥ .

(٥) التفسير : ١٥ / ١١١ م ٨ .

ويفرق السيوطي بينهما نقلاً عن الطيبي فيقول : (الفرق بين قولـه : اعبدوا الله وبين قوله : اعبدوا ربكم ، أن في الثاني إيجاب العبادة بواسطة النعمة التي بها قوامهم ،وفي اعبدوا إيجاب عبادته لمراعاته عز وجل من غيـر واسطة).(١) وذلك لأن في كلمة (ر ب) التربية والعناية وهذا داعٍ للشفقة والرحمـة.

ويعدل القرآن عن اللفظ الأشهر إلى خلافه لدلالة الثاني على المعنى المراد من الآية يقول في قوله تعالى:﴿ اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾(٢) : (إنّ القعيد بمعنى الجليس والنديم ،ثم إذا عرفت هذا ،وقيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة في اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع أن الجليس أشهر ؟ يكون جوابهم أن آخر الآيات من قوله : ﴿ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ ﴿ وَلَدَىَّ عَتِيد ﴾ وقوله: ﴿ بِجَبَّارٍ عَنِيد ﴾ يناسب القعيد لا(٣) الجليس وإعجاز القرآن ليس في السجع ،وإذا نظرت إلى ما ذكر تبين لك فائدة جليلة معنويـة وحكمية . . . لأن القعيد دل على أنهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معـه ، وهذا هو المعجز ؛وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعاً للفظ ،والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغي وجـاء باللفظ على أحسن ما ينبغي).(٤)

واختيار اللفظ المناسب للمعنى يعـد سـراً من أسرار إعجاز القرآن كما أشار الفخر ،وكما أدرك العلماء قبله ،كابن عطية الذى ذكر في مقدمة

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٢/١١٥.

(٢) سورة ق : ١٧.

(٣) في النسخة التي بين يدى (ولا الجليس) والصحيح ما أثبته ولعلـه خطأ مطبعي .

(٤) التفسير : ٢٩/٨٢م١٥.

تفسيره ذلك وهو يتحدث عن إعجاز القرآن يقول : (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد) (١).

وهناك غير الظاهريين عجزوا عن معرفة سر مجيء اللفظ القرآني ، فها هو ذا ابن الأثير في القرن السابع يقف أمام الكلمة القرآنية فلا يعرف سر مجيئها ، فيرجعها إلى ملاءمة أخواتها .

يذكر أن رجلاً متفلسفاً حضر عنده يوماً فجرى ذكر القرآن الكريم ، فأخذ ابن الأثير يصف فصاحة القرآن وبلاغته ، فقال الرجل : وأي فصاحة وهو يقول : * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * فهل في لفظة (ضِيزَىٰ) من الحسن ما يوصف ، فأجابه ابن الأثير إن هذه الكلمة لا يسد غيرها مسدها ، وذلك أن فواصل سورة (النجم) على حرف الياء فكان لا بد أن تجيء اللفظة على هذا الحرف لتلائم أخواتها) (٢).

وأقول : ليس هذا بالقول ، لأن ألفاظ القرآن تأتي لمعنى ، وليس لمراعاة الفواصل فقط ، وقد جاءت هنا لتصف جور قسمتهم وغرابة تفكيرهم بهذه القوة في الكلمة ، وهذه الضخامة في اللفظ ، كما أن فيها سخرية وتهكماً لما يتفوهون به ، ولم يذكر الفخر تخريجاً لهذه الكلمة هو وأكثر المفسرين .

وهكذا وجدنا الفخر قد فطن إلى ما في اللفظ القرآني من معنى يتناسب مع الآية ، واهتمامه باللفظ جعله يهتم بالفروق بين الكلمات المتشابهة في المعنى ، المختلفة في اللفظ ، وسأبين لاحقاً - إن شاء الله - مدى اهتمامه بها ، وما هي الطرق التي يسلكها لمعرفة اختصاص كل كلمة بما يناسبها من معنى .

---

(١) المحرر الوجيز : ١/٧٢ .

(٢) المثل السائر : ١/٢٢٩ .

وقد يثبت القرآن المعنى بنفي ضده للإشارة إلى معان أراد السياق إثباتها ، وذكر الفخر سر بعض منها .

يقول في قوله تعالى : * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * (١) : (لما قال : * أَمْوَاتٌ * علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله * غَيْرُ أَحْيَاءٍ * ؟ والجواب من وجهين :

الأول : أن الإله هو الحي الذى لا يحصل عقيب حياته موت وهذه الأصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة .

والثاني : أن هذا الكلام مع الكفار ... ومن تكلم مع الجاهل الغرّ الغبى فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه منه الإعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة ..) (٢) .

وقد اقتصر الزمخشرى في حديثه عن هذه الآية على الوجه الأول يقول : (أموات جمادات لا حياة فيها ، غير أحياء : يعنى أن من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيواناً وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها ، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة وذلك أعرق فى موتها) (٣) ولم يذكر الوجه الثاني مع أنه أقوى من الناحية البلاغية .

وقد كرر الفخر هذا المعنى فى موضع آخر ، وذلك في قوله تعالى : * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * (٤) يقول : (فإن قيل :

---

(١) سورة النحل : ٢١ .

(٢) التفسير : ٢٠/١٦ م ١٠ .

(٣) الكشاف : ٤٠٦/٢ .

(٤) سورة المدثر : ٩-١٠ .

فما فائدة قوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وعسير مغن عنه ؟ الجواب : أما على القول الأول فالتكرير للتأكيد كما تقول : أنا لك محب غير مبغض ، وولي غير عدو. وأما على القول الثاني فقوله : ﴿ عَسِيرٌ ﴾ يفيد أصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين ،وقوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر)(١).

والوجه الثاني قد ذكره الزمخشري قبله ،وأضاف إليه قوله : (ويجوز أن يُراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا)(٢).

ومما يحسب للفخر ويحمد عليه استعانته بالأمثلة البسيطة ،الدائرة على ألسنة العامة ، حتى يوضح المعنى ،ويكسب القارىء معرفة التفريق بين الأساليب المختلفة ،وهي طريقة تعليمية جيدة.

---

(١) التفسير : ٣٠/ ١٩٧-١٩٨ م١٥.

(٢) الكشاف : ٤/ ١٨١.

مجالات استخدام اللفظة القرآنية :

وقف الفخر عند بعض ألفاظ القرآن ، وبين مجالات استخدامها ، وطريقة جريانها في معانيها ، فقد رأى أن كلمة (الخطب) لا تستخدم إلا فيما عظم أمره وعلا شأنه من المعاني .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) :

(هل في الخطب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ ؟ نقول : نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها ، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي فقال : (ما خَطْبُكُمْ) أي لعظمتكم لا ترسلون إلا في عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول شغلكم الخطير ، وأمركم العظيم ، لزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز) (٢) .

وحاولت التثبت من قوله فرجعت إلى القرآن واستقصيت الآيات التي ورد فيها الخطب ، فوجدتها في خمسة مواضع :

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٣)

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الذاريات : ٣١ .

(٢) التفسير : ٢٨/٢١٦ م ١٤ .

(٣) سورة طه : ٩٥ .

(٤) سورة الحجر : ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ .

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ .. * (١)

* قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * (٢)

* قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ * . (٣)

فكل هذه الامور التي جاءت في الآيات أمور عظام شداد ، فما فعله السامري من صنع العجل كان أمراً عظيماً ،وما جاء به المرسلون من الملائكة لإبراهيم كان أمراً عظيماً ،وما كانت عليه ابنتا شعيب من رغبة في سقي غنمهما وتسابق الرعاء إلى السقي أشعر موسى بأنهما في أمر شديد ،وما كانت عليه النسوة اللاتي كدن ليوسف أمر عظيم أيضاً .

و قد تنبه ابن عطية إلى هذا المعنى للخطب فقال : ("الخطب" لفظة إنما تستعمل في الامور الشداد) (٤).

وقول الفخر : (وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي) أمر قد يتخلف ، فالسامري لم يكن عظيماً إنما كان كافرا ،وكذلك صواحب يوسف عرفن بالكيد والمكر في مراودتهن له ورغبتهن فيه .

---

(١) سورة الذاريات : ٣١-٣٢-٣٣ .

(٢) سورة القصص : من الآية ٢٣ .

(٣) سورة يوسف : من الآية : ٥١ .

(٤) المحرر الوجيز : ٣٢٨/٨ قالها وهو يفسر * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * سورة الحجر : ٥٧ .

ويذكر الفخر أن كلمة (الخوض) لا تستخدم في القرآن إلا في الاندفاع في الأباطيل . يقول في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ (١) : (والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل ،ولهذا قال تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ (٣).

وقد تتبعت آيات (الخوض) في القرآن الكريم ، فوجدتها كما قال جاءت كلها في الأباطيل .

ثم إنني وجدت كلاماً للراغب الأصفهاني يذكر فيه أن أكثر ما ورد في القرآن بهذا اللفظ ورد فيما يذم يقول : (الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ،ويستعار في الأمور ،وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه) (٤).

وأظن أنه يقصد بذلك تلك الآيات التي جاء فيها الخوض على سبيل المشاكلة في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ (٥).

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ (٦).

---

(١) سورة الطور : ١٢ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٦٩ .

(٣) سورة المدثر : ٤٥ ،التفسير : ٢٨/ ٢٤٥ م ١٤ .

(٤) المفردات في غريب القرآن : ١٦١ .

(٥) سورة النساء : من الآية ١٤٠ .

(٦) سورة الأنعام : من الآية ٦٨ .

فالمشاكلة(١) في الآية الأولى تقديرية ؛ لأنه لم يسبق لفظ الخوض وإنما ذكر مرة واحدة ،فيمكن أن يفهم الخوض من قوله تعالى : ﴿ يُكْفَرُ بِهَا ﴾ ، ولا شك أن الحديث الآخر الذي لم يُنه أن يخوضوا فيه حديث غير مذموم فلذلك جاء فيه لفظ الخوض للمشاكلة ويؤيد هذا قول الألوسي : (والمراد بالخوض هنا التفاوض لا بقيد التكذيب والاستهزاء ،وادعى بعضهم أن المعنى حتى يشتغلوا بحديث غيره ،وأنّ ذكر ﴿ يَخُوضُوا ﴾ للمشاكلة)(٢).

ولهذا قال الراغب : (وأكثر ما ورد في القرآن) أما الفخر فقد اعتمد في حكمه على ما قاله أكثر العلماء من أن الخوض لا يكون إلا في الباطل فهو ينقل في تفسيره قول الواحدي : (أصل الخوض الدخول في مائع من الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى)(٣).

ويقول ابن منظور أيضاً : (والخوض اللبس في الأمر ،والخوض من الكلام ما فيه الكذب والباطل)(٤).

---

(١) المشاكلة : نوع من أنواع البديع وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً : الأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ المائدة : ١١٦.
والثاني : كقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ سورة البقرة من آية ١٣٨ .
ينظر الإتقان في علوم القرآن ،للسيوطي : ٢/١٢٠.

(٢) روح المعاني : ١٨٢/٧.

(٣) التفسير : ١٢٥/١٦ م٨.

(٤) لسان العرب : ١٤٧/٧.

ويشير الفخر إلى أن كلمة (المسارعة) في القرآن تأتي في سياق الخير في أكثر الأمر . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ (١) : (إنَّ لفظ المسارعة إنما يستعمل في أكثر الأمر في الخير ، قال تعالى : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ (٣) فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة ، إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدة ، وهي أنهم يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيه) (٤) .

وإذا صرفنا النظر عن المسارعة في (سريع الحساب) و (سريع العقاب) رأينا أن القرآن يذكر خمس آيات فيها المسارعة في الخير ، وأربع آيات فيها المسارعة في الشر ، فالتفاوت ليس كبيراً .

قال تعالى في الأولى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ (٥)

﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦)

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٧)

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١١٤ .

(٣) سورة المؤمنون : من الآية ٥٦ .

(٤) التفسير : ١٢/٤٢ م٦ ، كان الواجب أن يقول (محقون فيها) لأن الضمير يعود على المنكرات فهي جمع مؤنث سالم ، والظاهر أنه خطأ مطبعي .

(٥) سورة الأنبياء : من الآية ٩٠ .

(٦) سورة المؤمنون : ٦١ .

(٧) سورة آل عمران : من الآية ١٣٣ .

بالإضافة إلى الآيتين اللتين ذكرهما الفخر في حديثه السابق .

أما آيات المسارعة في الشر :

* وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ * (١)

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ * (٢)

* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ * (٣)

بالإضافة إلى الآية التي فسرها في كلامه السابق ،وقد عدت إلى بعض المعاجم في هذه اللفظة فلم أجدهم يذكرون اختصاص هذا اللفظ بالخير أو بالشر ،وبهذا أقول إنَّ المسارعة أكثر ما جاءت في الشر ، فكأن العصاة يتعجلون الإثم والعدوان لمحبتهم لهما فجيء بـ (يسارعون) .

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ١٧٦ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٤١ .

(٣) سورة المائدة : من الآية ٥٢ .

الفروق بين الكلمات :

الغروق بين الكلمات المتشابهة في المعنى في اللغة العربية من أجل مباحث البلاغة ،ولكن لم يهتم بها البلاغيون وأهل اللغة ، ولم يخصصوا لها أبواباً في كتبهم ،ولا نجد فيها إلا شذرات يسيرة متناثرة في بعض الكتب ، وقد تناول الفخر الكثير من هذه الكلمات ،وفرق بينهما ، وكان على إدراك تام بصعوبة هذا الباب ،وأنه لا يتأتى لكل أحد ،لذلك قال : (لا يظهر هذا الفرق إلا للبارع) .

يقول وهو يفرق بين جلس وقعد : (... قعد وجلس ليسا على ما يظن أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر إلا للبارع) .(١)

وقد وجدت له طريقة في بيان معنى الكلمة ،واستنباط خصوصياتها ، فهو يكشف عن معنى الكلمة بأن يذكر أولاً معناها عند العرب واستخداماتهم لها ، ثم ينظر في مشتقات الكلمة وتقلباتها في اللغة لمعرفة المعنى المشترك بين هذه المشتقات ،ثم يبحث عن استعمالاتها في القرآن الكريم ،و معرفة المواضع التي ترد فيها ،فمثلاً يقول وهو يفرق بين (قعد) و (جلس) : (والفرق هو أنَّ القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاءً ويدل عليه وجوه :

---

(١) التفسير : ٢٩/ ٨١م٥ قالها عند تفسير قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ سورة القمر : ٥٥ .

الأول : هو أن الزّمن يسمى مقعداً ولا يسمى مجلساً لطول المكث حقيقة ومنه سمي قواعد البيت ،والقواعد من النساء قواعد ،ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل ... ويقال للركوب من الإبل قعود لدوام اقتضاء ...

الثاني : النظر إلى تقاليب الحروف ،فإنك إذا نظرت إلى (ق .ع .د) وقلبتها تجد معنى المكث في الكل ،فإذا قدمت القاف رأيت (قعد) و (قدع) بمعنى ،ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت ،وإذا قدمت العين رأيت (عقد) و (عدق) بمعنى المكث ...

الوجه الثالث : الاستعمالات في القعود إذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا ، قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم ﴾(١) والمراد الذى لا يكون بعده اتباع ، قال تعالى : ﴿ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾(٢)...

ونستطيع من طريقته هذه أن نستنبط منهجاً في كيفية معرفة أدق المميزات الخاصة بالكلمة في القرآن الكريم ،وفي النصوص الأدبية .

وقد فرق الخطابي قبله بين القعود والجلوس اعتماداً على رواية النضر ابن شميل يقول : (حُكي لنا عن النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ،فقال له المأمون : اجلس ،فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف أقول ؟ قال : قل اقعد ، فأمر له بجائزة قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت

---

(١) سورة النساء : من الآية ٩٥.

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٢١. التفسير : ٢٩/ ١٨م ١٥.

إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ،فنقول : القيام والقعود كما تقول الحركة والسكون ، ولا تسمعهم يقولون القيام والجلوس ،وإنما يقال قعد الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة واستلقاء) (١) .

وقد يذكر أن معنى الكلمتين واحد في اللغة ،لكن هناك فرق بينهما من حيث ما يدل عليه تركيب كل كلمة في تقلباتها المختلفة ،ثم يتتبع استعمالها القرآني .

يقول وهو يفرق بين الخشية والخوف عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ (٢) : (الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة ،لكن بينهما فرق، وهو أن الخشية من عظمة المخشى ؛ وذلك لأن تركيب حروف (خ . ش . ى) في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة ، يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن، وهما جميعا مهيبان ، والخوف خشية من ضعف الخاشي ؛وذلك لأن تركيب (خ . و . ف) في تقاليبها يدل على الضعف ،ويدل عليه الخيفة والخفية . . .) (٣) .

وقد رجعت إلى ابن فارس الذى كان يحرص على بيان دلالة كل كلمة فوجدته لا يفرق بينهما فكلاهما يدل على الذعر والفزع يقول في مادة (خشى) : (الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر) (٤) ويقول في مادة (خوف) : (الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع) (٥) .

---

(١) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز) : ٢٨ .

(٢) سورة ق : ٣٣ .

(٣) التفسير : ١٧٧/٢٨ م١٤ .

(٤) مقاييس اللغة : ١٨٤/٢ .

(٥) المصدر السابق : ٢٣٠/٢ .

ويواصل الفخر كلامه في استخدامات الكلمتين في القرآن الكريم فيقول : (... إنَّ الله تعالى في كثير من المواضع ،ذكر لفظ الخشية حيث كان المخوف من عظمة المخشي ،قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) وقال : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٢) فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه ،وإنما الله عظيم يخشاه كل قوي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) مع أن الملائكة أقوياء ......، وقال تعالى : ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ (٤) أي لا تخف ضعفاً فإنهم لا عظمة لهم ،وقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً ﴾ (٥) حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة ..... وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي ، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف ، وهذا في الأكثر ،وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية) (٦).

وهكذا نرى أن الفخر لم يلتزم بذكر الاستعمال اللغوي ،لأن أهل اللغة يساوون بين المعنيين كما رأينا عند ابن فارس ،أما هو فقد رأى أن القرآن يفرق بينهما .

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٢٨ .

(٢) سورة الحشر : من الآية ٢١ .

(٣) سورة المؤمنون : ٥٧ في النسخة (وهم من خشية ربهم مشفقون) ولا شك في أنه خطأ مطبعي لزيادة الواو.

(٤) سورة العنكبوت : من الآية ٣٣ .

(٥) سورة النور : من الآية ٣٧ .

(٦) التفسير : ٢٨/١٧٧ - ١٧٨ م١٤ .

وفرق أبوهلال العسكري بين الكلمتين فقال : (إنّ الخوف يتعلق بالمكروه ، وبترك المكروه تقول خفت زيداً . . . والخشية تتعلق بمنزل المكروه ، ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية . . . وقال بعض العلماء : يقال خشيت زيداً ولا يقال : خشيت ذهاب زيد ، فإن قيل ذلك فليس على الأصل ولكن على وضع الخشية مكان الخوف ، وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه) .(١)

ويبدو لي أن هناك توافقاً كبيراً بين عبارات أبي هلال وبين كلام الفخر ، فكلاهما يقرر أن الخشية تستخدم فيمن عظم أمره يقول الفخر : (الخشية مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشى) ويقول أبوهلال : (الخشية تتعلق بمنزل المكروه) وكلاهما يقرر أن ذلك غير مطرد في اللغة - وقد يكون هذا هو السبب في عدم تفريق أهل اللغة بينهما - يقول الفخر : (وهذا في الأكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية) ويقول أبوهلال : (وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه) .

وكذلك الراغب الأصفهاني يرى أن الخشية تكون عند الشعور بعظمة المخشى يقول : (الخشية خوف يشوبه تعظيم)(٢) وأضاف : (وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه) .(٣)

وأستطيع أن أقول : إن هذه التفرقة عند الفخر لا تقوم على ملاحظة كلام العرب ، إنما على ما هو شائع في القرآن الكريم ، هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) الفروق اللغوية : ٢٠٠ .

(٢) (٣) المفردات في غريب القرآن : ١٤٩ .

ويفرق بين اللعب واللهو ،وهما من الكلمات التي تتداخل معانيهما ، وتستخدمان بمعنى واحد عند أكثر الناس ،فيوضح معنى كل كلمة ،وهو هنا لا يلجأ إلى مشتقات الكلمة ولا إلى الاستعمال القرآني لها كما في السابق .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾(١) : (ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ، فنقول الفرق من وجهين :

أحدهما : إنَّ كل شغل يفرض فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ، . . . فالإقبال على الباطل لعب ،والإعراض عن الحق لهو) .

الثاني : هو أنَّ المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به ،فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم . . . أو يكون على وجه الاستغراق لقلبه والإعراض عن غيره بالكلية ،فالأول لعب والثاني لهو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى الآت الملاهي في العرف ،والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهي لأنها تلهي الإنسان . . .) .(٢)

وقد توارد على هذين اللفظين معانٍ عديدة ،واختلفت أقوال العلماء في الفرق بينهما يقول الخليل بن أحمد : (اللهو ما شغل الإنسان من هوى وطرب) .(٣)

---

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٦٤ .

(٢) التفسير : ٢٥/ ٩٢م١٣ .

(٣) العين : ٤/ ٨٧ .

ويقول الرماني : (اللعب عمل يشغل عما ينتفع به إلى ما لا ينتفع به ، واللهو صرف النفس من الجد إلى الهزل)(١) .

ويقول الراغب : (اللهو هو كل شيء شغلك عن شيء)(٢) ، (ولعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً)(٣) .

والفخر يتفق معهما في معنى اللهو فهو كل ما يشغل ويصرف النفس من هوى وطرب .

ويفرق بين الخاطيء والمخطيء ، حيث إنّ الفرق بينهما دقيق جداً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾(٤) : (قيل : الخاطيء هو الذى أتى بالخطيئة عمداً ، وفرق بين الخاطيء والمخطيء ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب إنه مخطيء ، ولا يقال إنه خاطيء)(٥) .

وهذا المعنى الذى قاله هو السائد في كتب اللغة فمثلاً يقول ابن فارس : (الخطأ مجاوزة حد الصواب يقال أخطأ إذا تعدى الصواب ، وخطِيء يخطِأ إذا أذنب)(٦) .

فمعنى قوله مجاوزة حد الصواب أى الخطأ دون تعمد .

---

(١) نقلاً من أبي حيان في البحر المحيط ٤٠/١٠٨ .

(٢)، (٣) المفردات : ٤٥٠ - ٤٥٥ .

(٤) سورة يوسف : ٩١ .

(٥) التفسير : ١٨/٢٠٩ م٩ .

(٦) مقاييس اللغة : ٢/١٩٨ .

ويوضح الزمخشرى المعنى فيقول : (أخطأ في المسألة وفي الرأى ، وخطىء خطأً عظيماً إذا تعمد الذنب : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِين ﴾.[١]

ولا أريد أن أطيل في هذا المبحث مع أن الفخر قد ذكر منه كثرة كاثرة.

وهذا المبحث وإن كان شديد الصلة باللغة إلا أنه يمت إلى البلاغة بطرف ظاهر جداً، وهو اختيار الكلمة ذات المدلول المناسب للسياق مما تختص به دون غيرها.

---

(١) أساس البلاغة : ١١٤ ، سورة يوسف : من الآية ٩٧ - في النسخة التي نقلت منها (وما كنا خاطئين) ولا يوجد آية بهذا اللفظ وقد صححت الآية وأثبتها.

الإفـراد والجمـــــع

للفخر الرازى حس دقيق في بيان سر إفراد الكلمة ، وسر جمعها على صيغة دون صيغة أخرى في القرآن الكريم .

فقد نظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (١) والعذاب مفرد ، والنذر جمع فرأى أن الجمع يشير إلى تعدد رحماته ، والمفرد يشير إلى أنّ عذابه واحد يقول : (فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقـل فكيف كان أنواع عذابي ، ووبال إنذارى ؟ نقول فيه إشارة إلى غلبة الرحمـة والغضب ، وذلك لأنّ الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال : الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت ، فلمّا لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، فكانت النعم كثيرة ، والنقمة واحدة) (٢) .

ولم يهتم كثير من المفسرين ببيان سر الجمع والإفراد في هذه الآيـة كالزمخشرى وأبي السعود وأبي حيان والآلوسي ، ولذلك فقد تفرد الفخر بذكره لهذا السر .

وتأتي النعمة مفردة في مقام الكثرة ، وتعني جنس النعم أى كامـل النعم ، لا يخرج منها شيء .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ... ﴾ (٣) : (إنما قال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ولم يقـل :

---

(١) سورة القمر : ٢١ .

(٢) التفسير الكبير : ٢٩/٤٩ م ١٥ .

(٣) سورة المائدة من الآية : ٧ .

نعم الله عليكم ،لأنه ليس المقصود منه التأمل في أعداد نعم الله ،بل المقصود منه التأمل في جنس نعم الله ،لأن هذا الجنس جنس لا يقدر غير الله عليه ، فمن الذى يقدر على إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون من الآفات ،والإيصال إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة)[١] فجنس نعم الله كثيرة ،ولذلك كانت صيغة المفرد الدالة على الشمول أكثر مناسبة من صيغة الجمع .

وقد اكتفى أكثر العلماء بالقول بأنها اسم جنس دون ذكر الغرض من هذا الإفراد ، فمثلاً يقول ابن عطية : (ونعمة الله اسم جنس يجمع الإسلام وجمع الكلمة وعزة الحياة وغنى المال وحسن المثال)[٢] .

وفي مقام آخر من القرآن تأتي (النعمة) بجمع القلة للتنبيه بالأدنى عن الأعلى ،كما في قوله تعالى : * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ *[٣] يقول : (ههنا سؤال وهو أن الأنعم جمع قلة ، فكان المعنى أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبها الله ،وكان اللائق أن يقال : إنهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب ،فما السبب في ذكر جمع القلة ؟ والجواب المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعنى أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب)[٤] .

---

(١) التفسير : ١٨٣/١١ م ٦ .

(٢) المحرر الوجيز : ٥٢/٥ .

(٣) سورة النحل : من الآية ١١٢ .

(٤) التفسير : ١٣٠/٢٠ م ١٠ .

وتنوع الكلمة الواحدة في القرآن بين الإفراد والجمع قلة كان أو كثرة، ومعرفة ما وراء ها من معاني مقصودة وصور ملحوظة ،من أجل البحوث وأد قهـا في القرآن الكريم،وقد اهتم الفخر بهذا النوع .

من ذلك أنه بيّن الفرق بين الريح بالفرد والرياح بالجمع في القرآن الكريم فيقول : إنّ الريح تأتي في مقام ذكر العذاب ،والرياح في مقام ذكر الرحمة.

يقول : (ما روى في الحديث من أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا هبت الريح قال : " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " فإنه يدل على أن مواضع الرحمة بالجمع أولى قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ (١) وإنما يبشر بالرحمة ، وقال في موضع الإفراد : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٢) وقد يختص اللفظ في القرآن بشيء فيكون إمارة له ..). (٣)

ثم نراه في موضع آخر يبين سبب إفراد الريح وجمع الرياح يقول : (سمى النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه :

أحدها : النافعة كثيرة الأنواع ،كثيرة الأفراد فجمعها ، فإنّ كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ،ولا تهب الريح الضارة في أعوام ...

---

(١) سورة الروم : من الآية ٤٦ .

(٢) سورة الذاريات : ٤١ .

(٣) التفسير : ٤/٢٢٣ م٢ .

الثاني : وهو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً،فإنّ ما يهب مرة واحدة لا يُصلح الهواء ،ولا يُنشيء السحاب ،ولا يُجرى السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم .

الثالث : هو أنّ الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها ..)[١] .

وقد سار الفخر على هدى غيره من المفسرين في التفرقة بين جمعها وإفرادها ،وزاد عليها في بيان العلة والسبب .

ومن فرق بينهما الزمخشري يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[٢] : (الرياح هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة ،وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً)[٣].

ويقول أيضاً ابن عطية عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾[٤]: (وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب ،إلا في يونس في قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٥] وهذا أغلب وقوعها في الكلام ،وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح يقول : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً)[٦].

---

(١) التفسير : ١٣٥/٢٥ م١٣.
(٢) سورة الروم : من الآية ٤٦.
(٣) الكشاف : ٢٢٥/٣.
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٦٤.
(٥) من الآية : ٢٢.
(٦) المحرر الوجيز : ٢ / ٥١.

ولأستاذى الدكتور علي العمارى دراسة موسعة في الفرق بين الريح والرياح ، أثبت فيها أنه لا أساس لما قاله العلماء من وجود فرق بينهما وأن الريح استعملت في العذاب وفي الرحمة في القرآن الكريم ، وكذلك الرياح استعملت في العذاب وفي الرحمة. ولا صحة للحديث المروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم بإجماع رجال الحديث ، وأقل ما قيل فيه إنه ضعيف.(١)

والعجيب أن الطحاوى قد ذكر في كتابه (مشكل الآثار)(٢) أن لا فرق بينهما وأنكر الحديث ، ولم يتنبه إلى ذلك جميع المفسرين الذين قالوا بالفرق ، مع أنه سابق لهم.

وقد يأتي جمع القلة تنبيهاً على أن ثمار الدنيا مهما كثُرت وتنوعت فهي قليلة قياساً على ثمار الآخرة يقول في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ... ﴾(٣) : (الثمر المخرج بماء السماء كثير ، فلم قيل الثمرات دون الثمر أو الثمار؟ الجواب تنبيهاً على قلة ثمار الدنيا ، وإشعاراً بتعظيم أمر الآخرة والله أعلم).(٤)

---

(١) ينظر البحث في الريح والرياح في القرآن الكريم وفي كلام العرب - مخطوط - .

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الطحاوى ، ولد ونشأ بمصر ، تفقه على مذهب الشافعي ، ثم تحول حنفياً ، من تصانيفه : شرح معاني الآثار - بيان السنة - مشكل الآثار . توفي بالقاهرة سنة ٣٢١هـ. الأعلام ، للزركلي : ١/٢٠٦.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٢.

(٤) التفسير : ٢/١٢٢ م١.

وقد يأتي الجمع ويراد به الواحد لتعظيمه وبيان منزلته .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ﴾(١) : (اعلم أن الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه في الدين :

أحدها : أنه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع ، والواحد إذا كُني عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ : فانظر إلى الشخص الذى كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون شأنه)(٢).

ويقيس الفخر هذا التعظيم لأبي بكر بتعظيم الله لنفسه في الآيتين .

وأقول : إنّ ذكر الله في كثير من المواضع في القرآن جاء على صيغة الجمع لعظمته سبحانه وتعالى . ومثله في مجيء الجمع للتعظيم قوله تعالى حكاية عن قصة موسى مع فرعون : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾(٣) يقول : (إنما قال ﴿ وَمَلَئِهِمْ ﴾ مع أن فرعون واحد لوجوه : الأول : أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم)(٤).

فالتعظيم في الآية الأولى من الله لأبي بكر ، وفي الثانية حكاية لما كان عليه فرعون من تعظيمه لنفسه ولملئه ، وقد جرت العادة أن الملك يعظم نفسه وأعوانه فيقول : نحن فلان ابن فلان .

---

(١) سورة النور : من الآية ٢٢ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٩٩ - ٢٠٠ م١٣ .

(٣) سورة يونس : من الآية ٨٣ .

(٤) التفسير : ١٧/١٥١ م٩ .

وقد يأتي المصدر مفرداً بين صيغ جمع جاءت أسماء ، فيبين الفخر سر ذلك مستنداً إلى تعليل علمي .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [١] : (ذكر في السمع المصدر ، وفي البصر والفؤاد الاسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ؛ لأن المصدر لا يجمع ، وذلك لحكمة ، وهو أن السمع قوة واحدة ، ولها فعل واحد ، فإنَّ الانسان لا يضبط في زمان واحد كلامين والأذن محله ، ولا اختيار لها فيه ، فإنَّ الصوت من أى جانب كان يصل إليه ، ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله الأبصار ولها فيه شبه اختيار ، فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون آخر ، وكذلك الفؤاد محل الإدراك ، وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره) [٢] .

وقد لاحظت أن الفخر قد انفرد بمثل هذه التعليلات العلمية وسيرد لاحقاً أمثال أخرى - إن شاء الله - .

وكما ذكر الفخر السر في إفراد المصدر ، ذكر كذلك السر في جمعه وإن كان ذلك يخالف القاعدة النحوية .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ [٣] : (فإنَّ قال قائل المصدر لا يجمع ، فما الفائدة في جمع الظنون ؟ فنقول لا شك في أنه

---

(١) سورة السجدة : من الآية ٩ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٧٥ - ١٧٦ م١٣ .

(٣) سورة الأحزاب : من الآية ١٠ .

منصوب على المصدر ، ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال : ضربته سياطاً ... فالفائدة هي أن الله تعالى لو قال تظنون ظناً جاز أن يكونوا مصيبين ، فإذا قال ظنوناً تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً ، لأن الظنون قد تكذب كلها ، وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد) .(١)

فالجمع جاء ليبين كثرة الهواجس والأوهام وتعدد أنواعها والجزم بأن أحدهما كاذب .

وتتنوع أحياناً كلمات الآية الواحدة ما بين جمع وإفراد ، فيقف الفخر ليبين سر ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾(٢) : (في جمع الجواري وتوحيد البحر ، وجمع الأعلام فائدة عظيمة ، وهي أن ذلك إشارة إلى عظمة البحر ، ولو قال في البحار لكانت كل جارية في بحر ، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال ، وأما إذا كان البحر واحداً وفيه الجواري التي هي كالجبال ، يكون ذلك بحراً عظيماً وساحله بعيداً ، فيكون الإنجاء بقدرة كاملة) .(٣)

وقد يجمع ما لا يعقل جمعاً مذكراً سالماً بناءً على ما يعتقده المشركون من أن أصنامهم تعقل وتميز .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾(٤) : (إنَّ الجمع بالواو والنون في غير من يعقل كيف يجوز ؟ فنقول لما اعتقد عابدوها أنها تعقل وتميز ، فورد هذا اللفظ بناءً على ما يعتقدونه ، ويتصورونه ،

---

(١) التفسير : ٢٥/١٩٩ م١٣ .
(٢) سورة الرحمن : ٢٤ .
(٣) التفسير : ٢٩/١٠٥ م١٥ .
(٤) سورة الأعراف : ١٩١ .

ونظيره : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٢).

والتنظير هنا ليس في سر الجمع ،إنما في مجيء جمع المذكر غير العاقل على صيغة جمع المذكر العاقل، وفي قليل من الأحيان كان الفخر يساوي بين مجيء الكلمة مفردة وبين مجيئها جمعاً .فلا يرى فرقاً بينهما ،يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ (٣) : (وإنما قال : ﴿عَدُوّاً ﴾ ولم يقل : أعداء ،لأن العدو يستوى فيه الواحد والجمع) (٤).

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٣٣.

(٢) سورة يوسف : من الآية ٤.

التفسير : ١٥ / ٩٥ م٨.

(٣) سورة النساء : من الآية ١٠١.

(٤) التفسير : ١١/٢٢ م٦.

الأفعال والمشتقات

اهتم الفخر في تفسيره بدلالة الأفعال والمشتقات، وكان كثيراً ما يقارن بين الفعل والمشتق، ويبين دلالة كل منهما على المعنى الذى ورد فيه :

١ - وسأبدأ أولا بنظره في الأفعال ثم بنظره في المشتقات .

لقد لحظ الفخر المعاني التي تكمن وراء زيادة الفعل ، كما لحظ ما في صيغ الأفعال في أزمانها المختلفة من معان أدبية تبثها في المعنى المراد .

فهو يعلل سبب مجيء أحد الفعلين مبنياً للمجهول، والآخر مبنياً للمعلوم في آية واحدة ، معتمداً في ذلك على ما تلوح به من معاني . يقول في قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [١] : (فإن قيل ما السبب في أنه تعالى قال في الحلى ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله ، وقال في السندس والإستبرق ﴿ وَيَلْبَسُونَ ﴾ فأضاف اللبس إليهم؟ قلنا : يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعملهم ، وأن يكون الحلى إشارة إلى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم) [٢] .

وتُعطف صيغة تَفَاعَلَ على صيغة تَفْعِل فيبين سر تحول الفعل إلى هذه الصيغة في سياق النهي .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ [٣]

---

(١) سورة الكهف : من الآية ٣١ .

(٢) التفسير : ١٢٣/٢١ م ١١ .

(٣) سورة الحجرات : من الآية ١١ .

: (قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا ﴾ ولم يقل : ولا تَنْبِزوا ،وذلك لأنَّ اللماز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيباً يلمزه به ،وإنما يبحث ويتبعه ليطّلع فيه على عيب فيوجد اللمز من جانب ،وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به ، فإنَّ من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره ،فالظاهر أنَّ النبز يفضي في الحال إلى التنابز ولا كذلك اللمز) (١) وهذا سر جيد لطيف كشف عنه الفخر.

و يأتي الفعل مخاطباً به الله تعالى على صيغة المفاعلة ، استجابة لإحساس النفس المذنبة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . ﴾ (٢)

: (لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا ،وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد ؛ لأنَّ الناسي قد أمكن من نفسه ،وطرق السبيل إليها بفعله ،فصار من يعاقبه بذنبه كالمعين لنفسه في إيذاء نفسه ،وعندي فيه وجه آخر وهو أن الله يأخذ المذنب بالعقوبة ،فالمذنب كأنه يأخذ ربه بالمطالبة بالعفو والكرم ، فإنه لا يجد من يخلصه من عذابه إلا هو ،فلهذا يتمسك العبد عند الخوف منه به ، فلما كان كل واحد منهما يأخذ الآخر عبر عنه بلفظ المؤاخذة) (٣).

و يعبر القرآن عن شدة الاهتمام والمبالغة بالفعل الذى يأتي على وزن (تَفَعَّل) ،لأنَّ هذه الصيغة تضيف إلى الفعل معنى زائداً.

---

(١) التفسير : ١٣٢/٢٨.

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦.

(٣) التفسير : ١٥٥/٧-١٥٦ م٤.

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾(١) : (إِنّ ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتبصر والتجلد ونحوهما ، فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة ، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول)(٢) .

وقد تختلف أزمنة الأفعال في الآية الواحدة فتنتقل من الماضي إلى المضارع ، أو من المضارع إلى الماضي لمعان ، منها أن الفعل الماضي يدل على انقطاع الفعل ، والمضارع يدل على التجدد والتكرار وذلك في الجمل الشرطية كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(٣).

يقول : (قال في الشكر : ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفي الكفران : ومن كفر فإنّ الله غني ، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد كقول القائل : من دخل داري فهو حر ، ومن يدخل داري فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت بتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع ، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ، لأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبداً يكون منه شيء في العدم ، يريد الشاكر إدخاله في الوجود ...

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٢٧ .

(٢) التفسير : ٨/ ٣٠ م٤ .

(٣) سورة لقمان : ١٢ .

فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيهاً على أنّ الشكر بكماله لم يوجد ، وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضي) (١).

وقد يأتي الفعل الماضي دالاً على بُعد الزمن ، والمضارع دالاً على قرب زمن وقوع الفعل .

كما في قوله تعالى : * فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * (٢) يقول : (ذكر التكذيب بلفظ الماضي هنا إشارة إلى معاملتهم مع موسى عليه السلام ، لأنه قد انقضى من ذلك الزمان أدوار كثيرة ، وذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم مع زكريا ويحيى ، لكون ذلك الزمان قريباً فكان كالحاضر) (٣).

وقد ذكر الزمخشري وجهاً لهذا الاختلاف ، أراه أقرب إلى المعنى شاع في كتب البلاغة والتفسير يقول : (لم جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً ؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل ، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجيب منها) (٤).

ويستعمل الماضي في موضع ، والمضارع في موضع آخر في آية واحدة لمعاني ، وذلك في ذكر إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر . يقول في قوله تعالى : * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ * (٥) : (قال : * يُولِجُ * بصيغة

---

(١) التفسير : ٢٥/١٤٦م١٣ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٧٠ .

(٣) التفسير : ١٢/٥٩ م٦ .

(٤) الكشاف : ١/٦٣٣ .

(٥) سورة لقمان : من آية ٢٩ .

المستقبل ، وقال في الشمس والقمر ﴿ سَخَّرَ ﴾ بصيغة الماضي ، لأن إيـــلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم ، وتسخير الشمس والقمـــر أمر مستمر كما قال تعالى : ﴿ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (١) .

وقد يجتمع الفعل الماضي مع المضارع فيدلان على الاستمرار كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) يقول : (قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ ﴾ هو آكد من قول القائل إنهم قبل ذلك أصروا ؛ لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار ، لأن قولنا : فلان كان يحسن إلى الناس يفيد كون ذلك عادة له) (٣) .

وقد ألحق بعض الدارسين هذا النوع من الانتقال في أزمنة الأفعال بباب الالتفات أشار إلى ذلك ابن الأثير والعلوي (٤) وعداه نوعاً من أنواعه ، ولم أجد للفخر موضعاً في التفسير يشير إلى ذلك ، بل إنه كثيراً ما ينصرف إلى بيان دلالة انتقال فعل واحد في الآية دون الالتفات إلى الآخر .

ويتتبع الفخر الرازي المواضع التي تأتي فيها الأفعال الماضية دالة على أحداث تقع في المستقبل ، فيبين أسرار هذا العدول ، ونلاحظ تنوع أغراضه على حسب السياق الواردة فيه .

---

(١) سورة يس : من الآية ٣٩ ، التفسير : ٢٥ / ٦١ م ١٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٤٦ .

(٣) التفسير : ٢٩ / ١٧١ م ١٥ .

(٤) ينظر المثل السائر : ٢ / ١٨١ ، الطراز : ٢ / ١٣٧ .

فقد يأتي الفعل الماضي بدل المضارع ليقطع ظن الدوام والاستمرار الذى يبثه الفعل المضارع الدال على ذلك ، فلما كان مراده تعالى إغلاق باب الفتنة والقتال بين الفئات المؤمنة على مر الزمان عبّر عن ذلك بقوله * اقْتَتَلُوا * في قوله تعالى : * وَإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا * (١) يقول الفخر : (لم يقل «يقتتلون»، لأنّ صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والاستمرار ، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إنْ تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا ، وهذا لأنّ صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك يقال فلان يتهجد ويصوم) (٢) .

ويأتي الماضي ويُراد به المستقبل للحث على السعي والجد في العمل الصالح يقول في قوله تعالى : * وَأَن لَيْسَ لِلإنسَانِ إلَّا مَا سَعَى * (٣) : («إلَّا مَا سَعَى» بصيغة الماضي دون المستقبل لزيادة الحث على السعي في العمل الصالح ، وتقريره هو أنه تعالى لو قال : ليس للإنسان إلا ما يسعى ، تقول النفس : إني أصلي غداً كذا ركعة ، وأتصدق بكذا درهماً ، ثم يجعل مثبتاً في صحيفتي الآن أمر يسعى له ، وله فيه ما يسعى فيه ، فقال : ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه ، وأما تسويلات الشيطان وعداوته فلا اعتماد عليها) (٤) .

ويقع الماضي موقع المضارع للمدح والرغبة في الثبات عليه في المستقبل يقول في قوله تعالى : * إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * (٥) : (إنما قال : * وَتَوَاصَوْا * ولم يقل يتواصون

---

(١) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

(٢) التفسير : ١٢/٢٨ م١٤ .

(٣) سورة النجم : ٣٩ .

(٤) التفسير : ٢٩ / ١٦ - ١٧ م١٥

(٥) سورة العصر : ٣ .

لئلا يقع أمراً بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي ،وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل).(١)

ويعبر بالماضي عن المستقبل لمن كان عزيز الجانب ، ولمّا كان الرسول صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق عبر عما يعطى له يوم القيامة بصيغة الماضي يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾(٢) : (يقول : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ ولم يقل : سنعطيك ، لأن قوله : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ يدل على أن الإعطاء كان حاصلاً في الماضي وهذا فيه من الفوائد :

(أحدها) : أن من كان في الزمان الماضي أبداً عزيزاً مرعي الجانب مقضي الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ...

(وثانيها) : أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والإغناء والإفقار ،ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلاً في الأزل ...).(٣)

ويأتي المضارع بصيغة الماضي للإخبار عن جدهم في تقرير شبهة قد يقع فيها المؤمنون كما في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ... ﴾(٤) يقول : (وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لفائدتين :

إحداهما : أن الشيء الذى يكون لازم الحصول فى المستقبل

---

(١) التفسير : ٩٠/٣٢ م١٦.

(٢) سورة الكوثر : ١.

(٣) التفسير : ١٢٢/٣٢ م١٦.

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٥٦.

فقد يعبر عنه بأنه حدث أو هو حادث قال تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ ... فهنا لو قال التعبير عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغة ، أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضي دل ذلك على أن جدهم واجتهادهم في تقرير الشبهه قد بلغ الغاية ...

الفائدة الثانية : أنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل ذلك على أنه ليس المقصود الإخبار عن صدور هذا الكلام ، بل المقصود الإخبار عن جدهم واجتهادهم في تقرير هذه الشبهة).(١)

وبين الفائدتين وإن تشابهتا فرق أدق مما عليه الفرق ، فأحدهما يفيد المبالغة في تقرير الشبهة ، والثاني الإخبار عن جدهم في تقرير الشبهة. وفي هذا تظهر قدرة الفخر على استنباط دقائق المعاني .

وقد يدل الفعل الماضي على قرب وقوع الحدث وعلى حكايته وكأنه يقع الآن . يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى بنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾(٢) : (خرج قوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ ﴾ على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه :

الأول : الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل آت قريب ، ويقال : الجيش قد أتى إذا قرب إتيانهم قال تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾.(٣)

---

(١) التفسير : ٩/٥٦ م٥.

(٢) سورة المائدة : من الآية ١١٠.

(٣) سورة النحل : من الآية ١.

الثاني : أنه ورد على حكاية الحال ونظيره قول الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد رحلنا إلى بلدة كذا ، وصنعنا فيها كذا ، إذ صاح صائح فتركتني واجهته ، ونظيره في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ... ﴾ (١).

وكثيراً ما يقع الماضي موقع المضارع في القرآن الكريم في أمور الآخرة لتحقق وقوعها ، وتقرير حدوثها .

وقد ذكر الفخر ذلك في مواضع من تفسيره من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢) يقول : (لم قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ على لفظ الماضي مع أن ذلك لم يقع ؟ والجواب : قد مرّ في هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس ، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضي مبالغة في التأكيد والتقرير) (٣).

ومن كلامه هذا نلاحظ أنه كان يهتم أحياناً باستقصاء الظواهر التي تتكرر دائما في كتاب الله تعالى . والتي أرى أنها تحتاج إلى دراسة مستقلة تبين أهم خصائص مثل هذه الظواهر .

وقد صرح العز بن عبد السلام بأن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي من مجاز المشابهة ، أي الاستعارة فقال : (وأما الأفعال فالتجوز فيها أنواع : أحدها : التجوز بالماضي في المستقبل تشبيهاً له في التحقيق) (٤).

---

(١) سورة سبأ : من الآية ٥١ . التفسير : ١٣٢/١٢ م٦ .

(٢) سورة هود : من الآية ٨ .

(٣) التفسير : ١٩٧/١٧ م٩ .

(٤) الإشارة إلى الإيجاز : ٢٦ - ٢٧ .

ثم يقول : (وهذا من مجاز التشبيه شبه المستقبل في تحققه وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه).(١)

ووضع المتأخرون هذا المبحث تحت خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.(٢)

وقد ظفرت بموضع واحد في التفسير - حسب استقصائي - ذكر فيه الفخر أن التعبير عن المستقبل بالماضي من المجاز ،قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾(٣) : (﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ معناه : ويقضى الأمر ،والتقدير : إلا أن يأتيهم الله ويقضي الأمر ،فوضع الماضي موضع المستقبل ، وهذا كثير في القرآن ،وخصوصاً في أمور الآخرة ،فإنّ الإخبار عنها يقع كثيراً بالماضي ... والسبب في اختيار هذا المجاز أمران :

أحدهما : التنبيه على قرب أمر الآخرة ،فكأن الساعة قد أتت ووقع ما يريد الله إيقاعه.

الثاني : المبالغة في تأكيد أنه لا بد من وقوعه لتجزى كل نفس بما تسعى ، فصار بحصول القطع والجزم بوقوعه كأنه قد وقع وحصل).(٤)

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز : ٢٦ - ٢٧.

(٢) ينظر شروح التلخيص : ١/ ٤٨٤ ومابعدها.

(٣) سورة البقرة : ٢١٠.

(٤) التفسير : ٥/ ٢٣٥ م٣.

٢ - سأتناول ثانياً نظرته في المشتقات ومعانيها ، وأجده هنا يقارن في أكثر الأحوال بين المشتق والفعل في الآية الواحدة ودلالتهما على المعنى .

من ذلك أنه يقارن بين دلالة الفعل ، ودلالة اسم الفاعل في قوله تعالى :

* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * (١)

يقول : (في قوله : * الَّذِينَ صَدَقُوا * بصيغة الفعل ، وقوله : * الْكَاذِبِينَ * باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه ، كما يقال : فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر ، وفلان نفذ أمره وفلان نافذ أمره ، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك . وإذا ثبت هذا فنقول : وقت نزول هذه الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف ، وعن قوم مستديمين للكفر ، مستمرين عليه ، فقال في حق المؤمنين : * الَّذِينَ صَدَقُوا * بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق ، وقال في حق الكافر : * الْكَاذِبِينَ * بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام) (٢) .

وقد شاع في تفسير الفخر شرحه القاعدة البلاغية ودعمها بالأمثلة ثم تطبيقها على الآية الواردة فيها ، وهذه طريقة جيدة تلفت الأنظار إلى أهمية مثل هذه الدراسات البلاغية التي تكشف عن أدق خصوصيات المعاني في الآية ، مما لا يهتم به أكثر الناس، خاصة أن التفسير يجمع أشتات كثير من المعارف من نحوية ولغوية وأصولية وطبيعية وغير ذلك .

---

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٣ .

(٢) التفسير : ٢٥/ ٣٠-٣١ م١٣ .

ودلالة الفعل الماضي هنا لا يدل على الحدوث في الماضي ،إنما يشير إلى حدوثه بعد إذ لم يكن .

وقد أشار إلى ذلك أيضاً في قوله تعالى : * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا * (١).

يقول : (لم ذكر * كَفَرُوا * بلفظ الفعل و * الْمُشْرِكِينَ * باسم الفاعل ؟ والجواب تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين في أول الأمر، لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام ، بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة)(٢).

ويذكر الفخر أن اسم الفاعل يطلق على من رسخت فيه الصفة ، أما الفعل فيطلق على من صدر منه الفعل مرة أو أكثر .

يظهر ذلك وهو يفرق بين * يَجْزِي * و * جَازٍ * في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً * (٣)

يقول : (إنّ الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي ، ولا يكون من شأنه ، لأن الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ، ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحيك شيئاً ، ولا يكون ذلك صفته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك ...

---

(١) سورة البينة : من الآية ٦ .

(٢) التفسير : ٣٢ / ٤٩ م١٦ .

(٣) سورة لقمان : من الآية ٣٣ .

إذا علمت هذا فنقول : الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق ، والوالد يجزى لما فيه من الشفقة ، وليس بواجب عليه ذلك ، فقال في الوالد : لا يجزى ، وقال في الولد : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ ﴾ (١) .

وفرق بين الدوام والاستمرار في اسم الفاعل ، وبين ما ذكره من الدوام والاستمرار في الفعل المضارع في قوله سابقاً : (لم يقل «يقتتلون» لأن صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والاستمرار) .

لأنه في الفعل المضارع يعني ثبوت التجدد واستمراره .

ويأتي الفعل المضارع ليدل على التجدد والحدوث مع اسم الفاعل الذى يدل على الاستمرار والدوام متأثراً في ذلك بعبد القاهر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ (٢) : (﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أى غافلون ، وذكر اسم الفاعل ؛ لأن الغفلة دائمة ، والضحك والعجب بهما أمران يتجددان ويعدمان) (٣) .

ويجيء المصدر على وزن دون آخر للابتعاد عن التكلف الذى قد يحمله ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ (٤) : (فإن قيل : فلم لم يقل : فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل ؟ والجواب : أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا ، إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع ، وأما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع ، فذكر

---

(١) التفسير : ٢٥/١٦٤ م١٣ .

(٢) سورة النجم : ٥٩ - ٦٠ .

(٣) التفسير : ٢٩/٢٨ م١٥ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ٣٧ .

التقبل ليفيد الجد والمبالغة ،ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع ،بل على وفق الطبع) .(١)

ويذكر المصدر مفعولاً مطلقاً بعد فعله لبيان قيمة الفعل وأهميته يقول في قوله تعالى : * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثاً * (٢) : (إنه يفيد أن الفعل كان قولاً معتبراً ،ولم يكن شيئاً لا يلتفت إليه ،ويقال فيه إنه ليس بشيء ، فإذا قال القائل : ضربته ضرباً معتبراً ، يقول القائل فيه ليس بضرب محتقراً له ،كما يقال هذا ليس بشيء).(٣)

ويبين الفخر سبب مجيء * الغَفُورُ * على صيغة المبالغة دون * ذُو الرَّحْمَةِ * المعطوف عليها .

يقول في قوله تعالى : * وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ * (٤) :

(* الغَفُورُ * البليغ المغفرة ، وهو إشارة إلى دفع المضار ،و * ذُو الرَّحْمَةِ * الموصوف بالرحمة ،وإنما ذكر لفظ المبالغة في المغفرة لا في الرحمة ،لأن المغفرة ترك الإضرار ،وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادراً عليها ، أما فعل الرحمة فهو متناه ،لأن ترك ما لا نهاية له ممكن ،أما فعل ما لا نهاية له فمحال) .(٥)

ومثله في مخالفة صيغة المعطوف عن المعطوف عليه ، حيث يعدل عن اسم الفاعل وذلك لتحقيق معنى في قوله تعالى : * أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن

---

(١) التفسير : ٣٠/٨ م٤ .

(٢) سورة الواقعة : ٦ .

(٣) التفسير : ١٤٢/٢٩ م ١٥ .

(٤) سورة الكهف : من الآية ٥٨ .

(٥) التفسير : ١٤٣/٢١ م١١ .

كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْعَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أَيَّامٍ أُخَرَ * (١) يقول : (لقائل أن يقول رعاية اللغظ تقتضي أن يقال : فمن كان منكم مريضاً أو مسافراً ولم يقل هكذا بل قال : * فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْعَلَى سَفَرٍ * ؟ وجوابه : أن الفرق هو أن المرض صفة قائمة بالذات ، فإن حصلت حصلت وإلا فلا ، وأما السفر فليس كذلك ، لأن الانسان إذا نزل في منزل فإن عدم الإقامة كان سكونه هناك إقامة لا سفراً ، وإن عدم السفر كان هو في ذلك الكون مسافراً ، فإذن كونه مسافراً أمر يتعلق بقصده واختياره ، فقوله : * عَلَى سَفَرٍ * معناه كونه على قصد السفر) (٢).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٨٤ .

(٢) التفسير : ٥/ ٨١ م٣ .

التعريـــف

عني الفخر الرازي بالملاحظات البلاغية حول التعريف وأنواعه ، فقد تحدث عن التعريف بأل وما تفيده ، وعن التعريف بالإضافة ومعانيها ، وله إشارات بسيطة عن الاسم الموصول واسم الإشارة .

التعريف بأل :

تعرض الفخر (لأل) حين تدخل على الاسم مفرداً أو جمعاً ، وذكر ما تدل عليه ، فقد تدل على المعهود السابق ، ويتكرر هذا في مواضع كثيرة من التفسير ، يقول في قوله تعالى : ﴿ ... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١) : (إن المراد منه القرآن ، وهو الأظهر ، لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن ، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن) (٢) .

وقد تدخل على المفرد وتفيد حصول فرد من الجنس ، يقول في قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ (٣) الحسنة لفظة مفردة معرفة ، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد ، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأناً وأعلاها درجة وهو الإيمان) (٤) .

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ٣٨ .

(٢) التفسير : ١٢/٢٢٦ م٦ .

(٣) سورة النمل : ٨٩ .

(٤) التفسير : ٢٤/٢٢ م ١٢ .

وتأتي اللام مع الجمع ويُراد بها الاستغراق مبالغة في المعنـــى .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (١) : (الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة ، يعني تظنـون كل ظن ،لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً) (٢).

فـ(أل) عند الفخر إذا دخلت على الجمع أفادت استغراق كل أفراده .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (٣) : (واعلم أن المرأة لا تكون صالحة إلا إذا كانت مطيعة لزوجها ،لأن الله تعالى قال : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ والألف واللام في الجمع يفيـــد الاستغراق ،فهذا يقتضي أن كل امرأة تكون صالحـة ،فهي لا بد وأن تكـون قانتة مطيعة) (٤).

وتدخل (أل) على المفرد فتفيد الاستغراق أيضاً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٥) : (إن الألف واللام في لفظ المعروف ولفـــظ المنكر يفيدان الاستغراق وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف ،وناهيـــن عن كل منكر ،ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقاً وصدقاً لا محالة له فكان حجة) (٦).

---

(١) سورة الأحزاب : من الآية ١٠ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٩٩ م١٣ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٣٤ .

(٤) التفسير : ١٠/٩١-٩٢ م٥ .

(٥) سورة آل عمران : من الآية ١١٠ .

(٦) التفسير : ٨/١٩٥ م٤ .

فالفخر يرى أن (أل) تفيد الاستغراق سواء دخلت على المفرد أو الجمع .

ومذهب الفخر هنا يخالف ما ذهب إليه في كتابه المحصول ، فقد ذكر أن الجمع المعرف بلام الجنس إذا لم يكن للمعهود فهو للاستغراق ، أما الواحد المعرف بلام الجنس فلا يفيد العموم ، ثم دعم أقواله بأدلة منطقية أصولية.[١]

واعترض الزركشي على رأى الفخر هذا ، وهو يتحدث عن (أل) الاستغراقية وقال : إن أثرها يظهر في الاستثناء منه ، مع كونه بلفظ المفرد نحو : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثم يقول : (خلافاً للإمام فخر الدين ومن تبعه في قولهم إن المفرد المحلى بالألف واللام لا يعم ولنا الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ﴾[٢].

ومثل هذه المناقشات الأصولية عند الفخر لا جدوى منها في الدراسة البلاغية التذوقية.

إلا أنه تطرق (لأل) وهي تحمل معاني بلاغية ، من ذلك أن لام الجنس تفيد معنى الكمال في الصفة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٣] : (أي هم الكاملون في الظلم البالغون المبلغ العظيم فيه كما يقال العلماء هم المتكلمون ، أي هم الكاملون في العلم ، فكذا ههنا).[٤]

---

(١) ينظر المحصول في علم أصول الفقه : ١/٥٨٤ - ٥٩٩ القسم التحقيقي .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٤/٨٩ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥٤ .

(٤) التفسير : ٦/٢٢٤ م٣ .

وقد يعرف الظاهر المعلوم الذى لا ينبغي أن ينكر كما في قولـه تعالى : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (١) : (عرفوا الذكر ولم يقولوا أألقي عليه ذكر ؛ وذلك لأن الله تعالى حكى إنكارهم لِمَا لا ينبغي أن يُنكر ، فقال : أنكروا الذكر الظاهر المبين الذى لا ينبغي أن ينكر ، فهو كقول القائل : أنكروا المعلوم) (٢).

ومثله في التعريف لظهوره قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) يقول : (قوله : ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ آكد من قول القائل الذى أوحينا إليك حق من وجهين :

أحدهما : ان تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور ؛ لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة ، لأن الأخبار في الغالب تكون إعلامــاً بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع ، كقولنا : (زيد قام) فإن السامع ينبغي أن يكون عارفاً بزيد ، ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فإذا كان الخبر أيضاً معلوماً ، فيكون الإخبار للتنبيه ، فيعرفان باللام ، كقولنا : زيد العالم في هذه المدينة ، إذا كان علمه مشهوراً) (٤).

ولم يذكر الوجه الثاني وأظن أنه قد سها عنه .

ويرى الفخر أن تعريف الطرفين قد يكون لقصد الحصر وكمال الصفة كما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥)

---

(١) سورة القمر : ٢٥ .

(٢) التفسير : ١٣٢/١٣ م٧ .

(٣) سورة فاطر : من الآية ٣١ .

(٤) التفسير : ٢٣/٢٦ م١٣ .

(٥) سورة الجاثية : ٣٧ .

: (﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يفيد الحصر فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو ، وهذا يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو..)[1]

ومثله قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[2] يقول في : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ : (يفيد الحصر فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟ فنقول : السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال)[3].

وقد ذكر المتأخرون[4] أن تعريف الطرفين إما أن يفيد القصر على وجه الحقيقة ، أو يفيده على وجه المبالغة لكماله فيه.

والفخر هنا جمع بين الاثنين فتعريف الطرفين أفاد القصر والكمال في الصفة حين لاحظ أن لا وجه للقصر الحقيقي.

وهذا ما ذكره عبد القاهر عند حديثه عن تعريف الطرفين ، فهو يفيد القصر والكمال في الصفة.

يقول : (أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة ، وذلك قولك " زيد هو الجواد " و " عمرو هو الشجاع " تريد أنه الكامل)[5].

ويبدو تأثره بعبد القاهر في هذه المسألة واضحاً.

---

(١) التفسير : ٢٧٦/٢٧ م١٤.

(٢) سورة الشورى : من الآية ١١.

(٣) التفسير : ١٥٠/٢٧ م١٤.

(٤) ينظر شروح التلخيص : ١٠٠ ، المطول : ١٧٧.

(٥) دلائل الإعجاز : ١٧٩.

التعريف بالموصولية:

ويأتي الاسم الموصول للإشارة إلى ما يجرى مجرى المعلوم وإن لم يكن معلوماً ،كنزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لقوة ظهوره ، يقول في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾(١) : (قال أهل اللغة : كلمة الذى موضوعه للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ،وعند هذا يتوجه الإشكال ،وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذى نزل الفرقان ،فكيف حسن ههنا لفظ الذى ؟ وجوابه : أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزاً ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره ،أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم)(٢).

ويعدل القرآن الكريم إلى (مَنْ) دون (مَا) لاختصاص العقلاء بالتخويف ،يقول في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾(٣) : (مَنْ للعقلاء ،وكل ما على وجه الأرض مع الأرض فان ، فما فائدة الاختصاص بالعقلاء؟ نقول : المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر)(٤).

ويعدل إلى (مَا) دون (مَنْ) ،لأن الغلبة فيه حاصلة لغير العقلاء ،يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾(٥) : (وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة "ما" ،لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة "ما" فيه ،لأن العبرة بالأغلب أيضاً ،ويدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة ،وشرور الماء)(٦).

---

(١) سورة الفرقان : ١.

(٢) التفسير : ٢٤/ ٤٥ م١٢.

(٣) سورة الرحمن : ٢٦ .

(٤) التفسير : ٢٩/ ١٠٥ م١٥.

(٥) سورة الفلق : ١ - ٢ .

(٦) التفسير : ٣٢/ ١٩٢ م١٦.

وتأتي (مَا) في موضع (مَنْ) للدلالة على قدرته تعالى وقهره وتسخيره حتى كأن كل المخلوقات جمادات لا قدرة لها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) : (... لم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء ، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره ، وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير كالجمادات التي لا قدرة لها ، وكالبهائم التي لا عقل لها .) (٢) ويرجح الزمخشرى سبب العدول إلى أن (ما) تتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً ، وضرب على ذلك مثلاً فقال : إنك إذا رأيت شبحاً من بعيد فإنك قبل أن تعرف أعاقل هو أم غير عاقل تقول ما هو ؟ فكانت (ما) أولى بإرادة العموم. (٣)

وما قاله الزمخشرى بعيد عن السر البلاغي ، وأرى الفخر هنا أكثر إدراكاً للمعنى البلاغي ووصولاً لسره .

---

(١) سورة المائدة : ١٢٠ .

(٢) التفسير : ١٤٧/١٢ م٦ .

(٣) ينظر الكشاف : ٦٥٨/١ .

التعريف بالإضافة :

تأتي الإضافة فتفيد ما لا يفيده غيرها من ألوان التعبير، فإضافة المكان إلى ما يقع فيه يفيد اختصاصه بهذا الشيء، أي اختصاص المضاف إليه بالمضاف .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (١) : (إضافة الجنة إلى النعيم من أي الأنواع ؟ نقول : إضافة المكان إلى ما يقع في المكان . يقال : دار الضيافة ، ودار الدعوة ، ودار العدل ، فكذلك جنة النعيم ، وفائدتها أن الجنة في الدنيا قد تكون للنعم ، وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها ، بخلاف الجنة في الآخرة فإنها للنعيم لا غير) (٢) .

وتضاف الأقوات إلى الأرض فتفيد اختصاصها بهذا النوع من الأقوات ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ (٣) : (إنَّ المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض وحادثة فيها ؛ لأنَّ النحويين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، فالشيء قد يضاف إلى فاعله ، وتارة إلى محلة أخرى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ : أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها ، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة ، حتى إنَّ أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس) (٤) وقوله : (لأنَّ النحويين قالوا ..) دلالة على أن كلام النحاة

---

(١) سورة الواقعة : ١١-١٢ .

(٢) التفسير : ١٤٨/٢٩ م١٥

(٣) سورة فصلت : ١٠ .

(٤) التفسير : ١٠٤/٢٧ م١٤ .

هو المدخل لبيان أسرار الكلام .

وقد تدل الإضافة على الكمال في الصفة .

يقول في قوله تعالى : * غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *[(١)] : (قوله ههنا * غُفْرَانَكَ * يعني أطلب الغفران منك وأنت الكامل في هذه الصفة ، والمطموع من الكامل في صفة أن يعطى عطية كاملة ، فقوله * غُفْرَانَكَ * طلب لغفران كامل ، وما ذاك إلا بأن يغفر جميع الذنوب بفضله ورحمته ، ويبدلها بالحسنات كما قال * فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ *)[(٢)].

وتدخل الجنة على الخلد فتفيد الكمال في صفتها بالخلد ، أو تفيد تميزها عن غيرها من الجنات .

يقول في قوله تعالى : * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً *[(٣)] : (فإن قيل : الجنة اسم لدار الثواب ، وهي مخلدة ، فأى فائدة في قوله * جَنَّةُ الْخُلْدِ * ؟ قلنا : الإضافة قد تكون للتمييز ، وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال : الله الخالق البارىء)[(٤)].

وتفيد الإضافة معاني معروفة وشائعة عند المفسرين والبلاغيين كأن تفيد المدح والتعظيم .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٥ .

(٢) التفسير : ٧/١٤٩ م٤ .
سورة الفرقان : من الآية ٧٠ .

(٣) سورة الفرقان : ١٥ .

(٤) التفسير : ٢٤/ ٥٨ م١٢ .

يقول في قوله تعالى حين تأتي للمدح : (قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [(١)] : (ومعنى إضافة المدخل والمخرج إلى الصدق مدحهما ، كأنه سأل الله تعالى إدخالا حسناً وإخراجاً حسناً لا يرى فيهما ما يكره) [(٢)].

وتأتي للتعظيم والتشريف يقول في قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [(٣)] : (قوله : ﴿رَبِّهِمْ﴾ يفيد تعظيماً للملائكة وتحقيراً للعصاة، كأنه تعالى قال : كانوا لي فكنت لهم) [(٤)].

ويقول في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ [(٥)] : (قوله : ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف) [(٦)] ، وغير ذلك من الأسرار المنتشرة في التفسير كله.

---

(١) سورة الإسراء : ٨٠ .

(٢) التفسير : ٣٤/٢ م١١ .

(٣) سورة القدر : ٥ .

(٤) التفسير : ٣٥/٣٢ م١٦ .

(٥) سورة السجدة : من الآية ٩ .

(٦) التفسير : ١٧٥/٢٥ م١٣ .

التنكير

كما اهتم الفخر الرازى بالتعريف في الكلمة القرآنية ،اهتم كذلك بمعانيها حين تكون نكرة ،وما تفيده من معنى أو معانى متعددة.

فالنكرة تفيد في الأصل الجنسية والوحدة ،وكان الفخر يحيل إليهما أحياناً معنى التنكير في الآية.

من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ * (١) : (وتنكير الحظ في الآية يدل على أن المراد به حظ واحد ،وهو الذى ذكرناه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم) (٢).

ومثلها تنكير * حَسَنَة * للدلالة على أنها حسنة واحدة يقول في قوله تعالى : * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * (٣) : (لما ذكر على سبيل التنكير فقال : أعطني في الدنيا حسنة كان المراد منه حسنة واحدة ،وهي الحسنة التي تكون موافقة لقضائه وقدره ورضاه وحكمته ،فكان ذلك أقرب إلى رعاية الأدب والمحافظة على أصول اليقين) (٤).

---

(١) سورة المائدة : من الآية ١٤ .

(٢) التفسير : ١١/١٩٣ م٦ .

(٣) سورة البقرة : ٢٠١ .

(٤) التفسير : ٥/٢٠٥ م٣ .

وقد حمل الزمخشرى معنى التنكير في (حظ) على الكمال فقال :
(تركوا نصيبا جزيلاً وقسطاً وافياً)[(١)].

كذلك الآلوسي رأى أن تنكير (حسنة) يفيد الكمال يقول : (وإن كانت نكرة في الإثبات وهي لا تعم إلا أنها مطلقة فتنصرف إلى الكامل، والحسنة الكاملة في الدنيا ما يشمل جميع حسناتها)[(٢)] وهذا القول أدل على معنى الآية مما قاله الفخر .

ولا يقال إن دلالة النكرة على المفرد أمر لغوى يخرجها من باب البلاغة ، لأنه قد ينشأ عن الإفراد غرض آخر يناسب المقام يتضح عند الاستعمال .[(٣)]

وللتهويل أثره في معرض الوعيد والتهديد ، فمن شأنه مضاعفة عناصره لذلك يقول في تنكير (الويل) في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[(٤)] : (وههنا نُكر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله)[(٥)].

وقد يجمع الفخر بين دلالة التعظيم ودلالة التكثير ، فيجعل النكرة تفيدهما معا يقول في تنكير (فاكهة) في قوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾[(٦)] : (التنكير للتكثير أى كثيره ، كما يقال لفلان مال أى عظيم ، وقد ذكرنا وجه دلالة التنكير على التعظيم ، وهو أن القائل كأنه يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به معرفة كل واحد ، فتنكيره إشارة إلى أنه خارج عن أن يعرف كنهه)[(٧)].

---

(١) الكشاف : ٦٠٠/١ .
(٢) روح المعاني : ٩١/٢ .
(٣) ينظر مواهب الفتاح ، لابن يعقوب المغربي : ٣٤٨/١ (ضمن شروح التلخيص) .
(٤) سورة الهمزة : ١ .
(٥) التفسير : ٩١/٣٢ م ١٦ .
(٦) سورة الرحمن : ١١ .
(٧) التفسير : ٩٣/٢٩-٩٤ م ١٥ .

وقد جمع السكاكي بعده بين هذين المعنيين في دلالة النكرة الواحدة فتنكير * رُسُل * في قوله تعالى : * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * (١) يفيد التعظيم والتكثير يقول : (المعنى رسل أى رسل ذوو عدد كثير ، وأولو آيات ونذر ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك) (٢).

ويفرق التفتازاني بين التعظيم والتكثير : (فالتعظيم بحسب ارتفاع الشأن وعلو الطبقة ، والتكثير بحسب اعتبار الكمية تحقيقاً أو تقديراً كما في المعدودات والموزونات والمشبهات بهما) (٣).

ويفيد التنكير معنى الكمال ، أى أن المعنى بلغ الغاية حتى وصل إلى درجة الكمال ، وقد ذكر الفخر كثيراً من الآيات في هذا المعنى اذكر بعضاً منها .

(فالعذاب) ينكر للدلالة على كماله وشدته ، يقول في قوله تعالى : * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً * (٤) : (التنكير في قوله : * وَعَذَاباً * يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل) (٥).

وينكر * عَبْداً * للدلالة على كماله في العبودية ، يقول في قوله تعالى : * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى * (٦) : (إنَّ التنكير في * عَبْداً * يدل على كونه كاملاً في العبودية ، كأنه قال : إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه ، ووصف إخلاصه في العبودية) (٧).

---

(١) سورة فاطر : ٤.

(٢) المفتاح : ٨٤.

(٣) المطول : ٨٩.

(٤) سورة المزمل : ١٢-١٣.

(٥) التفسير : ٣٠ / ١٨١ م ١٥.

(٦) سورة العلق : ٩-١٠.

(٧) التفسير : ٣٢ / ٢٠-٢١ م ١٦.

وينكر (المقام المحمود) للدلالة على كماله في الرفعة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾[١] : (والتنكير في قوله : ﴿ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ يدل على أنه يحصل للنبي عليه السلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل)[٢].

ويأتي التنكير للكمال والتمام كذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[٣] : (إن قوله ﴿ صَبْراً ﴾ مذكور بصيغة التنكير ، وذلك يدل على الكمال والتمام ، أى صبراً كاملاً تاماً كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾[٤] أى حياة كاملة تامة)[٥].

ويرى الزمخشرى أن معنى تنكير صبراً : (أى هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا)[٦].

وأما تنكير حياة فيعني بها[٧] : (حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة) وهذه الآية من الشواهد البلاغية عند عبد القاهر[٨] وغيره من البلاغيين والزمخشرى أخذ منه هذا المعنى الذى ذكره ، ثم شاع في كتب المفسرين والبلاغيين .

لكن الفخر يجمع بينها وبين آية : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ في دلالتهما على معنى الكمال .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٢) التفسير : ٢١/٣٢ م١١ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١٢٦ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٩٦ .

(٥) التفسير : ١٤/٢١٨ م٧ .

(٦) الكشاف : ١/١٠٤ .

(٧) الكشاف : ٢/٢٩٨ .

(٨) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٨٨ .

وإذا عدنا إلى فقه المعنى نجد توافقاً وتقارباً بين ما قاله الفخر وما قاله الزمخشري في تنكير (صبراً) ، فالصبر التام الكامل هو صبر واسع . وهذا الاختلاف في المعاني عند البلاغيين لا يعني خطأ أحد منهم ،لأن كل عالم يفهم من النص ما لا يفهمه غيره ،وعلى كل حال فللرازي شخصيته المتميزة التي من خصائصها الفهم الواعي المتذوق .

كذلك تفيد النكرة التعظيم في آيات كثيرة ، ذكرها الفخر في تفسيره فتنكير (الروح) تدل على عظمتها ومنزلتها العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾(١) يقول : (أدخل التنكير في لفظ روح وذلك يفيد التعظيم ،فكأن المعنى روح من الأرواح الشريفة أو القدسية العالية)(٢) .

وتنكر (الآية) التي تأتي من الله لعظمتها ،يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾(٣) : (والتنكير في الآية للتعظيم ،أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا)(٤) .

ويتكرر هذا في مواضع كثيرة ،فالتنكير في (صَرْصَر) يفيد التعظيم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾(٥) وكذلك تنكير الأعناب في قوله تعالى : ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ﴾(٦) وغيره كثير .

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٧١ .

(٢) التفسير : ١١٨/١١ م٦ .

(٣) سورة القمر : ٢ .

(٤) التفسير : ٣١/٢٩ م١٥ .

(٥) سورة القمر : ١٩ .التفسير : ٤٧/٢٩ م١٥ .

(٦) سورة النبأ : ٣٢ . التفسير : ٢١/٣١ م١٦ .

وتأتي النكرة لتفيد معنى التكثير كما في قوله تعالى : * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * (١) يقول : (أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة ، والتنكير للتكثير). (٢)

وكما تأتي النكرة للتكثير تأتي كذلك للتقليل .

يقول في قوله تعالى : * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ * (٣) : (أشهر جمع تقليل على سبيل التنكير، فلا يتناول الكل وإنما أكثره إلى عشرة ، وأدناه ثلاثة، وعند التنكير ينصرف إلى الأدنى ، فثبت أن المراد أن أشهر الحج ثلاثة). (٤)
فالتقليل يفهم من النكرة ومن جمع القلة معاً .

ويأتي التنكير ليفيد التحقير وقلة الشأن في قوله تعالى : * فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * (٥) يقول : (نكروه حيث قالوا : * أبشراً * ولم يقولوا : أنتبع صالحاً ، أو الرجل المدعى النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير). (٦)

وقد يرى الفخر أن النكرة في الآية تحتمل أكثر من وجه ، وأحياناً كان يرجح وجهاً على وجه ، من ذلك أن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير تارة أخرى ، وفي هذا تظهر قدرته على تقليب معاني النص القرآني الواحد .

---

(١) سورة يس : ٣٠ .
(٢) التفسير : ٦٢/٢٦ م١٣ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٩٧ .
(٤) التفسير : ١٧٤/٥ م٣ .
(٥) سورة القمر : ٢٤ .
(٦) التفسير : ٥٠/٢٩ م١٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالعَصْرِ إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[(١)] :

(إنما قال ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ولم يقل : لفي الخسر ،لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير تارة أخرى ،فإن حملنا على الأول كان المعنى أن الإنسان لفي خسر عظيم ،لا يعلم كنهه إلا الله ،وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب ،أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة ... وإن حملنا على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان)[(٢)].

وقد تحتمل النكرة التحقير والتفخيم يقول في قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾[(٣)] : (لم قال : ﴿ طَيْرًا ﴾ على التنكير ؟ والجواب : أما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيراً وأى طير ترمى بحجارة صغيرة)[(٤)].

ومثله في إفادة التحقير والتعظيم قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾[(٥)] : (قوله : ﴿ مَالاً ﴾ التنكير فيه يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يقال المال اسم لكل ما في الدنيا كما قال : ﴿ المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا ﴾ فمال الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير ،فكيف يليق به أن يفتخر بذلك القليل .

والثاني : أن يكون المراد منه التعظيم أى مال بلغ في الخبث والفساد أقصى الغايات ،فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به ؟)[(٦)].

---

(١) سورة العصر : ١-٢.

(٢) التفسير : ٨٧/٣٢ م١٦.

(٣) سورة الفيل : ٣.

(٤) التفسير : ٩٩/٣٢ م١٦.

(٥) سورة الهمزة : ٢.

(٦) التفسير : ٩٢/٣٢-٩٣ م١٦.

وقد تنكر (النفس) للاختصاص أو للتكثير في قوله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (١) يقول : (فإن قيل لم نكرت نفس ؟ قلنا فيه وجهان :

أحدهما : أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس وهي النفس القدسية النبوية...

الثاني : أن يريد كل نفس ، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور في قوله : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾. (٢)

وفي كلام الفخر تناقض حيث قال : (يريد كل نفس) ، ثم قال : (المراد من التنكير التكثير) لأن (كل) تفيد العموم لا التكثير فقط ، ونفس في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ تفيد العموم لا التكثير أيضاً .

وأرى أن التنكير في : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ تعظيم وتفخيم لجنس النفس التي خلقها الله ، وهذا يناسب الأوصاف التي بعدها .

وقد شاعت هذه المعاني التي تفيد النكرة في كل تفسيره كما شاعت في كتب متأخري علماء البلاغة .

على أن له نظرات أخرى تنبئ عن قدرته المتفردة على استنباط المعاني الخفية في النكرة . فقد تذكر النكرة مرتين في آية واحدة ، فتخفي وراءها سراً لا يظهر .

---

(١) سورة الشمس : ٧ .

(٢) سورة التكوير : ١٤ . التفسير : ١٩٣/٣١ م١٦ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (١) : (فإن قيل : لم نكر القتال في قوله تعالى : ﴿ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول ، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾.
قلنا : نعم ما ذكرتم أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول ، والقوم أرادوا بقولهم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ ذلك القتال المعين الذى أقدم عليه عبد الله بن جحش فقال تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيراً ليس هو هذا القتال الذى سألتم عنه ، بل هو قتال آخر ، لأن هذا القتال كان الفرض به نصرة الإسلام ، وإذلال الكفر ، فكيف يكون هذا من الكبائر ، واختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة ، إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام لئلا تضيق قلوبهم ، بل أبهم الكلام بحيث يكون ظاهره كالموهم لما أرادوه ، وباطنه يكون موافقاً للحق ، وهذا إنما حصل بأن ذكر هذين اللفظين على سبيل التنكير ، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة) (٢).

فالنكرة الأولى يقصد بها القتال الذى عزّ به الاسلام ، والنكرة الثانية قصد بها القتال الذى يكون كبيراً وفيه معصية لله ، فبالتنكير تميزت الأولى عن الثانية .

وقول الفخر : (واختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة ، إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام لئلا تضيق قلوبهم) بيان لقيمة النكرة في أداء المعنى .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٧.

(٢) التفسير : ٦/٣٢-٣٣ م٣.

وقد نظّر لها بقوله تعالى : * ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ * لأن اليسر الثاني غير الأول ، باتفاق أكثر العلماء كالفراء والزجاج وقبلهما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لن يغلب عسر يسرين " وقول ابن عباس [١] رضي الله عنه .

وقد ذكر ابن السبكي أن قتال الثانية هي الأولى : (إلا أن يقال أحدهما محكي من كلام السائل ، والثاني محكي من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما الكلام في وقوعهما من متكلم واحد) [٢] والمناسب لمعنى الآية ما رآه الفخر .

وتأتي النكرة مفردة ويُراد بها الجمع اختصاراً للمعنى واشتهاراً له يقول في قوله تعالى : * ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ * [٣] : (فإن قيل : كيف قال : * فَعِدَّةٌ * على التنكير ، ولم يقل فعدتها أي فعدة الأيام المعدودات ؟ قلنا : لأنا بينا أن العدة بمعنى المعدود ، فأمر بأن يصوم أياماً معدودة مكانها ، والظاهر أنه لا يأتي إلا بمثل ذلك العدد فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة) [٤] .

ويبين الفخر قيمة النكرة في الكلام في موضع آخر ، وأن لها أثراً في تغيير مفهوم الآية فليس هناك ما يؤدي معناها ، وفي هذا التنكير أداء للمعنى ولد قائقه .

---

(١) ينظر التفسير : ٦/٣٢ م١٦ .

(٢) شروح التلخيص (عروس الأفراح) : ٣٥٧/١ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٨٤ .

(٤) التفسير : ٨٢/٥ م٣ .

فتنكير (الشيء) في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾[١] يدل على أن العفو عن الجزء كالعفو عن كله في سقوط الدم يقول : (إنّ تنكير الشيء يفيد فائدة عظيمة ، لأنه يجوز أن يتوهم أن العفو لا يؤثر في سقوط القود إلا أن يكون عفواً عن جميعه ، فبين تعالى أن العفو عن جزئه كالعفو عن كله في سقوط القود ، وعفو بعض الأولياء من حقه كعفو جميعهم عن حقهم ، فلو عرف الشيء كان لا يفهم منه ذلك ، فلما نكّره صار هذا المعنى مفهوماً منه)[٢].

وهكذا حرص الفخر على بيان قيمة النكرة في أداء المعنى ، والمعاني التي أفادتها في سياقها .

ويخالف المرحوم أحمد أحمد بدوي هذا الكلام ، فقد ذكر أن ما يذكره علماء البلاغة من معانٍ للتنكير ، لم تفهم من طبيعة النكرة بل من السياق ، يقول : (... ما يذكره علماء البلاغة من معانٍ استيفدت من النكرة ، فإنها لم تفدها بطبيعتها ، وإنما استفادتها من المقام الذى وردت فيه ، فكأنما المقام هو الذى يصف النكرة ، ويحدد معناها)[٣].

أقول : صحيح أن المقام أو السياق هو الذى يبرز معنى النكرة ويكشفه ، لكن دون إلغاء لخصوصية النكرة ، لأنّ ذلك يعني إهمال الخصوصيات البلاغية في سائر أبواب البلاغة ، فيكون التعريف كالتنكير ، والذكر كالحذف والتقديم كالتأخير .

ويذكر المرحوم أحمد بدوي أدلة تؤيد قوله فيقول في قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٨ .

(٢) التفسير : ٥/٥٨ م٣ .

(٣) من بلاغة القرآن : ١٢٨ .

* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله * [١] : (فكلمة * حرب * منكره لا تدل على أكثر من حقيقتها ، وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحـــرب فمنشوء ه وصفها بأنها من الله ورسوله ، وأنَّ حرباً يثيرها الله جديرة أن تبعث في النفس أشد ألوان الفزع والرعب) [٢].

وقد كان علماء البلاغة يعرفون خصوصيات النكرة بمقارنتها بغيرها من أحوال اللفظ الأخرى كالتعريف ، ثم يتبينون ما يفقده السياق حيـن تلغى هذه الخصوصية ، ثم ما يحمله من معاني أن اعتبر في الكلام .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٧٩ .

(٢) من بلاغة القرآن : ١٢٩ .

التعريف والتنكير :

للفخر الرازي نظرات دقيقة ، يقارن فيها بين التعريف والتنكير في آية واحدة أو في آيتين متشابهتين ، فيبين سبب مجيء التعريف والتنكير ، وما وراء كل كلمة من معنى ، له أثر في السياق الوارد فيه ، ويشع ذلك في كل تفسيره. من ذلك أنه يبين سبب تنكير الأناث وتعريف الذكور في قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (١) : (إنه ذكر الإناث على سبيل التنكير ... وذكر الذكور بلفظ التعريف ... فما السبب في هذا الفرق ؟ فجوابه : أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى) (٢).

فترك التعريف عن (إناث) في الآية تنبيه على تأخير مكانتها .

ويذكر الزمخشري أن الذكور عرفوا لشهرتهم والتنويه بهم (٣).

ويذكر النيسابوري أن التعريف جاء لاستدراك تأخيرهم في الآية ، وفيه رعاية للفاصلة وتنويه وتشهير بهم ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام (٤). وفرق بين الشهرة عند الزمخشري والأفضلية عند الفخر ، لأن الشهرة لا تلزم وجود فاضل ومفضول .

وتأتي الكلمة الواحدة منكرة مرة ، ومعرفة أخرى في آية واحدة ، فيكشف الفخر عن أكثر من سر لهما ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٥) : (وفي تعريف الخلق الأول وتنكير

---

(١) سورة الشورى : من الآية ٤٩ .

(٢) التفسير : ٢٧/١٨٥ - ١٨٦ م ١٤ .

(٣) ينظر الكشاف : ٣/٤٧٥ .

(٤) ينظر غرائب القرآن : ٢٥/٣٧ .

(٥) سورة ق : ١٥ .

خلق جديد وجهان :

أحدهما : ما عليه الأمران ؛لأن الأول عرفه كل واحد ،وعلم لنفسه ، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ،ولم يعرفه كل واحد ؛ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد .

الوجه الثاني : أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه ، كأنهم قالوا : أيكون لنا خلق ما على وجه الإنكار له بالكلية) (١) .

وتنكر الكلمة بين معارف في آيات متتالية لشهرتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ (٢) .
يقول : (ما الحكمة في تنكير الكتاب ،وتعريف باقي الأشياء ؟ نقول : ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام ،فيقال : رأيت الأمير ، دخلت على الوزير ، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته ،ويريد الواصف وصفه بالعظمة يقول : اليوم رأيت أميراً ما له نظير جالساً وعليه سيما الملوك ،وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم ،والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته ،فيكون كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ فاللام وان كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف فكذلك ههنا ،والطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن من اللبس عند التنكير ،وكذلك البيت المعمور ، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ الكتاب إلا ذلك ، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة

---

(١) التفسير : ٢٨/ ١٦٢ م١٤ .

(٢) سورة الطور : ١-٥ .

التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصداً للفائدة الأخرى وهي في تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها).(١)

والنص على طوله يحمل فائدة جديدة ذكرها الفخر وهي أن التعريف قد يفيد ما يفيده التنكير ، والتنكير يفيد ما يفيده التعرف، وذلك إن أمن اللبس، فينكر المعلوم لشهرته ، ويعرف المنكر لعظمته ، فلما كان الكتاب لا يخفى حسن تنكيره.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن تنكير كتاب لاختصاصه من بين جنس الكتب(٢) وما ذهب اليه الفخر أنسب لسياق الكلام.

ويفرق بين (الريح) منكرة و معرفة في آيتي ذكر عذاب قوم عاد في سورتين مختلفتين .

يقول : (قال تعالى ههنا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾(٣) وقال في الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾(٤) فعرف الريح هناك ونكرها هاهنا ، لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذى يضر النبات ، أو الشدة التي تعصف الأشجار ، لأن الريح العقيم التي لا تنشىء سحاباً ولا تلقح شجراً وهي كثيرة الوقوع ، وأما الريح المهلكة فقلما توجد ، فقال الريح العقيم أى من الجنس المعروف).(٥)

وأرى أن هذه المعاني للتنكير والتعريف تكمن في النكرة والسياق هو الذى أخرجها وكشف عنها .

---

(١) التفسير : ٢٤٠/٢٨ م١٤ .

(٢) ينظر غرائب القرآن ، للنيسابورى : ١٨/٢٧ .

(٣) سورة القمر : ١٩ .

(٤) ذكر أن الآية في الطور والصحيح ما أثبته - الذاريات : ٤١ .

(٥) التفسير : ٤٦/٢٩ م١٥ .

كذلك بيّن الفرق بين تعريف (البلد) وتنكيرها في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ (٢) وأرجع ذلك إلى وجهين :

الأول : أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً ، كأنه قال : اجعل هذا الوادى بلداً آمنا ... والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً ، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذى صيرته بلداً ذا أمن وسلامة ...

الثاني : أن تكون الدعوتان وقعتا بعدما صار المكان بلداً فقوله : ﴿ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ تقديره : اجعل هذا البلد بلداً آمناً كقولك : كان اليوم يوماً حاراً ، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة ؛ لأن التنكير يدل على المبالغة ... أما قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة) (٣).

وقد وجدت الخطيب الإسكافي يذكر هذا الوجه للتعريف والتنكير ، وهو -كما نعرف- سابق للفخر (٤).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم : من الآية ٣٥ .

(٣) التفسير : ٤/٦٠ م٢ .

(٤) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : ٢٩ - ٣٠ .

أدوات الربط

حروف الجر :

لم يدرج البلاغيون الحديث عن معاني حروف الجر ضمن الحديث عن متعلقات الفعل، ولم يهتموا بمعانيها الأدبية،وهذا البحث يتناول أسرار مجيء حروف الجر في الكلام وما يؤديه من معنى ، وقد اهتم المفسرون بهذه الحروف، والتفتوا إلى معانيها الأدبية.

وللفخر الرازي نظرات أدبية في هذه الحروف ،تنبيء عن ذوقه الأدبي في معرفة الفروق بين الأساليب .

(اللام) :

تأتي اللام لعود المنافع ،و (على) لعود المضار ، فأقول هذا لي وهذا عليّ .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (١) : (المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة . . . والظاهر أنه لبيان الخيرات ،يدل على اللام في قوله تعالى : ﴿ للإنسان ﴾ فإن (اللام)لعود المنافع ، و(على) لعود المضار ، نقول هذا له وهذا عليه ،ويشهد له ويشهد عليه في المنافع والمضار) . (٢)

وقد ذكر الزمخشري من قبل هذا القاعدة في دلالة(اللام)ودلالة(على)حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ . . . وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ (٣) :

---

(١) سورة النجم : ٣٩ .
(٢) التفسير : ١٦/٢٩ م١٥ .
(٣) سورة هود : من الآية ٤٠ .

(جيء بـ"على" مع سبق الضار كما جيء بـ"اللام" مع سبق النافع) .

وقد أحسن الفخر في تطبيقها على آيات أخر من القرآن الكريم ، فهو لم يكن ناقلاً لما يقوله الزمخشري ، بل كان متمثلاً لكل ما يقوله .

ويستشف الفخر معنى أدبياً لـ(اللام) وآخر لـ(مع) ، حين يضاف أحدهما لـ(سليمان) والآخر لـ(داود) عليهما السلام .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) : (فإن قيل قال في داود : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ ﴾ وقال في حق سليمان : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ فذكره في حق داود عليه السلام بكلمة "مع" وفي حق سليمان عليه السلام بـ"اللام" وراعى هذا الترتيب أيضاً في قوله : ﴿ يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تجري بِأَمْرِهِ ﴾ (٣) فما الفائدة في تخصيص داود عليه السلام بلفظ "مع" وسليمان بـ"اللام" ؟ قلنا : يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف ، فما أضيف إليه بـ"لام" التمليك ، أما الريح فلم يصدر عنه إلا ما يجري مجرى الخدمة فلا جرم أضيف إلى سليمان بـ"لام" التمليك وهذا اقناعي) (٤) .

(على) :

ذكر الفخر أن (على) تدل على الاستعلاء والتمكن ، وقد طبق هذا على آيات كثيرة في تفسيره .

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٧٩ .
(٢) سورة سبأ : من الآية ١٠ .
(٣) سورة ص : من الآية ٣٦ .
(٤) التفسير : ٢١٠/٢٢ م١١ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) : (إنه تعالى ذكر كلمة " على " حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم، فيفيد أن كونهم أذلة ليس لأجل كونهم ذليلين في أنفسهم ،بل ذاك التذلل إنما كان لأجل أنهم أرادوا أن يضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع) (٢).

ويضيف الزمخشري معنى آخراً لهذا المعنى وهو أن في "على" معنى الحنو والعطف (٣).

ويرد الفخر على الواحدي حين جعل حرف الجر "على" صلة لا معنى له في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ (٤)، يقول : (قال الواحدي: ويشبه أن يكون " على " ههنا صلة ،والمعنى : وليربط قلوبكم بالنصر ،وما وقع في تفسيره يشبه أن لا يكون صلة ،لأن كلمة " على " تفيد الاستعلاء ، فالمعنى : أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها ،وارتفع فوقها) (٥).

وأراه في موضع آخر يجعل الحرف " على " جارياً على طريقة الاستعارة يقول في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦) : (معنى الاستعلاء في قوله ﴿ عَلَى هُدًى ﴾ بيان لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه حيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ،ونظيره : (فلان على الحق أو على الباطل) (٧) وهو هنا متبع للزمخشري أيضاً ،لأنه من أوائل من أبرزوا في دراستهم هذه الأسرار (٨).

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٥٤ .
(٢) التفسير : ١٢/٢٦ م٦ .
(٣) ينظر الكشاف : ١/٦٢٣ .
(٤) سورة الأنفال : من الآية ١١ .
(٥) التفسير : ١٥/١٣٨-١٣٩ م٨ .
(٦) سورة البقرة : ٥ .
(٧) التفسير : ٢/٣٧ م ١ .
(٨) ينظر الكشاف : ١/١٤٢-١٤٣ ،البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٥٠٠ .

وقد ظهر هذا الاتجاه بعد الزمخشري والرازي عند بعض البلاغيين ، واعتبروا معنى حرف الجر قائماً على طريق الاستعارة .

يقول العلامة سعد الدين التفتازاني في هذه الآية : (استعارة تمثيلية فشبه حال المهتدي في ثباته على الحق بهيئة الكائن على جواد متمكن منه و مستعلٍ عليه ،واستعيرت الهيئة الأولى للثانية)[١] فاكتفى بكلمة " على "،لأنها لقوة دلالتها استطاعت أن تشير إشارة واضحة إلى باقي الصورة وهذا الكلام ذكره دكتورنا الفاضل محمد أبوموسى عن محاورة بين سعد الدين والسيد الشريف نقلاً عن مخطوطه ضمن مجاميع دار الكتب .

(فـي) :

كذلك لهذا الحرف معنى لا يؤديه أي حرف آخر ، وقد تناول الفخر معناه في آيات عدة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾[٢] : (وإنما قال " فِيهَا " ولم يقل " منها " لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم ،بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكاناً لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال)[٣] .

وتأتي " في " في مقام الحديث عن إحاطته سبحانه وتعالى بكل شيء ،لكن الفخر يصرفها إلى معنى آخر يبعد عن الآية ،وذلك في قوله تعالى :

---

(١) التصوير البياني : ٢٣٦ .
(٢) سورة النساء : من الآية ٥ .
(٣) التفسير : ١٩٣/٩ م٥ .

* يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا * (١)

يقول : (قال : * وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا * ولم يقل إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ، ومرتبة النفوس الزكية ، وهذا لأن كلمة " إلى " للغاية ، فلو قال : (وما يعرج إليها) لفهم الوقوف عند السموات فقال : * وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا * ليفهم نفوذها وصعودها فيها) (٢) ، والفخر هنا يستلهم مذهب الصوفية في ذوقهم الأدبي وطريقتهم في فهم النص الأدبي ، مما لا يفهمه العامة ، وهذا يبعد المعنى عما تقتضيه اللغة .

وأحيانًا كان الفخر يسوّى بين (فى) و (اللام) فى المعنى ، ثم يستدرك ويبين الفرق فيرى أن فى (فى) الإحاطة والظرفية ، و (اللام) لا تحمل ذلك .

يقول في قوله تعالى : * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * (٣) : (حرف " فى " و " اللام " متقاربان ، تقول إنما أنت للعناء والنصب ، وإنما أنت فى العناء والنصب ، وفيه وجه آخر وهو أن قوله : * فِي كَبَدٍ * يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، وفيه إشارة إلى ما ذكرنا أنه ليس في الدنيا إلاّ الكد والمحنه) (٤) .

وفى موضع آخر يقارن بين (اللام) و (فى) حين تأتيان فى آية واحدة ، وما تحمله كل من معنى .

يقول في قوله تعالى : * إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ * (٥)

---

(١) سورة سبأ : ٢ .

(٢) التفسير : ٢٥/٢٤٤ م ١٣ .

(٣) سورة البلد : ٤ .

(٤) التفسير : ٣١ / ١٨٣ م ١٦ .

(٥) سورة التوبة : ٦٠ .

: (إنه تعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة الذين تقدم ذكرهم بلام التمليك . . . ولا بد لهذا الفرق من فائدة ، وتلك الفائدة هي أن تلك الأصناف الأربعة المتقدمة يُدفع إليهم نصيبهم من الصدقات حتى يتصرفوا فيها كما شاءوا ، وأما ﴿ فِي الرِّقَابِ ﴾ فيوضع نصيبهم في تخليص رقبتهم من الرق ، ولا يدفع اليهم . . . وكذلك القول في الغارمين يصرف المال في قضاء ديونهم ، وفي الغزاة يصرف المال إلى إعداد ما يحتاجون إليه في الغزو وابن السبيل كذلك) .(١)

والدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه (من أسرار التعبير في القرآن) ينسب هذا القول لابن المنير في حاشيته على الكشاف ، والأصل أنها للفخر الرازي نقلها منه ابن المنير.(٢)

(البـاء) :

(زوّج) من الأفعال التى تتعدى إلى مفعولين ، لكنه ورد في القرآن الكريم متعدياً بحرف الباء ، ويبين الفخر سبب ذلك .

يقول في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾(٣) : (قال : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ولم يقل (وزوجناهم حوراً) مع أن لفظ التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف ، يقال : زوجتكها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾(٤) وذلك إشارة إلى أن المنفعة

---

(١) التفسير : ١٦/١١٥ م٨ .

(٢) ص : ٩٩ .

(٣) سورة الطور : ٢٠ .

(٤) سورة الأحزاب : من الآية ٣٧ .

في التزويج لهم ، وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم ، وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به ، كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور ، لأن ذلك بمعنى جعلنا أزواجهم بهذا الطريق وهو الحور) .[1]

وتفيد الباء معنى لا تفيده (في) إنْ دخلتا على الظرف الزماني أو المكاني ، لأن الباء تدل على احتواش الزمان بالفعل .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2] : (أي استغفاراً متصلاً بالأسحار مقترناً بها ، لأن الكائن فيها مقترن بها ، فإن قيل : فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت ؟ نقول : نعم وذلك لأن من قال : قمت بالليل ، واستغفرت بالأسحار أخبر عن الأمرين ، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله : (قمت في الليل) ، لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل . . . فقوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتاً عن العبادة ، فإنهم بالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب . .) .[3]

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٤٩ م١٤ .

(٢) سورة الذاريات : ١٨ .

(٣) التفسير : ٢٨/٢٠٤ م١٤ .

أدوات الشـــرط

(إنْ - إذا): يتفق الفخر مع غيره في أن (إنْ) تأتي في الشرط الذى لا يكون مقطوعاً بوقوعه ، و(إذا) في الشرط المقطوع بوقوعه ، إلا أنه يسمى خروج كل منهما عن هذا الأصل مجازاً .

من ذلك أنه لما كان وقوع أهوال يوم القيامة من الأمور المتوقعـــة المقطوع بها فقد عبر عنها القرآن ب (إذا) .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (١) :

(قالوا كلمة " إنْ " فى المجوز ، و" إذا " فى المقطوع به ، نقول إنْ دخلتِ الدار فأنتِ طالق ، لأن الدخول يجوز ، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعاً لا تقول " إنْ " بل تقول " إذا " نحو : إذا جاء غـد فأنت طالق ، لأنه يوجد لا محالة ، هذا هو الأصل فإنْ اشتمل على خلافه فمجاز ، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾) (٢) .

فأكثر ما تستخدم (إذا) في الشرط المقطوع به ، و (إنْ) فـى المشكوك فيه ، لكنهما يتبادلان كثيراً في القرآن الكريم وفى الشعر العربي ، ولم ينوه أحد من البلاغيين ، بأن هذا التبادل من المجاز ، إنما قالـــوا إنه خروج عن معناه الأصلى (٣) ، وقول الفخر هنا بأنه مجاز فيه نوع من المبالغة فاستخدام المعنى في غيره لا يعد مجازاً فى كل الأحوال .

وقد اهتم الفخر بهما حين يخرجان عن معناها الأصلى ، فقد تأتى (إنْ) للإشارة إلى أن الفعل ينبغي ألَّا يحصل إلَّا نادراً .

كقوله في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (٤) : (قوله تعالى ﴿ وإنْ ﴾ إشارة إلى ندرة وقوع القتـال بين طوائف المسلمين ، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهـم ،

---

(١) سورة الزلزلة : ١ .

(٢) التفسير : ٣٢ / ٥٧ م١٦ .

(٣) ينظر شروح التلخيص : ١ / ٤٣ - ٤٤ .

(٤) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

نقول في قوله تعالى : * وإنْ * إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلاّ نادراً) .[1]

وجاءت " إنْ " كذلك في قوله تعالى : * فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ *[2] بدلاً من إذا مع أن البغي متوقع بين الفئتين وذلك إشارة إلى ندرة البغي بعد وضـــوح الأمر واستبانته يقول : (ثم قال تعالى : * فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا * إشارة إلى نادرة أخرى وهي البغي ، لأنه غير متوقع ، فإن قيل : كيف يصح فـي هذا الموضع كلمة " إنْ " مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقـــع وقوعه ، وبغي إحداهما عند الاقتتال لا بد منه إذ كل واحد منهما لا يكون محسناً ، فقوله " وإنْ " تكون من قبيل قول القائل " إنْ طلعت الشمس " ، نقول فيه معنى لطيف ، وهو أن الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتيـن لا يكون إلاّ نادر الوقوع ، وهو كما تظن كل طائفة أن الأخرى فيها الكفـــر والفساد ، فالقتال واجب كما سبق في الليالي المظلمة ، أو يقع لكل واحـــد أن القتال جائز بالاجتهاد ، وهو خطأ ، فقال تعالى : الاقتتال لا يقع إلاّ كذا ، فإنْ بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر ، وعند ذلـــك يكون قد بغى فقال : * فإنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى * يعني بعـــد استبانة الأمر ، وحينئذ فقوله : * فإنْ بَغَتْ * في غاية الحسن ، لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع) .[3]

وتستمر الآية في التعبير (بإنْ) في مواقع (إذا) ، فقد تفـــيء الطائفة الباغية إلى أمر الله بعد قتالها ، ولما كان ذلك لا يكون إلاّ جبراً فقد عبر عنها (بإنْ) للدلالة على ذلك .

---

(١) التفسير : ١٢٨/٢٨ م١٤ .

(٢) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

(٣) التفسير : ١٢٨/٢٨ م١٤ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) : (... لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الأخذ بينهم فقال تعالى : ﴿ فإِنْ فَاءَتْ ﴾ لقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ،وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم إلّا جبراً) . (٢)

ويعترض الفخر على الزمخشرى حين يقول إنَّ (إذا) لا بد أن تكون (إنْ) فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) حيث يقول الزمخشرى : (وحقه أن يجيء بـ (إنْ) لا بـ (إِذَا) كقوله : ﴿ وإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ (٤).

ويرد الفخر عليه قائلا : (واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن وهوضعيف ،لأن كل واحد من (إنْ) و (إِذَا) حرف الشرط ، إلّا أن حرف (إنْ) لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ،فلا يقال : إنْ طلعت الشمس أكرمتك ، أما حرف (إِذَا) فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع ،تقول : آتيك إذا طلعت الشمس ، فهاهنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة ، لا جرم حسن استعمال (إذا) . (٦) وهكذا نجد أن الفخر قد اهتم بـ(إنْ) و (إذا) إذا خرجتا عن معنييهما الأصليين .

---

(١) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

(٢) التفسير : ٢٨/١٢٨ م١٤ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٨ .

(٤) سورة محمد : من الآية ٣٨ .

(٥) الكشاف : ٢/٢٠١ .

(٦) التفسير : ٣٠/٢٦١ م١٥ .

صيغ العمـــــــوم

(كـــل) :

يذكر الفخر أن (كل) حين تقع في حيز النفي وتتقدم عليه وترفع فإنها تفيد أن النفي شامل لجميع الأفراد ، وإذا نُصبت (كل) أفادت أن النفي يعم أكثر الأفراد وهو ما يسمى (نفي العموم) .

ثم طبق هذه القاعدة على (كل) في حالة الإثبات ، ورأى موافقة بعض آيات القرآن لهذه القاعدة .

وينقل الفخر دلالة (كل) في النفي من عبد القاهر بعد أن يذكر اختلاف قراءة (كل) في قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١) بالنصب والرفع يقول : (القراءة المشهورة "كلاً" بالنصب ، لأنه بمنزلة " زيداً وعدت خيراً " فهو مفعول وعد ، وقرأ ابن عامر : وكل بالرفع ، وحجته أن الفعل إذا تأخر عن مفعوله لم يقع عمله فيه ، والدليل عليه أنهم قالوا : زيد ضربت ، وكقوله في الشعر :

قَدْ أَصْبَحَتْ أمُ الخِيَارِ تَدَّعِي   عليَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ (٢)

روى كله بالرفع لتأخر الفعل عنه لموجب آخر . واعلم أن للشيخ عبد القاهر في هذا الباب كلاماً حسناً ، قال : إنَّ المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع ، وذلك لأنَّ النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب ، وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب ، فإنه إذا قال : ما فعلت كل الذنوب ، أفاد أنه ما فعل الكل ، ويبقى احتمال أنه فعل البعض ، بل عند من يقول بأن دليل

---

(١) سورة الحديد : ١٠ .

(٢) البيت لأبي النجم العجلي ، وهو من شواهد سيبويه في كتابه في مواضع عدة : ١/٨٥ - ١٢٧ - ١٣٧ .

الخطاب حجة يكون ذلك اعترافاً بأنه فعل بعض الذنوب .

أما رواية الرفع ، وهي قوله : كلُه لم أصنع فمعناه أن كل واحد واحد من الذنوب محكوم عليه بأنه غير مصنوع ، فيكون معناه أنه ما أتى بشيء من الذنوب البتة ، وغرض الشاعر أن يدعى البراءة عن جميع الذنوب ، فعلمنا أن المعنى يتفاوت بالرفع والنصب) [١] .

وعبد القاهر ذكر هذا الكلام في دلائل الاعجاز [٢] ، وتحدث عنها الفخر بطريقة أصولية فهو يذكر دليل الخطاب [٣] ، وهو مصطلح شائع عند الأصوليين . ثم يطبق الفخر كلام عبد القاهر في هذه القاعدة على (كل) في حالة الإثبات وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [٤] فيرى أن معناها يختلف باختلاف الإعراب .

فيقول : (ومما يتفاوت فيه المعنى بسبب تفاوت الإعراب في هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فمن قرأ " كُلَّ شَيْءٍ " بالنصب أفاد أنه تعالى خلق الكل بقدر ، ومن قرأ " كُلُّ " بالرفع لم يفد أنه تعالى خلق الكل ، بل يفيد أن كل ما كان مخلوقاً له فهو إنما خلقه بقدر) [٥] .

---

(١) التفسير : ٢٩ / ٢٢١ م ١٥ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٧٨ .

(٣) دليل الخطاب : يعرف بمفهوم المخالفة ، ويعرف بأنه دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه ، مخالف لما دل عليه المنطوق ، لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم - تفسير النصوص في الفقه الاسلامي ، د . محمد أديب الصالح : ١ / ٦٠٩ .
ولمفهوم المخالفة أنواع كثيرة قد تصل إلى عشرة أنواع ، تحدث الفخر عن بعضها في كتابه المحصول : ١ / ٢٠٥-٢٥٠ القسم الثاني .

(٤) سورة القمر : ٤٩ .

(٥) التفسير : ٢٩ / ٢٢١ م ١٥ .

فالمعنى قد اختلف في حالة الرفع عنه في حالة النصب.

ثم يذكر الفخر أن هذه القاعدة غير مطردة في القرآن الكريم ، فربما لا يختلف المعنى باختلاف الرفع والنصب ، كما في الآية الأولى.

يقول : (وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب تفاوت المعنى كقوله : * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ *[1] فإنك سواء قرأت " والقمر " بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد، فكذا في هذه الآية سواء قرأت * وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى * أو قرأت * وَكُلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى * فإنَّ المعنى واحد غير متفاوت .

ويتناول الفخر تقديم حرف السلب على صيغة العموم وتأخيره عنها في نهاية الإيجاز ، ويرى أن ما جزم به الشيخ عبد القاهر لا يكون إلاّ عند من يقول بدليل الخطاب ، فهو غير مطرد في كل دلالة (كل) يقول : (واعلم أن الشيخ الإمام جزم بأن نفي العموم يقتضي خصوص الإثبات فقوله : لم فعله كله يقتضي أن يكون فاعلاً لبعضه ، وليس الأمر كذلك إلاّ عند من يقول بدليل الخطاب ، بل الحق أن نفي العموم كما لا يقتضي عموم النفي لا يقتضي خصوص الإثبات)[2].

ولم يتنبه أكثر البلاغيين بعد الفخر لهذا التعميم في قاعدة عبد القاهر حتى جاء العلامة سعد الدين التفتازاني وذكر أن هذا الحكم أكثري لا كلي فقال : (وقال الشيخ إذا تأملنا وجدنا إدخال كل في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يُراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن ، وفيه نظر ؛ لأنا نجده حيث

---

(١) سورة يس : من الآية ٣٩ .

(٢) نهاية الإيجاز : ٣١٤ .

لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (٢) . ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ (٣) : فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى) (٤) .

فالقاعدة غالبة لا لازمة ،لأن في هذه الآيات تقدم النفي على الكل فنصبت ،ولوطبقنا القاعدة لكان المعنى أن الله لا يكره كل مختال بل البعض ، ولا يحب كل كفّار بل البعض ،ولا يأمرنا بطاعة كل حلّاف بل البعض منهم ، وكل هذه المعاني تنافي المراد من الآيات .

وعلى هذا يعد الفخر - كما أظن - أول من تنبه إلى هذا الخروج على قاعدة عبد القاهر.

*

حروف العطف

(ثم) :

تنبه الفخر في تفسيره إلى معاني عدة لـ (ثم) ، فقد تأتي لاستبعاد حصول مابعدها .

من ذلك استبعاد الإتيان بعمل قبيح بعد توالي النعم كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٥) يقول : (إنما ذكر لفظة " ثم " لأنه تعالى لما وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين ، وأظهر في ذلك درجة موسى عليه السلام ،وفضيلة بني إسرائيل ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علو درجتهم ،وتعريفاً للغائبين ،وتكملة للدين ،كان ذلك من أعظم النعم ،

---

(١) سورة الحديد : من الآية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٧٦ .

(٣) سورة القلم : ١٠ .

(٤) المطول : ١٢٥ .

(٥) سورة البقرة : ٥١ .

فلما أتوا عقيب ذلك بأقبح أنواع الجهل والكفر كان ذلك في محل التعجب فهو كمن يقول : إنني أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا ، ثم إنك تقصدني بالسوء والإيذاء) (١).

وهذا المعنى لـ (ثم) قد ذكره الزمخشري قبله ، والفخر أخذه منه وطبقه على آيات من القرآن ، وهذا يدل على أن الفخر لم يكن آخذاً منه ، ناقلاً عنه ، إنما كان متمثلاً واعياً لنظراته البلاغية - كما قلت سابقاً - وقد يسمى الفخر هذا المعنى التعجب والإنكار من فعلهم يقول في قوله تعالى :
﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ (٢) : (لفظ " ثم " هاهنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك : أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني ، ونظيره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣) ، فمعنى " ثم " ههنا للإنكار والتعجب) (٤).

وهذا المعنى ذكره ابن عطية وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ : (" ثم " دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان ، أعطيتك وأكرمتك وأحسنت اليك ثم تشتمني ، أي بعد مهلة من وقوع هذا كله ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ " ثم " (٥).

---

(١) التفسير : ٧٩/٢ م٢.
(٢) سورة المدثر : ١١-١٥.
(٣) سورة الأنعام : ١.
(٤) التفسير : ١٩٩/٣٠ م١٥.
(٥) المحرر الوجيز : ١٢٢/٥.

ويظهر تشابهاً بين ما قاله الفخر وما قاله ابن عطية.

وقد اعترض أبوحيان على إفادة " ثم " هذه المعاني وقال : إنّ هذه المعاني لا تفهم إلا من السياق ، ولم يقل بها أحد من النحاة [١] ، وأقول إنّ إفادة " ثم " هذه المعاني لا تكون من مفهومها اللغوى المجرد من السياق ، إنما تفيدها وهي في سياق الكلام .

وتأتي " ثم " لترتيب خبر على خبر ، دون مراعاة للترتيب الزمني ، من ذلك أنه يأتي الإخبار عن موسى بعد الإخبار عن المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] يقول : (والتقدير : ثم إني أخبركم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الأحكام أنّا آتينا موسى الكتاب ، فذكرت كلمة " ثم " لتأخير الخبر عن الخبر لا لتأخير الواقعة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [٣] " ثم " الثانية هي التي تفيد ترتيب الخبر على الخبر ؛ لأنّ خلق الأرواح وتصويرها في الأرحام بعد أمر الله تعالى للملائكة .

ومثله ترتيب خبر على خبر قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [٤] يقول : (فإنْ قيل : كيف جاز أن يقول : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه :

---

(١) ينظر البحر المحيط : ٤/٦٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٥٣-١٥٤ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١١ . التفسير : ١٤/٤ م٧ .

(٤) سورة الزمر : من الآية ٦ .

الأول : أن كلمة " ثم " كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل : (بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً : قد أعطيتك اليوم شيئاً ثم الذى أعطيتك أمس أكثر).(١)

فالفخر يخالف الزمخشرى الذى يرى أن " ثم " هنا لبيان البعد بين الأمرين ، فما بعد ثم أعلى مرتبة مما قبلها يقول : (فعطفها بـ " ثم " على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي فى الوجود).(٢)

وأرى أن قول الزمخشرى أكثر إصابة ، ذلك أن الفخر نظر إليهما من منظور يقرب من معناها الحقيقي الموضوع لها في اللغة .

وتأتي " ثم " لبيان عظمة ما هو واقع بعدها ، وهذا المعنى لـ " ثم " قد ذكره الزمخشرى في مواضع مختلفة من التفسير ، والفخر نقلها عنه ، من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ *(٣) : (فإن قيل : ما الفائدة من كلمة " ثم " في قوله : * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ * ؟ قلنا فيه وجهان :

---

(١) التفسير : ٢٤٤/٢٦ م١٣ .
(٢) الكشاف : ٣٨٨/٣ .
(٣) سورة الصافات : ٦٦ - ٦٨ .

الأوّل : أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم ، وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب .

الثاني : أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه فكان المقصود من كلمة " ثم " بيان أن حال المشروب من البشاعة أعظم من حال المأكول).(١)

---

(١) التفسير : ١٤٣/٢٦ م١٣ ، ينظر الكشاف : ٣٤٣/٣ .

حروف النفــــي

(لَنْ - لَا) :

عرض الفخر لحروف النفي من ناحية ما تفيده من معان في مواضع قليلة من التفسير.

فهو يفرق بين (لَنْ) و (لَا) ، فيرى أن (لن) أكثر تأكيداً للنفي من (لا) . يظهر ذلك وهو يفرق بينهما في قوله تعالى :
* قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *.(١)

وقوله تعالى : * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *.(٢)

يقول : (... فلم ذكر ههنا "لَنْ" وفي سورة الجمعة "لَا" ؟ قلنا: إنهم في هذه السورة - أى سورة البقرة - ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وادعوا في سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس والله تعالى أبطل هذين الأمرين، بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنوا الموت، والدعوى الأولى أعظم من الثانية ، إذ السعادة القصوى هى الحصول في دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة ، فلما كانت الدعوى الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد

---

(١) سورة البقرة : ٩٤ - ٩٥ .

(٢) سورة الجمعة : ٦ - ٧ .

قولهم بلفظ (لَنْ) لأنه أقوى الألفاظ النافية ،ولما كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفى فى إبطالها بلفظ (لَا) لأنه ليس في نهاية القوة فى إفادة معنى النفى والله أعلم) (١).

ف (لَنْ) أفادت التوكيد هنا ،لأن هوءلاء الذين ادعوا اختصاصهم بأن لهم الدار الآخرة خالصة لا بد أن يرغبوا في الموت رغبة موءكدة ، ولما لم يحصل ذلك بين تعالى فساد قولهم ب (لَنْ) .

ويذكر الدكتور عبد الفتاح لاشين أن (لَا) أقوى فى دلالة النفى لأنها تدل على دوامه.

ثم علل مجيء (لَا) فى آية الجمعة ، ومجيء (لَنْ) في آية البقرة ،فذكر أن (لَا) جاءت في موضع اقترن به حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم ، فانسحب النفى عن جميع الأزمنة ،وكأنه يقول : (متى زعموا ذلك في وقت من الأوقات ،أو في زمن من الأزمان ، وقيل لهم تمنوا الموت فلا يتمنونه أبداً ، وحرف الشرط (إنْ) دل على هذا المعنى ،وجاء حرف (لَا) في الجواب ، بجانب صيغة العموم ، لاتساع معنى النفي فيها ،وجاءت الآية الثانية ب (لَنْ) التي تنفي ما قرب ،وما قبلها (إن ،وكان) وهما ليستا من صيغ العموم ، ف (كان) لا تدل على حدث ،إنما تدل على مضى الزمان الذى كان فيه الحدث ،فكأن المعنى : (إن كان قد وجبت لكم الدار الآخرة ،وثبتت لكم في علم الله ،فتمنوا الموت الآن ، ثم قال في الجواب :ولن يتمنوه أبداً ،فناسب الجواب الخطاب في كلا الآيتين) (٢).

---

(١) التفسير : ٣/ ٢٠٧ م٢.

(٢) ينظر من أسرار التعبير في القرآن : ١٣٧.

والدكتور عبد الفتاح اعتمد في تفسيره هذا على قول الإمام ابن القيم في أن : (من خواصها " لَنْ " أنها تنفي ما قرب ، ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف " لا ") ، وعلى تفريقه بينهما في الآيتين[1] .

والفخر الرازي في تفسيره للآية أخذ برأى الزمخشري الذي يرى أن (لَنْ) و (لَا) أختان في نفي المستقبل ، إلا أن في (لَنْ) توكيداً وتشديداً[2] ويزيد في الكشاف على معنى (لَنْ) أنها تفيد تأبيد النفي[3] .

وينكر الفخر أن تفيد (لن) التأبيد فيقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾[4] : (إنّ " لَنْ " لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه ، والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال ، فكان قوله : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ نفياً لذلك المطلوب ، فأما أن تفيد النفي الدائم فلا)[5] .

وقول الفخر : (فأما أن تفيد النفي الدائم فلا) رد على قول الزمخشري الذي يقول بتأبيد النفي في هذه الآية ، وهو في هذا يخضع لمذهبه الاعتزالي الذي يرى نفي الرؤية عن الله سبحانه .

وهكذا فإن الفخر رأى بأن (لَنْ) تفيد التأكيد فقط .

وقد نفى ابن هشام إفادة (لن) التأكيد والتأبيد فيقول : (ولا تفيد " لن " تأكيد النفي ، خلافاً للزمخشري ولا تأبيده خلافا له في أنموذجه[6] ، وكلاهما دعوى بلا دليل)[7] .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/٩٥ - ٩٦ .

(٢) ينظر المفصل : ٣٠٧ .

(٣) ينظر الكشاف : ٢/٩٠ .

(٤) سورة الأعراف : من الآية ١٤٣ .

(٥) التفسير : ١٤/٢٤٢-٢٤٣ م٧ .

(٦) كتاب الزمخشري اسمه الانموذج .

(٧) مغني اللبيب : ١/٢٨٤ .

(لَمْ - لَمّا) :

ويفرق الفخر بين (لَمْ) و (لَمّا) وهما أداتا نفي وجزم ؛ لأن (لما) تفيد معنى لا تفيده (لم) في قوله تعالى : * قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ *.(١)

يقول : (إنه تعالى عند فعلهم قال * لَمْ تُؤْمِنُوا * بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم ، وفتور فكرهم ، وعند فعل الإيمان قال * لَمَّا يَدْخُلِ * بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان ، كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها).(٢)

فـ(لَمّا) دلت على توقع إيمانهم فيما بعد لظهوره عليهم . وقد لمح الفخر هنا معنى قوة الإيمان من (لَمّا) ، وهو في كل هذا يطبق ما قاله النحويون في (لَمْ) و (لَمّا) تطبيقاً بلاغياً ، فابن جني يعلل كيف كانت (لَمّا) أشد توكيداً من (لَمْ) تعليلاً منطقياً يقول : (أصل " لَمّا " لم زيدت عليها " ما " فصارت نفياً لقوله قد كان كذا ، و " لَمْ " نفي فعل تقول : قام زيد ، فيقول المجيب بالنفي : " لم يقم " ، فإنْ قال : قد قام ، قلت : " لَمّا يقم " لما زاد في الإثبات " قد " زاد في النفي " ما ").(٣)

---

(١) سورة الحجرات : من الآية ١٤ .

(٢) التفسير : ٢٨/١٤٢م١٤ .

(٣) المحتسب : ٢/٣١٢ .

الفصل الثالث:
بناء الجملة

بنــاء الجملــة

يهدف هذا الفصل إلى دراسة نظرات الفخرفي نظم الجملة من حيث صورها المختلفة المتعلقة بتنظيم مواقعها ،فيشمل التقديم ،وجملة الإنشاء من استفهام وأمر ونهي ،والحذف ،والإيجاز ،وتأكيد الجملة وأنواع المؤكدات ودواعي التوكيد ،وجملة القصر ،وقيود الجملة وصفاً وغير وصف ، والإضمار والإظهار .

ويبدو ظاهراً امتزاج هذه المباحث بالنحو ،وفرق بين علم النحو وعلم المعاني ،فالأول يبحث في علاقة الكلمات على أصول قوانين العربية ، والثاني يبحث عن موافقة هذه العلاقة لمقتضى الحال ، فهو بحث عن مزايا تركيب الجملة ،فإذن تقوم الدراسة البلاغية على الدراسة النحوية ،وسنرى كيف استطاع الفخر الربط بينهما .

التقديم

إنَّ تقديم أى ركن من أركان الجملة في الكلام البليغ لا يكون إلاّ لتحقيق معنى يُفهم من وراء رصف الألفاظ .

والتقديم في التفسير إما أن يكون تقديم أحد جزئى الجملة على الآخر المسند أو المسند إليه ، أو تقديم المتعلقات ، أو تقديم كلمة على كلمة ، أو جملة على جملة ، وهذا ما يعرف بالتقديم غير الاصطلاحي ويمثل الجزء الأكبر من الباب ، حيث تنوعت أسرار التقديم فيه .

تقديم المسند إليه :

ويشمل تقديم الاسم على الفعل ، وتقديم الاسم على المشتق ، ويذكر الفخر أن تقديم الاسم على الفعل يفيد إما التخصيص أو التأكيد راداً ذلك إلى الشيخ عبد القاهر فيقول عند بيانه لسبب تقديم الفاعل في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (١) : (قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز إنك إذا قدمت الاسم فقلت : زيد فعل فهذا يفيد من التأكيد ما لا يفيده قولك : فعل زيد ، وذلك لأن قولك (زيد فعل) يستعمل في أمرين :

أحدهما : أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل كقولك : أنا كتبت في المهم الغلاني . .

الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك ، بل المقصود أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل ، كقولهم هو يعطى الجزيل ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

لا يريد الحصر ،بل أن تحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ...) .(١)

والذى يترجح عندى أن عبد القاهر لم يقل إن مثل (زيد فعل) يفيد القصر بدليل أنه لما مثّل اقتصر على المسند إليه الذى يفيد القصر ما كان ضميراً ، ولم يأت بمثال واحد للاسم الظاهر المقدم على الفعل لإفادة القصر ،بل كل أمثلته من هذا النوع ، مثل بها لما يفيد التقوية والتوكيد ، مع أن عبد القاهر حينما ابتدأ باب تقديم الخبر المثبت ذكر النوعين الاسم الظاهر والضمير ، ثم بنى على ذلك أن التقديم يفيد القصر والتقوية ،وهو إنما ذكر هذا على سبيل الإجمال . يقول : (فإذا عمدت إلى الذى أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ،ثم بنيت الفعل عليه فقلت : " زيد قد فعل " و "أنا فعلت " اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل) .(٢)

وتقديم الاسم الظاهر لا يفيد الاختصاص إلا عند الزمخشرى فيقول في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾(٣) : (وإيقاع اسم "الله" مبتدأ وبناء "نزل" عليه فيه تفخيم لـ "أَحْسَنَ الْحَدِيثِ" وتأكيد لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ،وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه) .(٤)

والزمخشرى هنا يسوى بين ما يفيده تقديم الضمير على الفعل ، وتقديم الاسم الظاهر على الفعل ،فالتقديم في كليهما إما للاختصاص أوللتوكيد ، وقد يجمع بينهما في دلالة معنى الآية كما في هذه الآية .(٥)

---

(١) التفسير : ٦/٩٣م٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٢٨ .

(٣) سورة الزمر : من الآية ٢٣ .

(٤) الكشاف : ٣/٣٩٤ .

(٥) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ، د .محمد أبو موسى : ٣٣١ .

وقد لاحظت أن التقديم في التفسير عند الفخر لا يخرج عن إفادة هذين الفرضين ، فهو إما أن يفيد الاختصاص أو التوكيد .

فمن دلالة التقديم على الاختصاص قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (١) يقول الفخر : (إن علمه سبحانه وتعالى صفة قديمة أزلية واجبة الوجود ، وما كان كذلك امتنع أن يكون مخصوصاً بالبعض دون البعض ، فوجب كونه متعلقاً بجميع المعلومات ، وإذا كان كذلك كان الله سبحانه عالماً بجميع المعلومات) (٢) .

ويتقدم الضمير على فعله فيفيد الاختصاص أيضاً في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ (٣) يقول : (في هذا التخصيص هو أن قبول التوبة ليس إلى رسول الله ، إنما إلى الله الذى هو يقبل التوبة تارة ويردها أخرى ، فاقصدوا الله بها ووجهوها إليه) (٤) ومعنى الاختصاص هنا قصر المسند على المسند إليه المقدم .

وذكر بعض المفسرين أن التقديم هنا يفيد التخصيص والتأكيد ، وأن الله من شأنه قبول توبة من تاب ، فكأنه قيل : أما علموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أنه تعالى يقبل التوبة الصحيحة ، ويقبل الصدقات الخالصة لله تعالى (٥) .

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٩٧ .

(٢) التفسير : ١٢ /١٠٨ م٦ .

(٣) سورة التوبة : من الآية ١٠٤ .

(٤) التفسير : ٨ /١٨٧ م٤ .

(٥) ينظر البحر المحيط ، لأبي حيان : ٥ /٩٦ .

والفخر في هذه الآية لم يتبع الزمخشري الذى قال إن التقديم هنا يفيد الاختصاص والتأكيد[١].

ويذكر الفخر أن التقديم يدل على الاختصاص بعد لو ، في قولــه تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾[٢] يقول : (وأما البحــث المتعلق بعلم البيان فهو أن التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله : ﴿ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ دلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيســة والشح الكامل)[٣].

والحقيقة أن هذا التركيب لا يفيد الاختصاص ؛ لأن (لو) تختص بالدخول على الأفعال دون الأسماء ، فلا بد من فعل بعدها و " أَنتُمْ " فاعل لفعل محذوف ، و " تَمْلِكُونَ " تفسيره ، وعلى هذا فلا تقديم في الآيــة . كذلك المعنى الذى ذكره في إفادة الاختصاص لا يتناسب مع معنى الآيـــة ؛ لأن مقتضى الاختصاص أن يكون اختصاص الناس بالملك ، ويكون المعنــى : لو لم يملك خزائن الله إلا أنتم لكان كذا ، أما الشح المتبالغ فذلك واقع فـــي جواب (لو) وليس في جملة الاختصاص وإلى هذا المعنى أشار ابن السبكي[٤].

والفخر هنا يسير على نهج الزمخشري في اعتبار التقديم بعد (لو) دالاً على الاختصاص بل إنه ينقل منه أيضاً .

---

(١) ينظر الكشاف : ٢/٢١٢ .

(٢) سورة الإسراء : من الآية ١٠٠ .

(٣) التفسير : ٢١/٦٤ م١١ .

(٤) ينظر عروس الأفراح : ٢/١٢ والبلاغــة القرآنية : ٣٣٢ ، ٣٣٤ .

وهكذا فإن الفخر كان يفصل أحياناً بين القاعدة النحوية والقاعدة البلاغية.(١)

وقد يفيد التقديم التأكيد، وهذه الدلالة يلتفت إليها الفخر قليلاً. كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾.(٢)

يقول: (والفائدة من ذكر كلمة "هم" التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفى أن يكون من النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فعل).(٣)

وقد تتبعت كثيراً من آيات تقديم المسند إليه التي تدل على التقوية والتأكيد في التفسير مما شاع في كتب البلاغة فلم أجده يلتفت إلى التقديم فيها. وذلك كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾(٤)، ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(٥)، ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾(٦) ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾(٧)، ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾.(٨)

---

(١) ومن أمثلة فصله بين القاعدة النحوية والقاعدة البلاغية قوله وهو يبين سبب تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ سورة الأحزاب: من الآية ٢٦ في أن فريقاً منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون، ثم يقول إن التقديم هنا للاهتمام، التفسير: ٢٥/٢٠٥ م ١٣ وذلك لا يجوز؛ لأن الفعل الثاني لم يستوف مفعوله فكأن ما قبله هو مفعوله، ولم يقل أحد من النحاة بذلك، فالاشتغال لا يكون إلا إذا اشتغل الفعل بضمير المفعول.

(٢) سورة المائدة: من الآية ٦١.

(٣) التفسير: ١٢/٤٠ م ٦.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٦.

(٥) سورة الفرقان: ٥.

(٦) سورة النمل: ١٧.

(٧) سورة ق: من الآية ٤٥.

(٨) سورة الطور: ٢٩.

وأرجع ذلك إلى أن جلّ اهتمامه كان موجهاً في المقام الأول إلى التفسير .

تقديم المسند :

لم يطل الفخر الوقوف عند أسرار تقديم المسند سواء أكان مفرداً أم جاراً ومجروراً أم ظرفاً .

ولم يتناول في ذلك إلا آيات معدودة.فمثلاً تتعدد معاني البشرى في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ فيرى أنها تدل على الاختصاص حين تفسر بأنها الرؤيا الصالحة . يقول في هذه الآية : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١) : (فظاهر هذا النص أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم ،والعقل يدل عليه وذلك ؛ لأن ولي الله هو الذى يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ،ومن كان كذلك فهو عند النوم لا يبقى في روحه إلا معرفة الله . . . . وأما من يكون موزع الفكر على أحوال هذا العالم فإنه إذا نام لا يبقى كذلك ،فلا جرم لا اعتماد على رؤياه ،فلهذا السبب قال : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ على سبيل الحصر والتخصيص) (٢) .

ولم يكن الفخر يفرق بين معني الحصر ومعنى التخصيص . كما فرق بينهما بعض المتأخرين ، فالاختصاص عندهم هو قصد المتكلم إفادة السامع خصوص شيء من غير تعرض ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي ، أما الحصر فمعناه نفي غير المذكور وإثبات المذكور " بما وإلا " أو " بإنما " (٣) .

---

(١) سورة يونس: من الآية ٦٤ .

(٢) التفسير : ١٧/ ١٣٤م٩ .

(٣) ينظر عروس الأفراح ،لبهاء الدين ابن السبكي : ٢/ ١٥٦ .

... فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة ،ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا : * عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا * أى توكلنا عليه ،ولا نلتفت إلى أحد سواه).(١)

ومثله قوله تعالى : * إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ *(٢) فتقديم الجار والمجرور يفيد القصر ،وقوله تعالى : * وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *.(٣)

ويتقدم المفعول في أحوال فيفيد الحصر والاختصاص كما في قوله تعالى : * إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ *.(٤)

يقول : (إن قوله : * فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * يفيد الحصر ، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ،وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه).(٥)

ويقول في قوله تعالى : * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ *(٦) : (وأما تقديم المفعول فهو للاختصاص كأنه قيل : وخصوا أنفسهم بالظلم وما تعدى أثر ذلك الظلم عنهم إلى غيرهم).(٧)

ومثله في إفادة التخصيص والحصر قوله تعالى : * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *(٨) ، فمعناه اختصاص تصليته بالجحيم، ويرى ابن الأثير أن التقديم هنا ليس للاختصاص ،إنما لمراعاة السجع في الآية.(٩)

---

(١) التفسير : ١٥٢/١٧ م٩.

(٢) ينظر التفسير : ١٦٦/١٥ م٨ . سورة الأنفال : من الآية ٣٦.

(٣) ينظر التفسير : ٢٣٣/١٩ م١٠ . سورة النحل : من الآية ٥.

(٤) سورة النحل : من الآية ٥١.

(٥) التفسير : ٥٠/٢٠ م١٠.

(٦) سورة الأعراف : ١٧٧.

(٧) التفسير : ٦٢/١٥ م٨.

(٨) ينظر التفسير : ٦٢/١٥ م٨ . سورة الحاقة : ٣٠ - ٣١.

(٩) ينظر المثل السائر : ٢١٣/٢.

وكما يرى الفخر أن تقديم المسند يكون للاختصاص يرى أنه يكون للعناية والاهتمام أيضاً فيقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (١) : (إنما جعل : ﴿ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ ﴾ اسماً و ﴿ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ خبراً مع أن العكس أولى ؛ لأن العناية هي سبب التقديم) (٢).

وهذا الوجه اختصره الفخر من الزمخشري ، وكما قلت لم يهتم الفخر بهذا النوع من التقديم ، ولم يكثر منه في تفسيره .

التقديم في المتعلقات :

التقديم هنا إما أن يكون على الفعل نفسه ، وإما أن يكون تقديم بعض المتعلقات على بعض .

وتقديم المتعلق على العامل عند الفخر إما أن يكون للاختصاص أو للعناية والاهتمام .

ولاحظت أن المتعلق الجار والمجرور لا يفيد تقديمه على الفعل إلا القصر في تفسير الفخر ، يظهر ذلك في قول موسى لقومه ثم ردهم عليه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

قال الفخر : (إنما قال : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ ولم يقل توكلوا عليه ؛ لأن الأول يفيد الحصر ، كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير

---

(١) سورة القصص : ٢٦ .

(٢) التفسير : ٢٤/٢٤٢ م١٢ .

(٣) سورة يونس : ٨٤ - ٨٥ .

وقد يفيد تقديم العامل على الفعل العناية والاهتمام ، وقد ذكر الفخر آيات كثيرة أفادت هذا المعنى ، وكان يكرر دائماً مقولة سيبويه التي تقول : (يقدمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعنى) .

ولم يكن الفخر يجمع بين دلالة الاختصاص ودلالة العناية والاهتمام هنا متبعاً في ذلك الزمخشري ، ولذلك فقد اعترض أبو حيان على إفادة التقديم للاختصاص ، لأنه يرى أن ذلك يتعارض مع ما قاله سيبويه من أن التقديم للعناية والاهتمام ، ولذلك رفض صوراً كثيرة من التقديم دلت على الاختصاص كما في قوله تعالى : * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * (١) وأرى أن لا تعارض بين إفادة هذين المعنيين التخصيص والعناية والاهتمام ، لأن أسرار التقديم لا تتعارض .

وقد ذكر الخطيب القزويني في التلخيص أن الاختصاص يفيد الاهتمام ، وتبعه شراح التلخيص . (٢)

ومن الآيات التي يفيد فيها التقديم العناية والاهتمام قوله تعالى : * فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * (٣) يقول الفخر : (ما الفائدة في تقديم المفعولات في قوله تعالى : * فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * والجواب قد عرفت أن التقديم إنما يكون لشدة العناية فالتكذيب والقتل وإن كانا منكرين إلا أن تكذيب الأنبياء وقتلهم أقبح فكان التقديم لهذه الفائدة) . (٤)

---

(١) سورة الفاتحة : ٤ ، ينظر البحر المحيط : ١/٢٣-٢٤ .

(٢) ينظر شروح التلخيص : ٢/٥٤ ، وما بعدها .

(٣) سورة المائدة : من الآية ٧٠ .

(٤) التفسير : ١٢/٥٩ ، م٦ .

ومثله في إفادة الاهتمام والعناية ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) والفخر هنا يذكر العلة النحوية متبعاً في ذلك الزمخشري (٢) ، ثم يربط العلة البلاغية بها .

يقول : ("أحد" مرتفع بفعل مضمر يفسره الظاهر وتقديره : وإن استجارك أحد، ولا يجوز أن يرتفع بالابتداء، لأن "إنْ" من عوامل الفعل لا يدخل على غيره) .

ثم يقول : (فإن قيل لما كان التقدير ما ذكرتم فما الحكمة في ترك هذا الترتيب الحقيقي ، قلنا الحكمة فيه ما ذكره سيبويه وهو أنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ، وقد بينا ههنا أن ظاهر الدليل يقتضي إباحة دم المشركين ، فقدم ذكره ليدل ذلك على مزيد العناية بصون دمه من الإهدار) (٣) فقصر التقديم على العناية فقط دون التغلغل في باطن المعنى .

ويرفض الشيخ عبد القاهر أن يرجع التقديم والتأخير للعناية والاهتمام في كل الأحوال يقول : (وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفى أن يقال : (إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم) من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم ، ولتخيلهم ذلك ، قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم) (٤) .

والفخر وإن كان يكتفي بالعناية والاهتمام في وجه التقديم والتأخير أحياناً ، إلا أنه اهتم في مواضع أخرى بذكر غرض آخر بجانب العناية والاهتمام .

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٦ .
(٢) ينظر الكشاف : ٢/١٧٥ .
(٣) التفسير : ١٥/٢٣٥ م٨ .
(٤) دلائل الإعجاز : ١٠٨ .

فقد يأتي التعجب مع العناية والاهتمام في تقديم المفعول على الفاعل كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ .. ﴾ (١).

يقول : (أما القراءة المشهورة فليس فيها إلا تقديم المفعول به على الفاعل ، ونظيره قوله : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ (٣) والسبب في تقديم المفعول هو أنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ، وموضع التعجب ههنا إقدامهم على قتل أولادهم فلهذا السبب جعل هذا التقدير) (٤).

وذكر الفخر قبل هذا الكلام ، قراءة ابن عامر للآية التي تقتضي جر ﴿ شُرَكَائِهِم ﴾ لكنه ردها لكراهية الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهذا الكلام قد نقله من كشاف الزمخشرى (٥) ، لكنه أضاف أن القراءة المشهورة هي الرفع على الفاعلية ، وأن المفعول قدم عليه للتعجب والاهتمام.

وينبغي ألا نقتصر في بيان السر البلاغي على العناية والاهتمام كما قال عبد القاهر سابقاً ، بل لا بد من معرفة دواعي الاهتمام ، والأسرار التي وراءه ، لأن الاقتصار على القول بأن التقديم للاهتمام أو للاختصاص لا يفسر تلك الأسرار النفسية التي يشع بها التعبير القرآني .

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٣٧ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٥٨ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٢٤ .

(٤) التفسير : ١٣/٢١٧ م٧ .

(٥) ينظر الكشاف : ٥٤/٢ .

وربما لا يلتفت الفخر إلى تقديم أحد المفعولين على الآخر إنما إلى تقديم متعلقه ،لأنه يفيد الاستعظام كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١).

يقول : (قال سيبويه : إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ، فالفائدة في هذا التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك سواء كان ملكاً أوجنياً أو إنسياً أو غير ذلك ،فهذا هو السبب في تقديم اسم الله على الشركاء)(٢).

وهذا الوجه في التقديم ذكره الزمخشرى(٣) ، ولكن الفخر أضاف إليه عبارة سيبويه التي كان يُصدِّر بها حديثه عن فائدة أكثر تقديمات القرآن .

والفخر لم ينظر إلى ناحية تقديم المفعول إنما إلى تقديم لفظ الجلالة .

وقد بين عبد القاهر سر التقديم فيها بطريقته الأخاذة في الكشف عن الأسرار يقول : (ليس بخاف أن لتقديم "الشركاء" حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله . . . بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى و محصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ،وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فإن تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى ،ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك ،لا من الجن ولا غير الجن .)(٤)

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٠ .

(٢) التفسير : ١٣ / ١٢٠ م٧ .

(٣) ينظر الكشاف : ٢ / ٤٠ .

(٤) دلائل الإعجاز : ٢٨٦ .

وقد أخذ الفخر هذا الوجه من عبد القاهر وبثه في كتابه نهاية الإيجاز[١] ورد الخطيب القزويني على السكاكي الذى ذكر أن التقديم في هذه الآية للعناية والاهتمام ، وقال إن ذلك لا يجوز ؛ لأن تقديم الشركاء مسوق للإنكار ، فيمتنع أن يكون تقديم (لله) للعناية دون تعلقها بـ " شركاء "[٢].

ثم يرد ابن السبكي على الخطيب وينتصر للسكاكي ، ويقول : إن القول بالاهتمام لا يتعارض مع التوبيخ والإنكار ؛ لأن كل واحد من المفعولين متعلق بالآخر ، والعناية قد تشتد بأحدهما فيقدم ؛ لأن هناك عناية عامة بالتوبيخ وعناية خاصة بالله[٣].

ومهما يكن من اختلافات في الآراء فإن التقديم يفيد الاهتمام بأمر الشركاء وإنكار اتخاذهم.

ولا يرى الفخر أن تكون القراءة بالفتح في قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[٤] على أن يكون مفعولاً لفعل محذوف ؛ لأنه لو كان مفعولاً لكانت العناية بالقطع، ثم اختار قراءة الرفع التي تعني أن العناية والاهتمام في الآية بحال السارق والمبالغة في تقبيح فعله.

يقول الفخر : (إن سيبويه قال : هم يقدمون الأهم فالأهم والذى هم بشأنه أعنى ، فالقراءة بالرفع تقتضي أن يكون أكبر العناية مصروفاً إلى شرح ما يتعلق بحال السارق من حيث أنه سارق ، أما القراءة بالنصب

---

(١) ينظر نهاية الإيجاز : ٣١٥.

(٢) ينظر الإيضاح : ٢١٢.

(٣) ينظر عروس الأفراح : ٢/١٦٤-١٦٥.

(٤) سورة المائدة : من الآية ٣٨.

فإنها تقتضي أن تكون العناية ببيان القطع أتم من العناية بكونه سارقاً ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، فإن المقصود في هذه الآية بيان تقبيح السرقة والمبالغة في الزجر عنها فثبت أن القراءة بالرفع هي المتعينة قطعاً والله أعلم).[(١)]

قال الفخر هذا وهو يرد على سيبويه الذى عين القراءة في الآية بالنصب ، وأبطل قوله من خمسة وجوه .

وقد رد أبوحيان على الفخر رداً عنيفاً واتهمه بالجهل وعدم فهمه لكلام سيبويه ، ونقض كل ما رد به على سيبويه وجهاً وجهاً .[(٢)]

وتتعاطف جملتان فيقدم في إحداهما المفعول على الفعل دون الأخرى لشهرته كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾[(٣)] يقول في سبب تقديم فريقاً في موضع وتأخيره في الآخر:

(... إن ما من شيء في القرآن إلا وله فوائد منها مايظهر ، ومنها ما لا يظهر ، والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم ، والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل يبدأ وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والضعفاء ، ولم يكونوا مشهورين ، والسبى والأسر أظهر من القتل ، لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم في المحلين ما هو أشهر من الفعل القائم به ، وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى) .[(٤)]

وهذا ملحظ جيد لسر التقديم ، تفرد به الفخر ، وأخذه منه الألوسى .

---

(١) التفسير : ٢٣٠/١١ م٦ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٤٧٦/٣ ومابعدها .

(٣) سورة الأحزاب : من الآية ٢٦ .

(٤) التفسير : ٢٠٥/٢٥ م١٣ .

وكثير ممن يتناول هذه الآية يذكر هذا الوجه وينسبه للآلوسي [١] دون التنبه إلى أنه للفخر ، وللبقاعي في هذا التقديم وجه خلاب حسن، قال فيه إن التعبير بلفظ فريق وتقديمه للدلالة على أنهم طوع لأيدي الفاعلين ،وأن القوم توزعوا بين القتل والأسر ، ففي جانب القتل فريق ،وفي جانب الأسر فريق ، وقد تجاور القتل والأسر ،وهما الفعلان اللذان يشفيان غليل القوم من أعدائهم، وقد قدم أعظم الأثرين الناشئين عن الرعب وأولاه الأثر الآخر ليصير الأثران المحبوبان محفوفين بما يدل على الفرقة.[٢]

وهكذا فالتقديم هنا يفيض بكثير من المعاني ،فكل متأمل يلحظ ما لا يلحظه غيره ، وقد قيل إن في التقديم والتأخير موافقة لفواصل الآيات السابقة واللاحقة ،لأن السورة بنيت على حروف المد واللين ،وفيهما من التنغيم ما له أثر بعيد في انطلاق الأنغاس اللاهثة في المواقف المختلفة ، وهذا يلائم موضوعات السورة .[٣]

وتظهر عناية الفخر ببيان أثر التقديم على النفس ،فنراه يرصد حركة النفس وهي تتلقى هذا النوع من الأساليب ، ويصف حالات الإحساس به ، وما يثيره في النفس من معاني ،فهو لم يكتف بضبط المسألة من أفواه النحاة والبلاغيين ،بل يتتبع طريق الإحساس بما قالوه .

من ذلك أنه يبين سبب تقديم المفعول وتأخيره في الآية السابقة

---

(١) ينظر من أسرار التعبير القرآني ،د. محمد أبو موسى : ١٤٥ ،من الإعجاز البلاغي للقرآن ،د. صبّاح دراز : ١٢٣.

(٢) تناسب الدرر في مناسبة الآيات والسور : ٥/٣٣٣.

(٣) ينظر من أسرار التعبير القرآني ،د. محمد أبو موسى : ١٤٦.

﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ ومناسبة كل منهما لموقعه يقول : (إنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم ، وأنه قذف في قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان ، وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون ، فأما إذا قال فريقاً مع سبق في قلوبهم الرعب إلى سمعه يستمع إلى تمام الكلام ، وإذا كان الأول فعلاً و مفعولاً قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها في الأصل ، فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم ، إذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفاً إليهم ، ولو قال بعد ذلك : وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون أو لا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى)(١).

فتقديم المفعول الأول يناسب ما سبقه من كلام ، وتقديم الفعل في الجملة الثانية يناسب ما سبقه من الجملة الأولى .

ويقول في موضع آخر وهو يبين الغرض من تقديم الجنات في قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾(٢) يقول : (فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول وإعادة ذكره بالهاء في يدخلونها ؟ وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن ؟ نقول : السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المداخل ، فإذا قيل له : أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أى المداخل يكون ، فإذا قيل له : دار زيد تدخلها فبذكر الدار يعلم مدخله ،

---

(١) التفسير : ٢٥/٢٠٥-٢٠٦ م١٣.
(٢) سورة فاطر : ٣٣ .

وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بوناً بعيداً)[١].

ومثل هذا الربط لم يهتم به كثير من المفسرين والدارسين لبلاغة القرآن . وقد اهتم عبد القاهر قبله بربط التقديم بالنفس في قوله : (فإذا قلت " عبد الله " فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً " قام " أو قلت " خرج " أو قلت " قدم " فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له ، وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك وأدخل في التحقيق)[٢] وتأمل دراساته في بقية أبواب البلاغة تجده يستل خيوطها من النفس وإحساسها كما في باب الحذف وغيره.

ويعد الفخر امتداداً لعبد القاهر ثم للزمخشرى الذى اهتم بهذا النوع من الدراسة.

وتبرز عناية الفخر ببيان أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض ، وهي تمثل الجزء الأكبر من باب التقديم عنده ، وسأذكر بعضها - إن شاء الله - مما يجلى لنا طريقته في الدراسة.

فمن ذلك أنه يبين لنا سر تقديم هارون على موسى في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[٣] يقول : (إنهم قدموا ذكر هارون على موسى ، لأن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناءً على أنه

---

(١) التفسير : ٢٦/٢٦ م١٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٣٢ .

(٣) سورة طه : ٧٠ .

رباه في قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ (١) فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لا جرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعاً لهذا الخيال) . (٢)

وقد تعرض الباقلاني لهذه الآية فقال : إن الذين يثبتون السجع في القرآن ، يردون سبب تقديم هارون على موسى إلى مراعاة الفواصل لمكان السجع ، ثم ينفي الباقلاني ذلك ، ويرجع تقديم هارون هنا وتأخيره في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٣) لفائدة أخرى وهي : إنَّ إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة ، تؤدى معنى واحداً من الأمر الصعب ، الذى تظهر به الفصاحة ، وتتبين به البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً) . (٤)

ويدفع أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى أن يكون هذا سبباً للتقديم ، فيقول : (جواب الباقلاني ليس هو الجواب) ثم يجتهد في ذكر سبب آخر أبر بمعنى الآية ، وهو أن بدءهم بهارون مع أنه ليس هو الغالب ، ولم تظهر الحجة على يده ، ولم يؤمر بتبليغ أمر الله دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها (٥) ، وما ذكره الفخر وجه حسن ، ففي التقديم قطع لظن فرعون الذى يدعى ربوبيته لموسى أنه هو المقصود بإيمانهم .

ومن العلماء من رد سر التقديم إلى كبر سن هارون على موسى ولذلك قدم في الكلام . (٦)

---

(١) سورة الشعراء : من الآية ١٨ .

(٢) التفسير : ٨٧/٢٢ م ١١ .

(٣) سورة الأعراف : ١٢٢ .

(٤) إعجاز القرآن : ٨٧ - ٨٨ .

(٥) ينظر الإعجاز البلاغي : ١٩٨ - ١٩٩ .

(٦) ينظر البحر المحيط ، لأبي حيان : ٦ / ٢٦١ - روح المعاني ، للألوسي : ١٦ / ٢٣٠ .

وأرى أن هذا ليس هو الوجه الذي يتناسب على فصاحة القرآن ، والفخر من الذين ينفون السجع عن القرآن ،لذلك يدفع أن يكون سبباً لبلاغة أساليب القرآن .

وينفي الفخر في موضع آخر من التفسير قول المفسرين بأن التقديم من أجل توخي أواخر الآيات ،لأنه يعني إثبات السجع المتكلف للقرآن والالتفات إلى التحسين اللفظي دون المعنى ، فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ ﴾ (١) : (قدم الأشرف في مثلين وهما الظل والحرور ،وأخره في مثلين وهو البصر و النور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون : إنه لتوخي أواخر الآي وهو ضعيف ؛ لأن توخي الأواخر راجع إلى السجع ،ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ،فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى ،وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح ،واللفظ صحيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى) (٢) .

وللفخر موقف من إثبات السجع في القرآن ونفيه ، سأتناوله بالدراسة لاحقاً -إن شاء الله - في مبحث الفواصل .

وبعد أن نفى الفخر عود التقديم إلى الفواصل عاد فذكر سراً للتقديم فقال : (فنقول:الكفار قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم كالظلمة ، ثم لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحق واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين ،وطريقتهم كالنور فقال وما يستوي من كان

---

(١) سورة فاطر : ١٩-٢٠-٢١ .

(٢) التفسير : ٢٦/١٧م١٣ .

قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ،فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ،والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ،ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب) .(١)

وأقول : إنه لا يخل بفصاحة القرآن إن قلنا أن التقديم جاء لبيان سبق رحمته تعالى ،ولمراعاة الفاصلة ومناسبتها لما سبق ؛لأن القرآن يُبنى على لغة العرب ،وكان التنغيم أساساً في هذا البناء ، ولقد التفت سلف هذه الأمة إلى هذه الناحية ،فدرسوا أصوات الحروف ،وما تولده من ألحان ذات معاني تختلف تبعاً لاختلاف المواقف والأحوال .

وللرافعي كلام جيد في فواصل الآيات يقول فيه : (وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلّا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ،وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت ،والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه من العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها أو بالمد ،وهو كذلك طبيعي في القرآن) .(٢)

وللفخر نص يشير فيه إلى أن التقديم والتأخير سواء في الكلام الفصيح فلا يطلب له فائدة ،ثم لا يلبث أن يذكر سراً للتقديم .

ذكر ذلك وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾(٣) فقال : (قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال

---

(١) المصدر السابق الجزء والصفحة .

(٢) إعجاز القرآن : ٢١٧ .

(٣) سورة النجم : ٣٦ - ٣٧ .

في : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فهل فيه فائدة ؟ نقول مثل هذا في كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة ،بل التقديم والتأخير سواء في كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب، ويمكن أن يقال أن الذكر هناك لمجرد الإخبار والإنذار ،وههنا المقصود بيان انتفاء الأعذار ،فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال ،وأما ههنا فقد قلنا إن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم) .(١)

وأفهم من قوله : (يمكن أن يقال ...) عدم اقتناع بالبحث عن سر التقديم عند البلغاء ،ومثل هذا التناقض أمر قد اعتدنا عليه من الفخر ونلاحظ أن قوله : (التقديم والتأخير سواء في كلام الفصحاء) يتعارض مع قوله السابق : (فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ إلا لمعنى) . فمن الخطأ أن نقول إن التقديم يفيد مرة ولا يفيد أخرى ،وإلى ذلك أشار عبد القاهر فقال : (واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيداً في بعض الكلام ، وغير مفيد في بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ،حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه ؛ وذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى) .(٢)

ويتتبع الفخر تقديم بعض الكلمات والجمل وتأخيرها في القرآن في مواطن كثيرة ،فيبين أن مجيئها مقدمة في آية ومؤخرة في أخرى ، فيه مراعاة لسياق الآية الواردة فيه.

فيقدم السمع عند ذكر النعمة ويؤخره عند ذكر النقمة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ ﴾(٣) : (لم قدم

---

(١) التفسير : ٢٩/١٤ م١٥.

(٢) دلائل الإعجاز : ١١٠.

(٣) سورة السجدة : من الآية ٩ .

السمع ههنا والقلب في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾(١) ... وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال : أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب، وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع)(٢).

ويقدم الجن على الإنس عند ذكر النفوذ من السماوات والأرض، ويقدم الإنس عند تحديهم بالإيتاء بمثل القرآن.

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ... ﴾(٣).

: (ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس ههنا، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾(٤) ؟ نقول : النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن فقدم في كل موضع من يظن به القدرة على ذلك)(٥).

ويقدم المال على النفس في آية ويؤخر في أخرى لغرض يناسب السياق يقول في قوله تعالى : ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾(٦) : (لقائل أن يقول إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾(٧) فقدم ذكر النفس على المال،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٧.
(٢) التفسير : ١٧٦/٢٥ م١٣.
(٣) سورة الرحمن : من الآية ٣٣.
(٤) سورة الإسراء : من الآية ٨٨.
(٥) التفسير : ١١٤/٢٩ م١٥.
(٦) سورة النساء : من الآية ٩٥.
(٧) سورة التوبة : من الآية ١١١.

وفي الآية التي نحن فيها وهي قوله : ﴿ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ قدم ذكر المال على النفس فما السبب فيه ؟ وجوابه أن النفس أشرف من المال ، فالمشترى قدم ذكر النفس تنبيهاً على أن الرغبة فيها أشد ، والبائع أخر ذكرها تنبيهاً على أن المضايقة فيها أشد فلا يرضى ببذلها إلا في آخر المراتب) (١) .

ويأتي التقديم لأغراض أخرى ، فقد تقدم أعمال القلوب على أعمال الجوارح لأهميتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾ (٢) : (وإنما قدم الله تعالى ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب ... أما السمع والبصر فهما آلتان للقلب كانا لا محالة تابعين لأحوال القلب ، فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر تقليب القلوب في هذه الآية ..) (٣) .

وكما في قوله تعالى : ﴿ ... فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٤) : (علل تعالى ذلك العذاب بأمرين : أولهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب ، والثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعاً من أعمال الجوارح) (٥) .

ويكون التقديم للرتبة ، فمرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (٦) : (وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام لأن

---

(١) التفسير : ١١/٨ م٦ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١١٠ .

(٣) التفسير : ١٣/١٥٥ م٧ .

(٤) سورة الأحقاف : من الآية ٢٠ .

(٥) التفسير : ٢٨/٢٥ م١٤ .

(٦) سورة المائدة : ١١١ .

الإيمان صفة القلب ، والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر ..) (١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ ... وَالمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ... ﴾ (٢) : (التسبيح مقدم عن التحميد ، لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي ، والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات ، وكونه منزهاً في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات) (٣) .

ويكون التقديم للارتقاء من الأدنى إلى الأعلى كما في قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (٤) : (لم قدم طلب الرزق على طلب الإطعام ؟ نقول : ذلك من باب الارتقاء كقول القائل : لا أطلب منك الإعانة ، ولا من هو أقوى ، ولا بعكس ويقال : فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين ..) (٥)

ومثله قوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ (٦) : (ما الحكمة في تقديم الفاكهة على القوت ؟ نقول : هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى ، والفاكهة في النفع دون النخل الذى منه القوت ..) (٧) .

وتقدم العلة على المعلوم أو السبب على المسبب ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٨) يقول الفخر : (وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر

---

(١) التفسير : ١٣٦/١٢ م٦ .

(٢) سورة الشورى : من الآية ٥ .

(٣) التفسير : ١٤٦/٢٧ م١٤ .

(٤) سورة الذاريات : ٥٧ .

(٥) التفسير : ٢٣٤/٢٨ م١٤ .

(٦) سورة الرحمن : ١١ .

(٧) التفسير : ٩٤/٢٩ م١٥ .

(٨) سورة الشعراء : ١٠٦-١٠٨

بطاعته ،لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول).(١)

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ... ﴾(٢) : (إنما ذكر اللعب مقدماً على اللهو كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تنبيهاً على أن اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو الذى معناه الذهول والغفلة).(٣)

ويقدم في القرآن من هو أشد حاجة عن غيره ،فاليتيم أشد حاجة من المسكين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ ﴾(٤) يقول الفخر: (إنما قدم اليتامى على المساكين لأن ضعف اليتامى أكثر، وحاجتهم أشد ،فكان وضع الصدقات فيهم أفضل وأعظم في الأجر).(٥)

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾.(٦)

وقد يقدم اللقب على الاسم لعلو الدرجة وعظم المنزلة ،كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾(٧) يقول : (المسيح كاللقب الذى يفيد كونه شريفاً رفيع

---

(١) التفسير : ٢٤/١٥٥ م١٢.

(٢) سورة الأنبياء : ٢ ومن الآية ٣.

(٣) التفسير : ٢٢/١٤١ م١١.

(٤) سورة النساء : من الآية ٨.

(٥) التفسير : ٩/٢٠٤ م٥.

(٦) سورة النساء : من الآية ٣٦.

(٧) سورة آل عمران : من الآية ٤٥.

الدرجة مثل الصديق والفاروق ،فذكره الله تعالى أولاً بلقبه ليفيد علو درجته ثم ذكره باسمه الخاص).[(١)]

وقد يلجأ الفخر إلى الطبيعيات والكونيات وعلم الهيئة للكشف عن سبب التقديم .

من ذلك أنه يرجع تقديم السموات على الأرض إلى أن السماء كالدائرة بالنسبة للأرض يقول في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[(٢)] : (لم قدم ذكر السماء على الأرض مع أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء ؟ والجواب : السماء كالدائرة والأرض كالمركز وحصول الدائرة يوجب تعيين المركز ولا ينعكس ،فإن حصول المركز لا يوجب تعيين الدائرة لإمكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها).[(٣)]

هذا غيض من فيض له نظائر يمتلئ بها التفسير ،اكتفيت بذكر بعضها لأنني -كما قلت سابقاً- لا أهدف من هذه الدراسة إلى الاستقصاء الشامل إنما أتوخى بيان طريقته في دراسة أبواب علم المعاني .

---

(١) التفسير : ٨/٥٥ م٤ .
(٢) سورة الأنعام : من الآية ١ .
(٣) التفسير : ١٢/١٥٧ م٦ .

الاستفهام

عرض الفخر الرازي لكثير من قضايا الاستفهام وهو يتناول الآيات القرآنية بالشرح والتوضيح . فقد تحدث عن أثر الاستفهام وفائدته في الكلام ، وعن المعاني والأسرار البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام ، وسماها معاني مجازية ، كما تناول الاستفهام الذي ذكر معه جوابه وفائدته ، والاستفهام الداخل على الواو أو الفاء .

أثر الاستفهام في الكلام :

للفخر عبارات في تفسيره تبين قيمة الاستفهام ، وأثره في أداء المعنى ، وأوضح أسراره عنده أنه يثبت المعنى في النفس ، ويرسخه فيها و يزيده إيضاحاً .

يذكر ذلك عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (١) يقول : (ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام والجواب إن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام و تفويض الجواب إلى المسئول كان ذلك أوقع في القلب) (٢) .

وله عبارات يذكر فيها أن أسلوب الاستفهام أبلغ في أداء المعنى مجرداً عنه . فالاستفهام الذي يفيد النفي أبلغ من أسلوب النفي ذاته .

وقد ركز الفخر في كلامه على بيان الدلالات النفسية التي يشيعها الاستفهام في الكلام . ويقارنه بدلالات غيره من أساليب الإنشاء كالنهي

---

(١) سورة يونس : ٣٤ .

(٢) التفسير : ٩٣/١٧ م ٩ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ (١) : (ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر، وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً : " لا اتخذ " يصح من السامع أن يقول له : لِمَ لا تتخذ فيسأله عن السبب ، فإذا قال : " أأتخذ " يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الإخبار ، كأنه يقول استشرتك فدلني والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر في الأمر تفهم من غير إخبارني) (٢) .

ويقول أيضاً في موضع آخر، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (٣) : (وقد تقدم أن النفى بطريق الاستفهام أبلغ ، لأن من قال : ما أنزل عليه الذكر - بما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه ، فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله : " ما أنزل " فيجعل الأمر حينئذ منفياً ظاهراً لا يخفى على أحد بل كل أحد يقول ما أنزل) (٤) ففى الاستفهام توجيه السؤال إلى السامع وحمله على الإقرار بالنفى .

وفي موضع آخر يكشف عن فقه الاستفهام حين يأتي بدلاً عن جملة الخبر وما يفيده من معاني ، ويحاول هنا أن يتتبع حركة النفس وهي تتلقى هذا الأسلوب. يذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٥) يقول : (قوله : ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ جملة استفهامية

---

(١) سورة يس : ٢٣ .

(٢) التفسير : ٢٨/ ٥٧ م١٣ .

(٣) سورة القمر : ٢٥ .

(٤) التفسير : ٢٩/ ٥١ م١٥ .

(٥) سورة الواقعة : ٨ .

على معنى التعجب كما تقول لمدعى العلم: ما معنى كذا ؟ مستفهماً ممتحناً زاعماً أنه لا يعرف الجواب حتى إنك تحب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ولو أجاب لكرهته ؛ لأن كلامك مفهوم ، فكأنك تقول إنك لا تعرف الجواب ، إذا عرفت هذا فكأن المتكلم في أول الأمر مخبر [١] ، ثم لم يخبر بشيء ؛ لأن في الإخبار تطويلاً ثم لم يسكت ، وقال ذلك ممتحناً زاعماً أنك لا تعرف كنهه .) [٢] .

ثم يصل كلامه هذا بالحديث عن أغراض حذف الخبر ، ويدعمه بالأمثلة - وسأذكره - إن شاء الله - في بابه ، ثم يخرج مرة ثانية إلى الآية . وهذه الطريقة شائعة في تفسيره ، إذ أنه يذكر الآية ثم يحدد الباب الذى هي منه ويشرح القاعدة ، ثم يعود إلى الآية ويطبق عليها القاعدة .

وفي هذه الآية يذكر السبب في عدم حذف الخبر ومجيئه استفهاماً يقول : (إذا علم هذا فنقول لما قال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ، ثم قال في نفسه إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال الخبر ، كما يسكت عن زيد في جواب من جاء فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ممتحناً زاعماً أنه لا يفهم ليكون ذلك دليلاً على سكوته على المبتدأ [٣] لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته ، وهذا وجه بليغ) [٤] .

ويبدو هنا تأثره الواضح بعبد القاهر الذى حرص على وصف أحوال النفس ، وإحساسها وهي تتلقى أسلوب الاستفهام .

---

(١) في التفسير (مخبراً) وهو خطأ والصحيح ما أثبته لأنه خبر كان .

(٢) التفسير : ١٤٥/٢٩ م١٥ .

(٣) الظاهر أن العبارة (ليكون ذلك دليلاً على سكوته على الخبر) وليس المبتدأ ؛ لأن ما حذف هو الخبر .

(٤) التفسير : ١٤٥/٢٩ م١٥ .

تأمل عبارة عبد القاهر وهو يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه ويرتدع ويعيا بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له : فافعل فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته ، وقيل له : فأرناه في موضع وفي حال ، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت . .) [١].

المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام :

وقف الفخر عند كثير من أساليب الاستفهام في القرآن ، وكشف عن معانيها التي خرجت إليها ، وبين أن إفادة أداة الاستفهام لهذه المعاني جاء على طريق المجاز ، وكان يحدد هدف الاستفهام ثم يبين معناه الذى خرج إليه كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ [٢] : (ليس باستفهام بل هو إنكار . . .) [٣].

ونقل قول الزمخشرى في أن معنى الاستفهام ينسلخ عن الأداة ويراد بها معنى آخر يقول : (الهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستفهام وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً ، قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء كقوله : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء) [٤] والزمخشرى نقل هذا الكلام عن سيبويه كما هو واضح .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٢٠ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٨٠ .

(٣) التفسير : ٣/١٥٣ م٢ .

(٤) التفسير : ٢/٤٦ م١ .

ويعد الفخر أول من سمى المعاني التي يفيدها الاستفهام معاني مجازية -على حسب علمي - فيقول إنها قد تقوم على المشابهة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾(١) :
("ما" لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها، تقول ما الملك ؟ ، وما الروح ؟ وما الجن ؟ والمراد طلب ماهياتها، وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ "ما" وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه، والمشابهة إحدى أسباب المجاز، فبهذا جعل "ما" دليلاً على عظمة حال ذلك المطلوب وعلو رتبته)(٢).

ويشير إلى أن الاستفهام من المجاز دون أن يوقفنا على نوعه أو علاقته.

كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ ﴾(٣) : (واعلم أن هذا وإن كان استفهاماً في الظاهر، إلاّ أن المراد منه هو النهي في الحقيقة، وإنما حسن هذا المجاز ؛ لأنه تعالى ذم هذه الأفعال، وأظهر قبحها للمخاطب فلما استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلا على الإقرار بالترك، فكأنه قيل له : أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر ؟ ، فصار قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ جارياً مجرى تنصيص الله تعالى على وجوب الانتهاء مقروناً بإقرار المكلف بوجوب الانتهاء)(٤).

ويعني بقوله : (المراد منه هو النهي في الحقيقة) أي الانتهاء عن هذا الأمر وإن كان الظاهر أنها أمر لا نهي، ولم يقل أحد قبل الفخر - فيما أعرف - بأن الاستفهام حين يخرج عن معناه يدخل تحت المجاز.

---

(١) سورة النبأ : ١-٢.

(٢) التفسير : ٣١/٣-٤ م١٦.

(٣) سورة المائدة : من الآية ٩١.

(٤) التفسير : ١٢/٨٦-٨٧ م٦.

وقد ظهر هذا القول بوضوح عند المتأخرين من شراح التلخيص وأصحاب الحواشي ،فيقول العلامة سعد الدين التفتازاني الذى كشف عن جزء من هذه المسألة المجازية عند شرح عبارة التلخيص : (ثم إن هذه الكلمات كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام) (١) (وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله) (٢).

ثم حاول السيد الشريف الجرجاني بعده بيان علاقات المجاز في كثير من الآيات ،وتكلف في ذلك تكلفاً ،يقول : (قال مما لم يحم أحد حوله أقوال وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز ،وكيفية المناسبة المجوزة له ،ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز فيها،وتستعين به فيما عداها) (٣).

ثم حاول إيجاد العلاقة بين معنى الاستفهام وما يفيده في بعض الآيات ،ولم يبين نوع المجاز ولا قرينته.

وجاء بعده ابن يعقوب المغربي ،فسمى المجاز في خروج الاستفهام مجازاً مرسلاً (٤) ،وأخذ عليه كثرة ذكر الوسائط التي يقدرها في جهة التجوز وعلاقته (٥).

وأرى أن هذه المعاني المجازية ليست سبباً في بقاء الاستفهام قوياً وراء كل معنى من المعاني ؛لأن مزية الاستفهام تبرز فيما يثيره هذا الأسلوب من خطرات ومعاني تتكاثر ولا تتقيد،ولا دخل لهذه المعاني فيها. ذلك

---

(١) التلخيص : ١٦٤.

(٢) المطول : ٢٣٥.

(٣) حاشية المطول : ٢٣٥ .

(٤) ينظر مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) : ٢/ ٢٩٠ ومابعدها .

(٥) ينظر المجاز في اللغة والقرآن الكريم ،د . عبد العظيم المطعني : ١/ ٤١٧-٤١٨.

أن عبد القاهر ذكر أن الاستفهام لم يستعمل في الإنكار أو التقرير ولا في غيره من المعاني إلا للتنبيه يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع) [١] وهذا التنبيه كفيل بإبراز كثير من المعاني .

وقد كثر حديث الفخر عن المعاني التي يفيدها الاستفهام ،وسأذكر بعضها حتى تتضح طريقته في استنباط هذه المعاني .

ولاحظت أنه كان في بعض الأحيان يذكر الفائدة في التعبير عن المعنى بهذا الأسلوب الاستفهامي خاصة.

فالاستفهام قد يفيد الإنكار كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم ... ﴾ [٢] يقول : (المقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه ،لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت) [٣] .

وقد يفيد التقرير كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَل عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [٤] : (الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار : "عسيتم إن توليتم" لكان المخاطب أن ينكره ، فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا ،وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندى) [٥] .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١٩ . وينظر دلالات التراكيب د . محمد أبو موسى ٢٢٧-٢٢٩ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٠٠ .

(٣) التفسير : ٣/٢١٧ م٢ .

(٤) سورة محمد : ٢٢ .

(٥) التفسير : ٢٨/٦٤ م١٤ .

وقد يأتي الاستفهام في معرض التقرير ليفيد الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ... ﴾ (١)

يقول الفخر : (قال تعالى : ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ فهو استفهام في معرض التقرير، والمقصود منه الأمر ، قال النحويون : إنما جاء بالأمر في صورة الاستفهام لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه ، إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة ، وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الإنصاف ، لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يقبل ، ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان ، هل فهمتها ؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم) (٢).

وقد تنبه الفخر هنا إلى ما يثيره الاستفهام من معاني أرحب وأغزر من أن نحددها ، وأن المعاني التي يشير إليها لا نستطيع الإحاطة بها .

وقد يأتي الاستفهام للتعجب كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ... ﴾ (٣).

يقول الفخر : (كلمة تعجب أي لأي وجه ولأي معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك ، وجعلت ذاتها لذاتك وتمتعك، وحصلت الألفة التامة) (٤).

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٢٠ .

(٢) التفسير : ٢٢٧/٧ م٤ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٢١ .

(٤) التفسير : ١٧/١٠ م٥ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾.(١)

يقول الفخر : (قوله : ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فالمراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذى دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته ،لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك).(٢)

وقد يفيد التبكيت والتهكم كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.(٣)

يقول الفخر : (.. قوله : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله،ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلاّ لزيادة خير ومنفعة ،فقيل لهم هذا الكلام تنبيهاً على نهاية ضلالهم وجهلهم).(٤)

ويأتي الاستفهام لتعظيم ما عمل من عمل كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾.(٥)

يقول الفخر : (استفهام يفيد تعظيم الواقعة ،ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ،وما أقبح ما أقدمتم عليه ، وهوكما يقال للمذنب : هل تدرى من عصيت ، وهل تعرف من خالفت ؟).(٦)

---

(١) سورة يونس : ٣٤.

(٢) التفسير : ٩٣/١٧ م٩.

(٣) سورة النمل : ٥٩.

(٤) التفسير : ٢٠٥/٢٤ م١٢.

(٥) سورة يوسف : من الآية ٨٩.

(٦) التفسير : ٢٢٣/١٠ م٥.

وتدخل الهمزة على النفي فتفيد التقرير في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ﴾ (١)

يقول الفخر: (... إنه استفهام بمعنى التقرير، قال الشاعر :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

وأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ (٢)

وقد عده الخطيب القزويني من شواهد مجيء الهمزة للإنكار وذكر معها قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ، ثم يقول : أي الله كاف عبده، وأنتم خير من ركب المطايا ، لأن نفي النفي إثبات وهذا مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أي للتقرير بما دخله النفي ، لا للتقرير بالانتفاء) (٣) ، ويعني بذلك أن الإنكار إذا دخل على النفي كان لنفي النفي وهو إثبات ، والخطيب هنا كان أكثر تفصيلاً وتوضيحاً للمسألة .

ويرى الفخر كغيره من البلاغيين أن المستفهم عنه هو ما يلي الهمزة فيلحظ تغير المعنى بتغير بناء الجملة مع الاستفهام ، قال في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٤) : (فرق بين قولك أستهزئ بالله ، وبين قولك أبالله تستهزئ ، فالأول يقتضي الإنكار على عمل الاستهزاء ، والثاني يقتضي الإنكار على إيقاع الاستهزاء ، ولكن كيف أقدمت على إيقاع الاستهزاء في الله ؟ ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٦٠ .

(٢) البيت لجرير في مدح عبد الملك بن مروان . التفسير : ٤٣/٧ م٤ .

(٣) الإيضاح : ٢٣٨ .

(٤) سورة التوبة : من الآية ٦٥ .

ونظيره قوله تعالى : * لَا فِيهَا غَوْلٌ * والمقصود ليس نفي الغول بل نفي أن يكون خمر الجنة محلاً للغول).(١)

ويقيس الفخر هنا التقديم في الاستفهام بالتقديم في النفي .

ويبدو هنا تأثره بعبد القاهر الذى اهتدى إلى كثير من الدقائق في معرفة الفروق بين اختلاف بناء الكلام مع الاستفهام ، آخذاً ذلك من سيبويه وهو يضع أصول بحث التقديم في الاستفهام على حد ما بينت في الباب الأول .

فقد ألح عبد القاهر على مسألة الفروق وأسهب فيها وبين الفرق بين تقديم الاسم وتقديم الفعل بعد الهمزة ، وكشف عن خطأ أساليب كثيرة .

ولم يهتم الفخر كثيراً بدخول الهمزة قدر اهتمامه بمعنى الاستفهام في الآيات ؛ لأنه بصدد دراسة المعنى الذى يحمله الاستفهام في الآية على حد ما رأينا سابقاً . وله نظرات تفرد بها في مدخول الهمزة ، من ذلك أنه بين السبب في دخول الهمزة على الفعل والمراد بها إنكار المبتدأ ، وسمى هذا العدول عن الاسم إلى الفعل مجازاً ؛ لأنه يخرج عما قرره النحويون من أن المبتدأ اسم دائماً ، ولا يجوز أن يقع الفعل موقع المبتدأ أو أن يخبر عنه .

يقول في قوله تعالى : * سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ *(٢) : (معناه سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لهم بعد ذلك ؛ لأن القوم كانوا قد بلغوا في الإصرار واللجاج والإعراض عن الآيات والدلائل إلى حالة ما بقي فيهم البتة رجاء القبول بوجه ... ولو قال :

---

(١) التفسير : ١٢٥/١٦ م٨ .

(٢) سورة البقرة : ٦ .

سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لما أفاد أن هذا المعنى إنما حصل في هذا الوقت دون ما قبله، ولما قال : ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أفاد أن هذه الحالة إنما حصلت في هذا الوقت، فكان ذلك يفيد حصول اليأس وقطع الرجاء منهم).(١)

والمشهور في إعراب تركيب الآية أن " سواء " خبر مقدم ، و " أأنذرتهم أم لم تنذرهم " في موضع المبتدأ والتقدير : إنذارك وعدم إنذارك سواء، ومجيء المصدر في صوره فعله مبتدأ في الآية إشارة إلى اعتبار الزمن، وفي ذلك إفادة حصول اليأس وانقطاع الرجاء منهم كما قال الفخر.

واعتبر الزمخشري هذا العدول من جنس كلام العرب المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، ولم يحدد سراً بلاغياً كما فعل الفخر.(٢)

ويرى أبو السعود أن في هذا العدول إيهام التجدد.(٣)

ويجمع الآلوسي بين رأيي الفخر وأبي السعود فيقول : إن في العدول إيهام التجدد نظراً لظاهر الصيغة، كما أن فيه دلالة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم فعل ذلك الإنذار وأوجده، ولو عبر بالمصدر لقات هذا المعنى، وفي الفعل أيضاً تسلية له عليه السلام.(٤)

وهذه التسوية في تقدير معنى الاستفهام أخرج الاستفهام من الإنشاء إلى الخبر، وإلى ذلك أشار أبو علي الفارسي الذي يعد أول من

---

(١) التفسير : ٢/٤٦ م١.

(٢) ينظر الكشاف : ١/١٥٢.

(٣) ينظر إرشاد العقل : ١/٣٦.

(٤) ينظر روح المعاني : ١/١٢٩.

صرح بهذا الخروج ،بينما اقتصر غيره على تخريجه مخرج الخبر ولم يصرحوا به[1] يقول : (لفظه لفظ الاستفهام و معناه الخبر ،وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام ،وإن كان خبراً ؛لأن فيه التسوية في الاستفهام)[2] .

---

(١) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام ،د . عبد العظيم المطعني : ٩ .

(٢) الحجة في القراءات السبع : ١/١٩٨ .

دراسة الاستفهام مع جوابه :

جاء السؤال مع جوابه في القرآن الكريم في مواضع عدة ، وتعرض الفخر لبعض منها ، وتطرق إليها من جهة فائدتها في الكلام ، وقد تناولها الزمخشري قبله ، ولكنه درسها من ناحية مطابقة الجواب للسؤال [١] ، وإن كان الفخر ينقل منه بعضها .

فالسؤال يأتي مع جوابه للتفهيم والإيضاح ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [٢] ، يقول في : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ إنه سؤال ، وقوله : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ جواب ، والسائل والمجيب هو الله تعالى ، وذلك يدل على علمه بالغيب بل بجميع المعلومات ، فإن قيل : ما الفائدة في أن يذكر الجواب معه ؟ ، قلنا : لأن إيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح) [٣] .

وقد يأتي السؤال والجواب لبيان ظهور الأمر ووضوحه حتى لا ينكره منكر ولا يدفعه دافع .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [٤] : (قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ سؤال ، وقوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾ جواب ، فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياً ،

---

(١) ينظر البلاغة القرآنية ، الدكتور محمد أبوموسى : ٣٦٦ ومابعدها .

(٢) سورة النبأ : ١-٢ .

(٣) التفسير : ٣/٣١ م١٦ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ١٢ .

وهذا إنما يحسن في الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ولا يقدر على دفعه دافع) .[١]

ومن أسرار البلاغة التي يحملها السؤال مع جوابه ، أن الجواب قد يبدو أنه غير مطابق للسؤال ، ولكنه في الحقيقة جاء ناظراً إلى نواحي عدة .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ .[٢]

يقول الفخر : (" مَا أَعْجَلَكَ " سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول : طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك ، وأما قوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين :

الأول : أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين : أحدهما : إنكار نفس العجلة ، والثاني : السؤال عن سبب التقدم ، فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني ، فقال لم يوجد مني إلا تقدم يسير ، لا يحتفل به في العادة ، وليس بيني وبين من سبقته إلا تقدم يسير . . . ثم أعقبه بجواب السؤال عن العجلة . .

الثاني : أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام) .[٣]

وهذا رأى الزمخشرى أخذه عنه الفخر وارتضاه .

---

(١) التفسير : ١٢/١٧٤ م٦ .

(٢) سورة طه : ٨٣-٨٤ .

(٣) التفسير : ٢٢/٩٩ م١١ .

دخول همزة الاستفهام على العطف :

يرى الفخر أن حرف العطف حين يأتي بعد الهمزة يكون العطف على جملة مقدرة ،وأن وراءه أسراراً تأتي في الكلام . وهو في ذلك يتبع رأى الزمخشرى فيها و ينقل منه أيضاً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) : (قوله : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً ﴾ واو عطف دخلت عليه همزة الاستفهام، وقيل:الواو زائدة وليس بصحيح ،لأنه مع صحة معناه لا يجوز أن يحكم بالزيادة . . قال صاحب الكشاف : الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات والبينات وكلما عاهدوا) (٢) .

وفي هذه الواو آراء متعددة ذكرها العلماء :

الرأى الأول : أنها مؤخرة عن تقديم، وأنها معطوفة على ماقبلها ، وقد قدمت همزة الاستفهام عليها ،لأن لها الصدارة في الكلام ،وهذا رأى سيبويه والجمهور .

الرأى الثاني : أن الهمزة في محلها الأصلي، وأن العطف يكون على جملة مقدرة بينهما وبين العاطف ، وهذا رأى الزمخشرى ،وقد خرج عنه في عدة مواضع .

الرأى الثالث : أنها زائدة، وهذا الرأى ينسب إلى الأخفش (٣) وقد أنكره الفخر على حد ما رأينا .

و يفرق الفخر بين الهمزة الداخلة على الجملة ،وبينها داخلة على واو العطف من حيث المعنى ، ففيها زيادة إنكار الفعل .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٠ .

(٢) التفسير : ٣/ ٢١٧ .

(٣) ينظر مغني اللبيب : ١/ ١٦ ،البحر المحيط : ١/ ٣٣٢ .

يقول : (همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه ، وتارة تدخل عليه وبعدها واو فهل بين الحالتين فرق ؟ نقول فرق أدق مما على الفرق ، وهو أن يقول القائل : أزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس ؟ يذكره للإنكار ، فإذا قال : أوزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس ؟ يشير بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين كأنه يقول بعدما سمع ممن صدر عن زيد هو في الدار أغفل وهو في الدار بعد ؛ لأن الواو تنبيء عن ضيف أمر مغاير لما بعدها ، وإن لم يكن هناك سابق ، لكنه يومي ء بالواو إليه زيادة في الإنكار).(١) فالواو تنبيء عن وجود فعلين قبيحين الأول : في الجملة ، والثاني : مقدر .

ثم خرج من هذا الفرق بين مجيء الواو وعدم مجيئها إلى بيان الفرق بين مجيء الواو ومجيء الفاء فيفرق بينهما ، ويذكر أن الفاء تأتي عقب الإنكار الذى لا يكون بينه وبين المردود عليه فاصل ، وتأتي الواو إذا فصل بينهما بفاصل .

فيقول في قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾(٢) : (فإن قيل : قال في موضع : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ وقال ههنا : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ بالفاء فما الفرق ؟ نقول : ههنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه ، فإن قيل : ففي يس سبق ذلك بقوله قال : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ ﴾ نقول : هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الإنكار على عقيب الإنكار

---

(١) التفسير : ١٥٥/٢٨ م١٤ .
(٢) سورة ق : ٥ - ٦ .

استدل بدليل آخر ،وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1]
ثم ذكر الدليل الآخر ،وههنا الدليل كان عقيب الإنكار فذكر بالفاء) .[2]

وقد تتبعت كثيراً من الآيات التي صُدِّرت بالعطف بعد الاستفهام
فلم أجده يذكر أسراراً لعطفها .

---

(١) سورة يس : من الآية ٧٩ .
(٢) التفسير : ٥٥/٢٨ م١٤ .

الأمــــــــــــر

ذكر الفخر تعريفاً للأمر ، وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ ... فإذا جاء أمرنا ﴾[(١)] يقول : (فاعلم أن لفظ الأمر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم ، والدليل على أنك إذا قلت هذا أمر بقي الذهن يتردد بين المفهومين ، وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما ، وتمام تقريره مذكور في كتاب المحصول في الأصول)[(٢)].

وقد رجعت إلى كتابه (المحصول) فوجدته يسهب في الحديث عن الأمر وماهيته عند الأصوليين ، وذكر خمسة عشر وجهاً لخروجه عن معناه الحقيقي .[(٣)]

ويذكر ابن السبكي أن الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه لا يشترطون الاستعلاء ولا العلو مستدلين بقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[(٤)] ورد عليه بأن الأمر في الآية بمعنى المشورة ، أولأن فرعون كان مستعلياً لهم .[(٥)]

وتراه في التفسير حين يفسر هذه الآية في سورة الأعراف يذكر وجهين نسبهما للزجاجي ، أحدهما : أنه قول فرعون ، والآخر : أنه قول الملأ ، وذكر حجة من قال بكل وجه ، دون أن يتعرض للعلو والاستعلاء في الآية ،[(٦)] أما في سورة الشعراء فيفسر ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي فما رأيكم فيه وما الذي أعمله .[(٧)] لكنه في المحصول يبين فساد قول من قال إن الرتبة غير معتبرة

---

(١) سورة المؤمنون : من الآية ٢٧ .

(٢) التفسير : ٩٥/٢٣ م١٢ .

(٣) ينظر المحصول في علم أصول الفقه : ٥٧/١ ومابعدها .

(٤) سورة الأعراف : من الآية ١١٠ ، وسورة الشعراء : من الآية ٣٥ .

(٥) ينظر عروس الأفراح : ٣١٠/٢ .

(٦) ينظر التفسير : ٢٠٥/١٤-٢٠٦ م٧ .

(٧) ينظر التفسير : ١٣٢/٢٤ م١٢ .

فيقول : (والصحيح أن يقال الأمر طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء)[1] .

وقد يكون قول ابن السبكي مثبت في كتاب آخر للفخر غير التفسير والمحصول ، المهم أن ابن السبكي قد ذكر خمسة وعشرين معنى للأمر نقل أكثرها مع أمثلتها من محصول الإمام الفخر[2] .

والذى يعني الباحث هنا أن الفخر وقف في التفسير أمام كثير من أساليب الأمر ، وبين إفادتها لمعاني بلاغية تفهم من السياق .

فقد يأتي الأمر ليفيد الزجر والنهي ، كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾[3] يقول : (وإن كان في اللفظ أمراً إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ومنع في غاية المبالغة)[4] .

ثم أجد أبا حيان يرى أن في الأمر تهكماً وإهانة وسخرية لمن أجرم من قريش، ولا يرى فيه نهياً ولا منعاً[5] ، وأقول : إن الأمر وإن كان تهكماً لكنه تهكم يفضي إلى الزجر والنهي .

ومن مجيء الأمر للزجر ما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[6] يقول : (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، لأن التأمل في حال أحد القسمين يكفي في معرفة القسم الآخر ، وأيضاً يقال الغرض منه زجر الكفار عن كفرهم وذلك إنما يعرف بتأمل أحوال المكذبين والمعاندين)[7] .

---

(١) المحصول : ١/٢٢ .

(٢) ينظر عروس الأفراح : ٢/٣١٤ .

(٣) سورة المرسلات : ٤٦ .

(٤) التفسير : ٣٠/٢٨٣ .

(٥) ينظر البحر المحيط : ٨/٤٠٨ .

(٦) سورة آل عمران : ١٣٧ .

(٧) التفسير : ٩/١٢ م٥ .

ومراده بالقسم الأول أحوال المكذبين ، والقسم الثاني أهل الإيمان فالتأمل في أحوال المكذبين يدل على أحوال المصدقين وأهل الإيمان .

ومن المعاني التي يفيدها الأمر التهديد والتخويف كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، يقول : (... إن قوله : ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد وتخويف ،لأنه أمروطلب ومعناه أن هؤلاء الكفارلا يعلمون ولا يفوزون بمطالبهم البتة) (٢) .

وكلام الفخرالأخير : (ومعناه أن هؤلاء ...) مفهوم من تكملة الآية ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لا من الأمر والطلب .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (٣) يقول : (﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ (٤) وهو أمرتهديد كقوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ (٥) ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أى ذلك الذى تحذرونه ،فإن الله يخرجه إلى الوجود ، فإن الشيء إذا حصل بعد عدمه ، فكأن فاعله أخرجه من العدم إلى الوجود) (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ خطاب لمن تاب من الأعراب في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ لذلك فالفخر ألحقه بالتهديد ، مع أن

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٣٥ .

(٢) التفسير : ٢١٤/١٣ م٧ .

(٣) سورة التوبة : ٦٤ .

(٤) في التفسير (استهزؤا) وهذا خطأإملائي،والصحيح ما ذكرته .

(٥) سورة التوبة : من الآية ١٠٥ .

(٦) التفسير : ١٢٤/١٦ م٨ .

ظاهر الآية يدل على الترغيب في عمل الخير كما يقول أبو السعود : (* وَقُلِ اعْمَلُوا * زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح الذى من جملته التوبة).(١)

ويحمل أبوحيان الأمر على التهديد والوعيد موافقاً في ذلك الفخر يقول : (صيغة أمر ضمنها الوعيد والمعتذرون التائبون من المتخلفين هم المخاطبون).(٢)

وألاحظ أن سياق الآيات قبلها لا تحتمل الأمر معنى التهديد ، لأنها تبين سعة رحمته بالمستغفرين التائبين نقرأ قوله تعالى : * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * فالآيات تفيض بمعاني قبول التوبة ، والتطهير من الذنوب، نتأمل قوله : * تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم * وقوله : * وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ * ثم يقول : * أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ... * و * أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *.

ثم يأتي بعدها قوله : * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ... * وفيها زيادة في الترغيب في عمل الصالحات ، ولذلك يبدو أن القول هو ما قاله أبوالسعود والله أعلم.

ويستدرك الفخر في مواضع أن الأمر قد يأتي ولا يراد به معناه الحقيقي ، كما في الأمر الذى يدل على التهديد في قوله تعالى : * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ *(٣) يقول : (كيف قال : * تَرَبَّصُوا * بلفظ الأمر ،

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٤/١٠٠.

(٢) البحر المحيط : ٥/٩٦.

(٣) سورة الطور : ٣١.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوجب المأمور به أو يفيد جوازه ، وتربصهم كان حراماً ؟ نقول : ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد ، معناه تربصوا ذلك فإنا نتربص الهلاك بكم ، على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل ، وهو أمر لتهوين الأمر على النفس ، كما يقول القائل لمن يهدده برجل أشكوك إلى زيد فيقول اشكني أي لا يهمني ذلك).(١)

ثم يصل هذا الكلام بالحديث عن فائدة مجيء الأمر دون غيره من الأساليب في الكلام ، وما يحمله من معان لا تتحقق في غيره ، يقول :

(وفيه زيادة فائدة ، وذلك لأنه لو قال : "لا تشكني" لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى ، فإن قيل : لو كان كذلك لقال : تربصوا أو لا تربصوا كما قال : ﴿ اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ نقول : ليس كذلك ، لأنه لو قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكني أو لا تشكني يكون ذلك مفيداً عدم خوفه منه ، فإذا قال : "اشكني" يكون أدل على خوفه ، فكأنه يقول : أنا فارغ عنه ، وإنما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك).(٢)

فالأمر يفيد ما لا يفيده النهي ، واقتران النهي بالأمر يفيد ما لا يفيده النهي وحده .

ويفيد الأمر الإهانة والتنكيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٣) ، يقول : (ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم ، وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ..).(٤)

---

(١) التفسير : ٢٨/ ٢٥٥-٢٥٦ م١٤ .

(٢) المصدر السابق الجزء والصفحة .

(٣) سورة العنكبوت : ٥٥ .

(٤) التفسير : ٢٥/ ٨٣ م١٣ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١) يقول : (﴿ اصْلَوْهَا ﴾ فانه أمر تنكيل وإهانة كقوله : ﴿ ذُقْ (٢) إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٣).

وقد يأتي الأمر في الأفعال التي لا يمكن أن تحدث أبداً استبعاداً لها كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ (٤) يقول : (قوله : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى في الإعادة، وذلك كقول القائل للرجل : أتطمع فيَّ وأنا فلان ، فيقول : كن كما شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقي ... واعلم أن هذا الكلام إنما يحسن ذكره على سبيل المبالغة، مثل أن يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميتك ، ولو كنت عين الغني فإن الله يفقرك ، فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة ، أما في نفس الأمر فهذا محال) (٥).

واتبع الفخر في هذا التأويل الطبرى فقد قال فيها : (قال ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله كما كنتم) (٦) أى قدروا أن تكونوا ما شئتم حجارة أو حديداً .

وقال بهذا المعنى الزمخشرى أيضاً ، وجمع من العلماء كأبي السعود وأبي حيان (٧) وعده الإمام الخطيب القزويني من أساليب الإهانة (٨) ،

---

(١) سورة يس : ٦٤ .
(٢) القوس في التفسير بعد (ذق) وهذا يوهم أنها ليست جزءاً من الآية، والصحيح أنه بعدها .
(٣) سورة الدخان : ٤٩ ، التفسير : ٢٦/١٠١، م١٣ .
(٤) سورة الإسراء : ٥٠ ومن الآية : ٥١ .
(٥) التفسير : ٢٠/٢٢٧ م١٠ .
(٦) جامع البيان عن تأويل آى القرآن : ١٥/٩٩ م٩ .
(٧) ينظر الكشاف : ٢/٤٥٢ ، إرشاد العقل السليم : ٥/١٧٧ ، البحر المحيط : ٦/٤٦ .
(٨) ينظر الإيضاح : ٢٤٢ .

أي إهانة لهم إذ يسلبهم كل ما للإنسان مما يمتازبه ، وتابعه العلوي في هذا الوجه [(١)] .

ويأتي الأمر للدعاء والخضوع لله سبحانه وتعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ [(٢)] يقول : (ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل بل المقصود منه إظهار الخضوع والذلة والعبودية ،وقد أمرنا بالدعاء في أشياء نعلم أنها توجد لا محالة كقوله : ﴿ قُل رَبِّ احْكُم ﴾ [(٣)] ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ [(٤)] .

وقول الفخر : (ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل) لا يشمل كل الدعاء ،لأن الدعاء قد يكون لطلب الفعل ،وقد يأتي لإظهار الخضوع فكان ينبغي أن يقول : (ليس المقصود من الدعاء دائماً طلب الفعل ...) ، وأرى أن المراد من الدعاء في الآية طلب الفعل على سبيل التضرع .

ويأتي الأمر للحث على المداومة على العمل والإخلاص فيه . كما بينه في قوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [(٥)] يقول : (قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر

---

(١) ينظر الطراز : ٢٨٣/٣ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٩٤ .

(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١١٢ - المثبت في المصحف العثماني ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم ﴾ على قراءة حفص ،وما ذكره الفخر بصيغة الأمر ﴿ قُل رَبِّ احْكُم ﴾ قراءة سبعية صحيحة قرأ بها حمزة وابن كثير وغيرهما ، كتاب الإقناع في القراءات السبع ،لابن الباذش : ٧٠٤/٢ .

(٤) سورة غافر : من الآية ٧ . التفسير : ١٥٢/٩-١٥٣ م٥ .

(٥) سورة العنكبوت : ٥٦ .

بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان :

إحداهما : المداومة ،أي يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل .

الثانية : الإخلاص ،أي يا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري)(١) .

وقد يأتي الأمر لإدخال السرور على المخاطب ،كما في قوله تعالى : * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ *(٢) يقول : (منهم من قال قوله : * كُلُوا * ليس بأمر إيجاب ولا ندب ،لأن الآخرة ليست دار تكليف ، ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون ندباً ،إذا كان الغرض منه تعظيم ذلك الإنسان وإدخال السرور في قلبه)(٣) .

ومن المعاني البلاغية التي أشار إليها الفخر صيغة الأمر السهو أو طلب الغوث والاستزواح ،كما في قوله تعالى : * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ *(٤) يقول : (فإن قيل : كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم ؟ قلنا : يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك في أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ،ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاستزواح)(٥) .

---

(١) التفسير : ٢٥/٨٥ م١٣ .

(٢) سورة الحاقة : ٢٤ .

(٣) التفسير : ٣٠/١١٢ م١٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٧ .

(٥) التفسير : ٢٣/١٦ .

والمعنى الثاني أقرب الى السياق و قرائن الأحوال ، فالكفار في موقف يائس عصيب يطلبون النجاة بأسلوب الدعاء ، لأن فيه استرواحاً و تخفيفاً لما هم فيه .

و مثل هذه الآية الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَاكِثُونَ ﴾ (١) .

و تتعدد أغراض الأمر في هذه الآية ، ولذلك فقد حرص الفخر على ذكرها جميعاً .

يقول : (اختلفوا في أن قولهم : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ على أى وجه طلبوا ، فقال بعضهم على التمني ، وقال آخرون على وجه الاستغاثة ، و إلاّ فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب ، وقيل لا يبعد أن يقال إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب) (٢) .

والفخر الرازى يذكر الرأى الأول ، والثاني بالفعل المبني للمعلوم فيقول : (فقال بعضهم) (وقال آخرون) والثالث بالمبني للمجهول (قيل) فكأنه يستبعده بصيغة التمريض ، مع أنه ذكره أولاً في الآية السابقة .

وأقول : إن الانسان قد يطلب ما علم أنه لا يكون تذللاً وأملاً أن تغير الحال ، خصوصاً إذا كان الدعاء موجهاً إلى الله سبحانه و تعالى فكأنهم مع علمهم طمعوا أن يغير الله سبحانه - وهو القادر على ما يشاء - من حالهم فيخرجهم منها ، وحينئذ يكون المطلوب من الدعاء حصول الفعل أى طلب الخروج على وجه الحقيقة طمعاً وأملاً .

---

(١) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٢) التفسير : ٢٢٨/٢٧ م١٤ .

وتعدد الوجوه البلاغية للمعنى الواحد لا يعني أنها متعارضة بل تتداخل وتتقارب، لأن النص البليغ قد يثير في النفس عدة معان تشعر بها نفس المتلقي من السياق وقرائن الأحوال [١]، وعلماؤنا الأجلاء كانوا يدركون ذلك، ولذلك فالفخر حرص في أكثر تفسيره على ذكر ما قيل في المعنى الواحد من أغراض كما سبق، أو استنباط وجوه متعددة يراها في الآية.

ويتعاقب الأمر والخبر، فقد يأتي الأمر ويراد به الخبر، ويأتي الخبر ويراد به الأمر، وذلك لمعان.

ويشير الفخر إلى هذه المعاني بعد أن يؤولها فقد تكون الجملة الخبرية شرطاً وجزاءً، ولكن معناها أمر، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ [٢] يقول: (﴿ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ وإن كان لفظه أمراً، إلا أن معناه معنى الشرط والجزاء، والمعنى سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل ذلك منكم) [٣].

وبعد أن يبين الفخر الغرض من مجيء الأمر على هذه الصورة يشرح قاعدة هذا التعاقب، ويدلل عليه بالأمثلة، وهذه عادته في بعض أبواب المعاني كما قلت سابقاً. يقول: (واعلم أن الخبر والأمر يتقاربان، فيحسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر، أما إقامة الأمر مقام الخبر فكما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [٤] وفي قوله: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً ﴾ [٥]، وأما إقامة الخبر مقام الأمر فكقوله:

---

(١) ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. صبّاح دراز: ١٦-١٧.

(٢) سورة التوبة: من الآية ٥٣.

(٣) التفسير: ١٦ / ٩٠ م٨.

(٤) سورة التوبة: من الآية ٨٠.

(٥) سورة مريم: من الآية ٧٥.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ (١) ﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ﴾ (٢)
وقال كُثَيِّر :

أسيئي بِنَا أو أحسِنِي لا ملومةٌ لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ) . (٣)

وقد تحدث الفراء عن مجيء الخبر في صورة الأمر عند تأويل معنى هذه الآية وذكر بيت كُثَيِّر هذا . (٤)

وذكر الزمخشري هذه القاعدة في معرض الحديث عن الأمر المراد به الخبر ، ويبدو أن الفخر نقلها من الزمخشري ، فيقول: إن فيها الإشارة إلى التسوية بين فعل المأمور به وتركه يقول : (أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه) (٥)
وفي هذه التسوية دلالة على نهاية السخط على هؤلاء المنافقين الذين عصوا الله ، ورد أعمالهم إليهم .

ومثل الأمر الذي يحمل معنى الشرط والجزاء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . (٦) قال فيه : (الصيغة أمر والأمر

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٣٣ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

(٣) سها الفخر فذكر بيت كُثَيِّر في سياق قيام الخبر مقام الأمر والصحيح أنه أمر قائم مقام الخبر ؛ لأن المعنى لا نلومك سواء تسيئين أو تحسنين . وقد رجعت إلى نسخة المطبعة الخيرية فوجدت الكلام هو هو ، فهو من الفخر ، أو النساخ . الديوان : ١٠١ ، التفسير : ٦ (٩٠/١ - ٩١ م٨ ويستدل الخطيب القزويني بهذا البيت على مجيء الأمر للإباحة ؛ لأن المراد لا أنت ملومة ولا مقلية ، فمهما اخترت في حقي من الإساءة والإحسان فأنا راض به غاية الرضى . الإيضاح : ٢٤٢ .

(٤) ينظر معاني القرآن : ١/٤٤١ .

(٥) ينظر الكشاف : ٢/١٩٥ .

(٦) سورة العنكبوت : ١٢ .

لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟ نقول : قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا إن تتبعونا نحمل خطاياكم ، وهم كذبوا في هذا فإنهم لا يحملون شيئاً) .(١)

ولم يذكر الفخر السر البلاغي في هذا التحول الأسلوبي ، إنما اكتفى بتأويل معنى الأمر في قوله (لنحمل) .

ويرى ابن عطية أن صيغة الأمر جاءت لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع.(٢)

وتأتي الجملة الخبرية فتفيد الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ والْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾(٣) ، فيذكر وجهين :

(الأول : أنه تعالى لو ذكره بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود إلّا إذا شرعنا فيها بالقصد والاختيار ، وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ولم تعلم المرأة ذلك حتى انقضت العدة وجب عليها أن لا يكون ذلك كافياً في المقصود ، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العدة إلّا إذا قصدت في أداء التكليف ، أما لما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر زال ذلك الوهم ، وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود ، سواء علمت ذلك أو لم تعلم ، وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب) .(٤)

الثاني : يذكر قول الزمخشري ، وهو الحث على المسارعة في الامتثال حتى كأنهن امتثلن الأمر بالتربص .

وما ذكره الفخر سر دقيق يرجعه إلى حكم فقهي ، فالعدة تحصل وتقع وإن لم يقصد بها .

---

(١) التفسير : ٢٥/٤١ م١٣ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٧/١٤٣ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

(٤) التفسير : ٦/٩٢ م٣ .

النهـــــــــي

يعرف بعض البلاغيين النهي بأنه : (طلب الكف عن فعل وصيغتـه لا تفعل وهي حقيقة في التحريم)[١] .

ويذكر الفخر حكمه في المحصول فيقول : (ظاهر النهي التحريم)[٢] .

وقد تناول النهي في التفسير ، وذكر أسراراً متنوعة له ، ودقائق تتعلق بما دخل عليه النهي .

من ذلك أنه يعرض لأساليب النهي التي خاطب الله بها رسولـه صلى الله عليه وسلم عن أمور لم يقدم عليها ، فيتناولها بالدرس والتحليـل ، فيذكر أنها تأتي إما لمواصلة التنبيه عن ارتكاب مثلها ، أو أنها خطاب لغيـره موجه له لأنه نبي الأمـة .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[٣] .

يقول : (... فإن قيل إن الرسول كان معلوماً منه أنه لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة فما فائدة هذا النهي ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكـن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ، ولا تتخذ غيـره وكيلاً في أمورك ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه فـي التوحيد)[٤] .

---

(١) بغية الإيضاح : ٢/٥٦ .

(٢) ١/٤٦٩ .

(٣) سورة القصص : من الآية ٨٨ .

(٤) التفسير : ٢٥/٢٣ م١٣ .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾[١] : (إنه عليه السلام ما كان يطيع أحداً منهم فما الفائدة في هذا النهي ؟ الجواب : المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد ...)[٢] .

ويأتي نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر من الأمور تغليظاً وزجراً وهذا أعلى درجة في التنبيه .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٣] .

يقول : (والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم ، ولا يجوز أن تجزع عن إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل ، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة والله أعلم)[٤] .

وقد ذكر الزمخشري أن مثل هذه الصور التي يخاطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتصور وقوعها تفيد الإلهاب والتهييج[٥] .

ودرس العلوي هذا الفن في بحث خاص وسماه الإلهاب والتهييج وعده باباً من أبواب البلاغة العالية[٦] ، ولا شك أن في هذا الأسلوب إثارة

---

(١) سورة الإنسان : ٢٤ .

(٢) التفسير : ٢٥٨/٣٠ م١٥ .

(٣) سورة الأنعام : ٣٥ .

(٤) التفسير : ٢١٨/١٢-٢١٩ م٦ .

(٥) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٣٧٧ .

(٦) ينظر الطراز : ١٦٥/٣ ومابعدها .

للحس والشعور والوجدان ، تجعلها أشد تمسكاً بالأمر ، وأحسن تلقياً له .

وقد يأتي النهي للدعاء والتضرع كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (١) : (إن المقصود من الدعاء إظهار التضرع إلى الله تعالى لا طلب الفعل ، ولذلك فإن الداعي كثيراً ما يدعو مما يقطع بأن الله تعالى يفعله سواء دعا أو لم يدع) (٢) .

وقد يوجه النهي لمن لا يكون منه فعل على سبيل الاستعارة مبالغة في النفي في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣) .

وقبل أن يذكر الفخر سره البلاغي يخرجه نحوياً ، فيقول : (فإن قيل كيف جاز دخول النون المؤكدة في جواب الأمر ؟ قلنا : فيه وجهان :

الأول : أن جواب الأمر جاء بلفظ النهي ، ومتى كان كذلك حسن إدخال النون المؤكدة في ذلك النهي كقولك : انزل من الدابة لا تطرحنك . . .

الثاني : أن التقدير : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، إلا أنه جيء بصيغة النهي في نفي اختصاص الفتنة بالظالمين ، كأن الفتنة نهيت عن ذلك الاختصاص ، وقيل لها لا تصيبي الذين ظلموا خاصة ، والمراد منه المبالغة في عدم الاختصاص على سبيل الاستعارة) (٤) .

واتبع الفخر النحويين القائلين بأن جملة : (لا تصيبن) نهي ؛ لأن نون التوكيد لا تدخل على جملة النفي ، كالفراء والزمخشري ، وحمل أبو حيان على هؤلاء فقال : (وأخذ الزمخشري قول الفراء وزاده فساداً

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦ .
(٢) التفسير : ١٥٦/٧ م٤ .
(٣) سورة الأنفال : ٢٥ .
(٤) التفسير : ١٥٤/١٥ م٨ .

وخبط فيه فقال :"وقوله : لا تصيبن لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر أو نهياً بعد أمر ...")[١] وله مناقشات مسهبة حول هذه المسألة أثبتها في تفسيره .

وقد يأتي النهي بصيغة النفي ليدل على معاني بلاغية تفهم من السياق كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[٢] . وقد ذكر الفخر قول الفراء[٣] في أن الخبر هنا أفاد النهي ، ثم بين فائدة هذا النفي بقوله : (إن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه)[٤] .

كذلك تأتي آية عدم المضارة من الأم بولدها على صيغة النفي فيبين أن معناها النهي دون أن يذكر سراً بلاغياً يقول في قوله تعالى : ﴿ .. لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ... ﴾[٥] : (وإن كان خبراً في الظاهر ، لكن المراد منه النهي وهو يتناول إساءتها إلى الولد بترك الرضاع وترك التعهد والحفظ)[٦] .

وقد اتبع الفخر قراءة عاصم برفع الراء المشددة على خلاف باقي السبعة الذين قرؤوها بفتح الراء على أنها نهي[٧] ، ولذلك عدها خبراً لفظاً نهياً في المعنى ، والغرض البلاغي كما يبدو لي أن في النهي توجيه الخطاب إليها مباشرة ، وفي النفي تقرير في أن عدم المضارة كأنه أمر حاصل لا بد أن تلتزم به المرأة .

---

(١) البحر المحيط : ٢٨٤/٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٨٣ .

(٣) ينظر معاني القرآن : ٥٣/١ .

(٤) التفسير : ١٧٦/٣ م٢ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٣٣ .

(٦) التفسير : ١٣٠/٦ م٣ .

(٧) ينظر البحر المحيط : ٢١٤/٢ - ٢١٥ .

ويأتي النفي بـ " لن " ويراد به النهي للوثوق من وقوع الفعل ، وللدلالة على صدق قائله ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ... ﴾.(١)

يقول : (.. في ﴿ لَن تَتَّبِعُونَا ﴾ على صيغة النفي بدلاً عن قوله لا تتبعونا على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال : ﴿ لَن تَتَّبِعُونَا ﴾ يعني لو أذنتكم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى)(٢).

فالفخر هنا قد استنبط المعنى من دلالة السياق ، ودلالة الحال التي كان عليها المخلفون ، فهم يريدون المخالفة ، ولكن جاء النص القرآني القاطع ﴿ لَن تَتَّبِعُونَا ﴾ نهياً ونفياً قاطعاً ، ونرى كيف أن (لن) قد أفرغت قدراً كبيراً من معناها على النهي الإلهي .

ويأتي النفي في الآية فيؤوله بعض العلماء بأنه نهي في اللفظ والمعنى ، لكن الفخر يدفع ذلك بالأدلة المفهومة من سياق الآية ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾.(٣)

ويذكر أن ابن عطية ممن قال بأنها نهي لفظاً ومعنى ، فيرد عليه يقول : (﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ الضمير عائد إلى الكتاب على الصحيح ، ويحتمل أن يقال هو عائد إلى ما عاد إليه الضمير من قوله " إنه " ومعناه لا يمس القرآن إلا المطهرون ، والصيغة إخبار لكن الخلاف في أنه هل هو بمعنى النهي كما أن

---

(١) سورة الفتح : من الآية ١٥ .

(٢) التفسير : ٢٨ / ٩١م١٤ .

(٣) سورة الواقعة : ٧٩ .

قوله تعالى : ﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ إخبار بمعنى الأمر ، فمن قال المراد من الكتاب اللوح المحفوظ ،وهو الأصح على ما بينا ، قال هو إخبار معنى كما هو إخبار لفظاً ،إذا قلنا أن المضمر في " يَمَسُّهُ " للكتاب ،ومن قال المراد المصحف اختلف في قوله ، وفيه وجه ضعيف نقله ابن عطية أنه لفظاً ومعنى وجلبت إليه ضمة الهاء لا للإعراب ولا وجه له).(١)

ثم يرجح الفخر أنه نفي وإخبار لفظاً ومعنى ،وأن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ بدليل : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ فمكنون أى محفوظ غاية الحفظ فذكر اللازم وأراد الملزوم ،وذكر كلمة كتاب لتأكيد الرد على الكفار الذين قالوا إنه مخترع ،ومكنون رداً على من قال : أساطير الأولين.

ثم يرى الفخر أنه لو كان المراد نفي الحدث لقال لا يمسه إلاّ المتطهرون أو المطّهرون بتضعيف الطاء.(٢)

وابن عطية وإن كان قد ذكر هذا الوجه الضعيف وهو أن ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ نهي - كما قال الفخر- إلا أنه لم يرتضه وجهاً للآية ، بل إنه فنده .

يقول أبوحيان : (قال ابن عطية : والقول بأن ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ نهي قول فيه ضعف،وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة ، وقوله بعد ذلك ﴿ تَنْزِيل ﴾ صفة فإذا جعلناه نهياً جاء معناه أجنبياً معترضاً بين الصفات ،وذلك لا يحسن في وصف الكلام).(٣)

---

(١) التفسير : ٢٩/١٩٤ م١٥.

(٢) ينظر التفسير : ٢٩/١٩٣-١٩٤ م١٥.

(٣) البحر المحيط : ٨/٢١٤.

و يتوالى الأمر والنهي في القرآن الكريم، ويقف الفخر عند بعض صورهما و يبين ما يفيده كل أسلوب .

فالنهي وإن كان يأتي توكيداً للأمر إلاّ أن الأمر يدل على وقوع الحدث مرة واحدة ،والنهي يدل على دوامه كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ... ﴾.(١)

يقول الفخر : (لقائل أن يقول لا فرق بين أن نقول : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً ﴾ ،لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده ، فما الفائدة في التكرير ؟ والجواب : الأمر لا يفيد إلاّ مرة واحدة فلا يتناول كل الأوقات ،أما النهي فإنه يتناول كل الأوقات ،فلعله يمسكها بمعروف في الحال ،ولكن في قلبه أن يضارها في الزمان المستقبل ، فلما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً ﴾ اندفعت الشبهة وزالت الاحتمالات)(٢) ، فالنهي يفيد الدوام ،لأن (لا) هنا تدل على طول النفي ،فهو يمتد إلى ما بَعُدَ من الزمن فصار النهي عن المضارة يتناول سائر الأوقات ويعمها .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾(٣) فالنهي جاء تأكيداً للأمر ،وتنبيهاً على خطورته .(٤)

---

(١) سورة البقرة : ٢٣١ .

(٢) التفسير : ٦/١١٨ م٣ .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٢ .

(٤) ينظر التفسير : ٦/٧٢ م٣ .

الحـــــــذف

الحذف من الأساليب التي تعمل على تحريك الحس ،وتنشيط الخيال ، وهو كثير جداً في القرآن الكريم .

وقد تنوعت وقفات الإمام الفخر أمام أساليبه ،فكثيراً ما كان يقدر ماحذف منه، وقد يرجعه إلى دلالة ما قبله، أو إلى علم المخاطب به ،وأحياناً يذكر أنه حذف للإيجاز والاختصار ،وقد يكشف عن سره البلاغي وهو في هذا يعول على النفس والعقل ، وسنأتي بشواهد من كل نوع ليتضح لنا مساره .

وقبل أن أخوض في هذه الأنواع ،أود أن أذكر له كلاماً بين فيه أغراض حذف الخبر،ذكره وهو يفسر قوله تعالى : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (١) وقد حصرها في ثلاثة أغراض :

١ - علم المخاطب به .

٢ - اختصار العبارة.

٣ - طول القصة .

يقول : (... وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر ،قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر ،كما أن قائلاً إذا أراد أن يخبر غيره بأن زيداً وصل وقال إن زيداً ، ثم قبل قوله جاء ،وقع بصره على زيد ورآه جالساً عنده يسكت ولا يقول جاء ،لخروج الكلام عن الفائدة .

وقد يسكت عن ذكر الخبر من أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال من جاء ، فإنه إن قال زيد يكون جواباً ،وكثيراً ما نقول زيد ولا نقول جاء .

وقد يكون السكوت عن الخبر إشارة إلى طول القصة ،كقول القائل

---

(١) سورة الواقعة : ٨ .

الغضبان من زيد ويسكت ثم يقول ماذا أقول عنه) .(١)

أعود إلى ما مضى فأقول : إنه كان كثيراً ما يقدر المحذوف لدلالة ما قبله أو لعلم المخاطب به .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴾(٢) : (في الآية محذوف والتقدير : ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه)(٣) ، وكقوله في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ ﴾(٤) : (ومعناه فحلق ففدية ، وإنما جاز الحذف لعلم المخاطبين بالحذف ، ولدلالة الخطاب عليه) .(٥)

ويذكر الفخر أحياناً أن الحذف قد وقع للاختصار والإيجاز دون أن يلاحظ سراً بلاغياً وراءهما ، واتبع في ذلك طريقة من سبقه من العلماء كسيبويه الذى ذكر أن الحذف قد يكون للاتساع والاختصار ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾(٦) : (والمعنى " أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون أتباعه ؟ ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه ، وتعديده عليه ذنوبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن قلة إحساني إليك ، أمن إهانتي لك ؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت ؟ ") .(٧)

---

(١) التفسير : ١٤٥/٢٩ م١٥ .
(٢) سورة الحجر : ١٠ .
(٣) التفسير : ١٦٦/١٩ م١٠ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٩٦ .
(٥) التفسير : ١٣/٥ م٣ .
(٦) سورة آل عمران : من الآية ٧٣ .
(٧) التفسير : ١٠٧/٨ م٤ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ (١)

ذكر فيها قولين :

(الأول : المراد واسأل أهل القرية ،إلاّ أنه حذف المضاف للإيجاز والاختصار ،وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب ،قال أبوعلي الفارسي: ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات .

والثاني : قال أبو بكر الأنباري : المعنى اسأل القرية والعير والجدران والحيطان فلا تجيبك . . .

ثم يذكر وجهاً ثالثاً أعتقد أنه رأيه : (وهو أن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً كاملاً فقد يقال فيه ، سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال) (٢).

والقول الأول في إطلاق المجاز على الحذف رأى ينسب إلى عبد القاهر، فقد قال إن المجاز في الحذف يأتي بسبب تغيير الحكم الإعرابي للكلمة في الجملة ، (فالقرية) كانت مجرورة ثم نصبت يقول : (واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى ،فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس بحقيقة فيها ،ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسب إعراب المضاف في نحو : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ والأصل : واسأل أهل القرية ،فالحكم الذى يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ،والنصب فيها مجاز) (٣).

وهنا يميل الفخر إلى رأى عبد القاهر بدلالة قوله : (وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب ،ثم نراه في الوجه الثالث : يفسر وجه المجاز في الآية.

---

(١) سورة يوسف : من الآية ٨٢.

(٢) التفسير : ١٨/١٩٤ م ٩.

(٣) أسرار البلاغة : ٣٦٢.

والقول الثاني فيه إحالة السؤال إلى الجمادات والبهائم حقيقة من حيث أنه نبي وقد تجيب عليه ، وهذا القول مستبعد في تفسير الآية .

والفخر وإن كان يحيل سبب الحذف إلى الاختصار والإيجاز فهو يريد أن يبين أن من الأساسيات التي بنيت عليها بلاغة الأساليب العربية حذف الفضول من الكلام ، وإقامة العبارة على الاختصار وتصفيتها مما يثقلها ، لتؤدي الغرض المسوقة إليه .

وقد وقف الفخر في تفسيره عند كثير من الآيات ، وبين ما حذف منها ، ثم ذكر سرها البلاغي ، وما أفاده هذا الحذف دون الذكر .

فقد يحذف حرف من الكلام فيكون له الأثر في قوة المعنى وإظهار أهميته كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ (١) يقول بعد أن يتساءل عن السبب في عدم عطف: ﴿ غُلَّتْ ﴾ بالفاء مع أنها جاءت جزاءً : (حذف العطف وإن كان مضمراً ، إلاّ أنه حذف لفائدة ، وهي أنه لما حذف كان قوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كالكلام المبتدأ به ، وكون الكلام مبتدأ به يزيد قوة ووثاقة ، لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به ، وقوة الاعتناء بتقريره ، ونظير هذا الموضع في حذف فاء التعقيب قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ (٢) ولم يقل فقالوا أتتخذنا هزواً) (٣) .

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٦٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٦٧ .

(٣) التفسير : ١٢/٤٤-٤٥ م٦ .

فالفاء هنا توصل الكلام وتجعله واحداً ، وسقوطها ينبئ عن وجود جملتين ، فكأن الحذف يفصل بين لونين من ألوان المعنى ،وقيام الكلام على القطع والاستئناف مما يقوي الأسلوب ،ويجعله أشد في رد التهمة وإبطالها .

ومن الملاحظ أن جملة : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاء ،فهي إنشاء في المعنى ، والجملة ما قبلها : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ خبرية ولا يعطف الإنشاء على الخبر ،والفخر من الذين يمنعون هذا العطف فيبدو أن ما ذهب إليه الفخر سهو منه ،وعلى ذلك لا يجوز تنظير هذه الآية بآية : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ لأن هذه الآية بنيت على حذف حرف التعقيب ، فقام الكلام على القطع والاستئناف والحذف،وقيام الكلام على القطع والاستئناف مما تنبه إليه عبد القاهر وذكر أنه مما يطرد في الكلام يقول : (ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف يبدءون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ،ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاماً آخر) .(١)

وقد يحذف من العبارة ما يجعلها تنتقل إلى المجاز فتكون أبلغ في أداء المعنى ،كحذف اللام في قوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾(٢) يقول : (تقدير الكلام : لهم درجات عند الله ،إلّا أنه حسن هذا الحذف؛ لأن اختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها ، فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة) .(٣)

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٦٣ .

(٣) التفسير : ٩/ ٧٧م ٥ .

ويذكر أبوحيان أن بعض المصنفين قد رد على قول الرازى هذا واتهمه بالجهل بلسان العرب ؛لأنّ حذف لام الجر لا مسوغ له هنا ،وحرف الجر لا يحذف إلاّ عند الضرورة أو لكثرة الاستعمال ،وهذه الآية ليست من تلك المواضع التي يحذف فيها ،والمعنى حسن جداً دون الحذف ؛ لأنه تعالى لما قال قبلها : ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وكأنه منتظر للجواب فجاء الجواب : لا ليسوا سواء بل هم درجات عند الله.[1]

وقد اتبع الفخر الرازى رأى أكثر المفسرين كمجاهد والسدى[2]، وزاد عليهم إدراكه للمجاز الذى حققه الحذف ،فصيره أكثر بلاغة وحسناً.

وقد يحذف الفعل إشارة إلى شدة الموقف ،وسوء الحال حيث لا تستطيع النفس أن تتكلم .

كما في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . .﴾[3] يقول : (قال تعالى : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ يعني يقولون أو قائلين " رَبَّنَا أَبْصَرْنَا " وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم ؛لأنّ الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم).[4]

ففي الحذف تعبير عن شدة الموقف الذى هم فيه ،وتصوير لحالتهم اليائسة.

ويحذف المنادى لإحساس النفس بالقرب والزلفى عند الطلب والدعاء كما في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾[5] فقد حذف (رَبَّنَا) في الدعاء الرابع دون غيرها

---

(١) ينظر البحر المحيط :٣/١٠٢ .

(٢) ينظر جامع البيان،للطبري :٤/١٦٢م٣ .

(٣) سورة السجدة : من الآية ١٢ .

(٤) التفسير : ٢٥/١٧٨م١٣ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦ .

مما سبق لتحقيق معنى القرب : (إنما حذف النداء إشعاراً بأن العبد إذا واظب على التفرغ نال القرب من الله تعالى ، وهذا سر عظيم يطلع منه على أسرار أخرى)[١] .

وكثيراً ما يأتي الحذف عند الفخر لعظمة المحذوف ولفخامته ولعمومه فلا يقدره ولا يقيده ،كما في حذف متعلق الفعل في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢] يقول : (ذكر إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم)[٣] .

ويبقى الخبر في الجملة ويسقط ما عداه لتبقى مبهمة ،فتكون أدخل في باب التخويف والوعيد ،وذلك عند ذكر جزء الكافرين يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾[٤] : (وأما قوله : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ ففي نصب قوله ﴿وَيَوْمَ﴾ أقوال ... أنه محذوف وتقديره ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ كان كيت وكيت ،فترك ليبقى على الإبهام الذي هو أدخل في التخويف)[٥] .

وقد يوعز سر الحذف إلى ذهاب الوهم كل مذهب عند حذفه ،لأنه لو ذكر لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان .

وذهاب الوهم كل مذهب مقولة اشتهر بها الرماني[٦] الذي يعد

---

(١) التفسير : ٧/١٦٢ م٤ .

(٢) سورة الحج : من الآية ٣٨ .

(٣) التفسير : ٢٣/٣٩ م١٢ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ٢٢ .

(٥) التفسير : ١٢/١٩١ م٦ .

(٦) ينظر النكت في إعجاز القرآن : ٧٠-٧١ .

من أوائل من التمس علة للحذف ،وأرجعه إلى إحساس النفس وشعورها ، لتتوهم كثيراً من الأشياء التي يحتمل أن يحمل معانيها اللفظ المحذوف في الكلام.

فالحذف يكون عند الفخر لهذا السبب يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ (١) : (في خبر إنّ قولان : أحدهما : أنه محذوف كأنه قيل جمعوا المخازى ،والثاني : هو قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . والأول أحسن لوجهين : أحدهما : أنه أبلغ لأنه إذا حذف الجواب ذهب الوهم كل مذهب من العتب ،وإذا ذكر بقي مقتصراً على المذكور) (٢).

وهنا لا يقدر الفخر محذوفاً إنما يعول على عقل السامع إذ يحركه الكلام ، ويثيره ،ويدفعه إلى التفكير ، فيقع على ما لا نهاية له مما يكتنه اللفظ المحذوف ،ولو ذكر لقل التأثير ،ولذلك فهو يقول : (ولو ذكر بقي مقتصراً على المذكور) .

ويحسن هذا الحذف حين يأتي في مقام الوعيد ،كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (٣) يقول في تأويل المعنى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعد من العذاب والحساب فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم ،

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٥٠.

(٢) التفسير : ١١/٩٤ م٦.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢١٠.

إذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل عليهم في باب الوعيد ، وإذا لم يذكر كان أبلغ لانقسام خواطرهم وذهاب فكرهم كل وجه ، ومثله قوله تعالى : * فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ... * (١) والمعنى : (أتاهم الله بخذلانه إياهم من حيث لم يحتسبوا) (٢) .

ويهتم الفخر بتقدير جواب (لو) المحذوف في كثير من الآيات ، والكشف عن الأوجه البلاغية لهذا الحذف ، وتأكيد ذلك وتوضيحه بالأقوال الجارية على ألسنة الناس في مخاطباتهم العادية ، وهذه طريقة جرى عليها الفخر في أكثر نظراته البلاغية كما بدا لنا في تفسيره .

وقد لاحظ الفخر أن حذف جواب (لو) كثير في القرآن والشعر ، وفيه من البلاغة والحسن ما ليس في إظهاره ، وقد تتبعت هذا الأسلوب في تفسيره فوجدته إما أن يذكر السر البلاغي لحذفه ، أو أنه يقدره في الكلام دون ذكر السر البلاغي .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ من الْمُؤْمِنِينَ * (٣) : (قوله : * وَلَوْ تَرَى * يقتضي جواباً ، وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وجاز حذفه لعلم المخاطب به ، وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر ، ولو قدرت الجواب كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم ، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى : أنك لو قلت لغلامك :

---

(١) سورة الحشر : من الآية ٢ .

(٢) التفسير : ٢٣٣/٥م٣ .

(٣) سورة الأنعام : ٢٧ .

والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع من المكروه ، من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم الخوف ، ولم يدر أي الأقسام تبقى ، ولو قلت : والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ، ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف).(١)

فالفخر هنا يقارن بين الحذف والذكر ، قاصداً إلى إظهار محاسن الحذف وما يثيره في نفس المتلقي .

وكان يلح على هذا الأمر في أكثر مواضع الحذف .

كذلك يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴾(٢) : (واعلم أن جواب " لو " محذوف والتقدير : لكان خيراً لهم وأعود عليهم ، وذلك لأنه غلب عليهم النفاق ... وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل ، وهو كقولك للرجل لو جئتنا ثم لا تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً).(٣)

وفي مواضع كثيرة كان يقدر المحذوف دون التعرض لغرض بلاغي فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾(٤) : (التقدير : لرأيت منظراً هائلاً وأمراً فظيعاً وعذاباً شديداً).(٥)

---

(١) التفسير : ١٢/٢٠٠-٢٠١ م٦ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٥٩ .

(٣) التفسير : ١٦/١٠١ م٨ .

(٤) سورة الأنفال : ٥٠ .

(٥) ينظر التفسير : ١٥/٨٣ م٨ .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ... ﴾(١) : (يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً)(٢).

والحقيقة أن حصر الجواب بمثل هذه العبارات المقدرة ، لا تغني عما تثيره جملة فعل الشرط من الصور ، وما تبثه من إيحاءات تملأ الإحساس .

وقد يتعدد المحذوف في الآية الواحدة ، فتقوم العبارة على الإبهام الذى يحتاج إلى فكر حتى يفهم المحذوف .

وقد أدرك الفخر عظم هذا الحذف ، فذكر أنه لا يفهم إلاّ بالتأمل والفكر ثم بالتوفيق من الله تعالى .

ففي أوائل سورة (ق) حذف المقسم عليه ، والمضرب عنه ، تعظيماً لأمرهما ، قال تعالى : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾(٣).

يقول في حذف المقسم عليه الذى تقديره : (إنك لمنذر) أو : (إنّ الرجع لكائن) (فإن قيل : فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم ، في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه وأتى بأمر لا يفهم إلاّ بعد الفكر العظيم ، ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز ؟ فنقول : إنما حذف المقسم عليه ، لأنّ الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر ، وذلك لأنّ من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه ، فإذا قال له غيره هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمته)(٤).

---

(١) سورة السجدة : من الآية ١٢.

(٢) التفسير : ١٧٨/٢٥ م١٣.

(٣) سورة ق : ١-٢.

(٤) التفسير : ١٤٩/٢٨ م١٤.

كذلك يحذف المضرب عنه الذي تقديره : (ما الأمر كما يقولون) لأمرين ذكرهما : (فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحاً ، وأتى بحرف الإضراب استفيد منه أمران :

أحدهما : أنه يشير إلى أمر آخر قبله .

وثانيهما : أنه يجعل في [1] الثاني تفاوتاً عظيماً مثل ما يكون ومما لا يذكر ، وههنا كذلك ، لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد) [2] .

وهكذا رأينا الفخر يلح على مسألة عدم تحديد المحذوف في كثير من مواضع الحذف فهو يقول : (فترك ليبقى الإبهام أدخل في التخويف) ، (في حذف الجواب ذهب كل مذهب) ، (إذا لم يذكر كان أبلغ لانقسام خواطرهم وذهاب فكرهم كل وجه) ، (لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم مع الذكر) .

ثم إنه يربطه بالنفس ، وتطلعها إلى ما غمض من المعنى ، ووصف إحساسها وهي تصل إلى هذا المعنى من خلال القرائن والأحوال .

---

(١) استقام المعنى بعد أن وضعت (في) قبل (تفاوتاً) ولم يذكرها الفخر في كلامه ، وقد تأكدت من ذلك بالرجوع إلى نسخة المطبعة الخيرية مع النسخة التي نقلت منها ، ينظر التفسير : ٤٣٥/٨ ، المطبعة الخيرية .

(٢) التفسير : ١٤٩/٢٨ - ١٥٠ م١٤ .

الإيجـــــاز

يعد الإيجاز سمة من سمات الأسلوب العربي ،بل من أهم مميزاته التي قام عليها ،وقد تحدث عنه كثير من بلغاء العرب -على حد ما بينت سابقاً- .

وقد عرض الفخر في تفسيره للإيجاز بقسميه ،اللذين تعارف عليهما العلماء ،ولكن دون تصريح بالمصطلحين.

وسأكتفي بالحديث هنا عن إيجاز القصر ؛لأن إيجاز الحذف يدخل في باب الحذف ،وقد رأينا كيف كان يرجع السر في الحذف إلى الإيجاز في كثير من الآيات .

وقد رأيته يتحدث في نهاية الإيجاز عن الحذف والإضمار والإيجاز تحت باب واحد ،وفي فصل الإيجاز تعرض لآيات من إيجاز القصر فقط. وعرفه بقوله : (وحده أنه العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال) .(١)

ومن الآيات التي عنى الفخر ببيان وجه الإيجاز فيها في التفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢) وذلك بعقد المقارنة بينها وبين قول العرب : (القتل أنفى للقتل) (٣) ،استخرج من خلالها فروقاً دقيقة يقول : (اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة (٤) بالغة إلى أعلى الدرجات ؛وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى

---

(١) نهاية الإيجاز : ٣٤٧ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧٩ .

(٣) نسب هذا القول للملك (أردشير) أحد ملوك الفرس ،وترجمه عنه أحد بلغاء العرب.

(٤) لم أعرف ماذا يقصد (باللغة) فرجعت إلى طبعة المطبعة الخيرية فلم أجده يذكرها فهي زائدة فقد قال (.. مع جمع المعاني بالغة إلى أعلى الدرجات) . التفسير : ١٠٨/٢ .

بألفاظ كثيرة ،كقولهم : قتل البعض إحياء للجميع ،وقول آخرين : (أكثروا القتل ليقل القتل) ،وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم : (القتل أنفى للقتل) ، ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا ،وبيان التفاوت من وجوه :

أحدها : أن قوله : * ولكم في القِصَاصِ حَيَاةٌ * أخصر من الكل ؛ لأن قوله : * وَلَكُمْ * لا يدخل في هذا الباب ،إذ لا بد في الجميع من تقدير ذلك ،لأن قول القائل [1] : (قتل البعض إحياء للجميع) لا بد فيه من تقدير مثله ،وكذلك في قولهم : (القتل أنفى للقتل) ، فإذا تأملت علمت أن قوله : * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * أشد اختصاراً من قولهم : (القتل أنفى للقتل) .

وثانيها : أن قولهم :(القتل أنفى للقتل) ظاهره يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال ،وقوله : * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * ليس كذلك ؛ لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص ،ثم ما جعله سبباً لمطلق الحياة ؛لأنه ذكر الحياة منكرة ،بل جعله سبباً لنوع من أنواع الحياة.

وثالثها : أن قولهم : (القتل أنفى للقتل) فيه تكرار للفظ القتل ، وليس قولهم * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * كذلك.

ورابعها : أن قول القائل : (القتل أنفى للقتل) ،لا يفيد إلا الردع عن القتل ،وقوله : * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد .

---

(١) في التفسير (القاتل) والصحيح (القائل) فهو ولا شك خطأ في الطبع .

وخامسها : أن نفي القتل مطلوب تبعاً من حيث إنه يتضمن حصول الحياة ،وأما الآية فإنها دالة على حصول الحياة ،وهو مقصود أصلي فكان هذا أولى .

وسادساً : أن القتل ظلماً قتل ،مع أنه لا يكون نافياً للقتل ،بل هو سبب لزيادة القتل ،إنما النافي لوقوع القتل هو القتل المخصوص وهو القصاص، فظاهر قولهم باطل . أما الآية فهي صحيحة ظاهراً وتقديراً ،فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب) .(١)

ولا أشك في أن نظرات الفخر للآية والمثل قامت أساساً على ما قاله العلماء قبله فيهما ،وله أفضلية جمعها، ثم إضافته إليها.وفي هذا تظهر عقليته الفذة، وقدرته على استنباط المعاني من الكلمات والكشف عن أدق خصوصيات التراكيب .

فالرماني قارن بينهما ،وذكر بأن الآية تفضل المثل من جهة بعدها عن التكرار وحسن تأليفها بتلاؤم حروفها .(٢)

ثم ذكرها أبو هلال العسكرى وبين فضلها على المثل بما لا يخرج عما قاله الرماني .(٣)

وذكرها ابن سنان الخفاجي ،وبين فضلها من أربعة وجوه :

الأول : أن القتل الذى ينفي القتل ما كان على وجه القصاص والعدل .

الثاني : في ذكر الحياة إبانة للغرض المرغوب فيه ،ففيه زيادة في الإيضاح .

---

(١) التفسير : ٥/ ٦٠ - ٦١ م٣.

(٢) ينظر النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) :٧٢.

(٣) ينظر الصناعتين : ١٩٥.

الثالث : قلة حروفها ، فهي تحتوى على عشرة أحرف ، والمثل يحتوى على أربعة عشر حرفاً .

الرابع : بعد الآية عن التكرار في الحروف الذى يعد عيباً من عيوب الكلام[(١)] .

وللثعالبي حديث موجز مركز عن فضل الآية يقول فيه : (وفيه زيادة معاني حسنة ، فمنها إبانة العدل بذكر القصاص والإفصاح عن الغرض المطلوب فيه من الحياة والحث بالرغبة والرهبة على تنفيذ حكم الله به ، والجمع بين ذكر القصاص والحياة ، والبعد عن التكرير الذى يشق على النفس ، فإن قوله : " القتل أنفى للقتل " تكرار غيره أبلغ منه)[(٢)] .

كذلك كان لعبد القاهر نصيب فى الحديث عن الآية وذلك حين بين فائدة التنكير في (حياة)[(٣)] .

وما قاله الفخر يفضل عما قاله كل هؤلاء ، لأنها أكثر تفصيلاً وأدق معنى ، وإن كان يشترك مع الرماني في الوجه الثالث، وهو البعد عن التكرار، ومع ابن سنان في الوجه الأول والثالث والخامس والسادس ، ومع الثعالبي كذلك في بعض وجوهه .

ويرى الفخر أن الإيجاز يتحقق في قوله : ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ بحذف " لَكُمْ " (فهي لا تدخل في هذا الباب) على حد قوله ، وفي ذلك إثبات لحرف الجر " في " الذى يفيد الظرفية ، ولم يذكر ذلك في النهاية

---

(١) ينظر سر الفصاحة : ٢٠٩ .
(٢) الإيجاز والإعجاز : ١٢-١٣ .
(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٨٩ .

وهو يتحدث عن فضل هذه الآية ،ولذلك فقد قال السبكي : (ووقع في كلام الإمام فخر الدين في نهاية الإيجاز وكلام العسكري في الصناعتين أن الذي يؤدي معنى كلامهم في الآية الكريمة قوله تعالى : * الْقِصَاصِ حَيَاةٌ * (١)

ومن قال بذلك ليس أبوهلال العسكري إنما الرماني ،فقد ذكر أن الإيجاز في * الْقِصَاصِ حَيَاةٌ * وأبوهلال (٢) نقلها عن الرماني .

والأصح -كما يبدو لي -أن الإيجاز يتحقق في آية * فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ * لأن المراد من الآية جعل القصاص ظرفاً للحياة.

وطريقة الفخر في الكشف عن وجه الإيجاز على أساس المفاضلة بين النصوص طريقة حسنة لمعرفة أدق خصوصيات المعنى الكامنة في الحروف والكلمات، لم تُشبع في كتب البلاغة.

وقد وقف الفخر كذلك عند بعض الآيات الموجزة وبين وجه إيجازها والمعاني التي تحملها وتحيط بها ، كما في قوله تعالى : * .. قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ * (٣)

قال : (... إنه تعالى لما بين هذا (٤) جمع كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة المبدأ والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال : * قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ... * وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به ، وفيه فوائد :

---

(١) عروس الأفراح : ٣/١٨٥ .

(٢) ينظر الصناعتين : ١٩٥ .

(٣) سورة الرعد : من الآية ٣٦ .

(٤) المراد بها معنى قوله تعالى : * وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ * سورة الرعد : من الآية ٣٦ .

أولها : أن كلمة (إنما) للحصر ومعناه إني ما أمرت إلا بعبادة الله تعالى ، وذلك يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهي إلا بذلك .

وثانيها : أن العبادة غاية التعظيم ، وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك .

وثالثها : أن عبادة الله لا يمكن إلا بعد معرفته ... فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال ...) .[1]

وهكذا أخذ الفخر يستنبط معاني ودلالات الآية ، ثم قال : (فإذا تأمل الإنسان في هذه الألفاظ القليلة ، ووقف عليها عرف أنها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين) .[2]

وقد يقف أمام الآيات المشتملة على الإيجاز ، ويبين وجه شمولها لكثير من المعاني دون الغوص فيها، والإسهاب في شرحها .

يقول في قوله تعالى : * الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ *[3] : (إن قوله * خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين) .[4]

ويقول أيضاً في قوله تعالى : * وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ *[5] : (قوله * وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ * من الألفاظ الفصيحة جداً الدالة مع اختصارها على المبالغة الكثيرة ، ونظيره في الاختصار ما قاله في وصفه الجنة * وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ *[6] وقال : * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا *.[7]

---

(١) (٢) التفسير : ٦٢/١٩ م١٠ .
(٣) سورة الشعراء : ٧٨ .
(٤) التفسير : ١٤٤/٢٤ م١٢ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٠٥ .
(٦) سورة الزخرف : من الآية ٧١ .
(٧) سورة النازعات : ٣١ ، التفسير : ٢١٧/٥ م٣ .

وهذه العبارات القرآنية الموجزة وأمثالها كانت مدار هذا الباب عند البلاغيين وأهل اللغة، فهي تحمل فرائد من المعاني الرحبة المترامية الأطراف ما يبهر العقل، وصيغت على طريقة متفردة لتسير مسير الأمثال.

فالحرث في قوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ يشمل كل ما زرع في الأرض، والنسل يشمل كل ذات روح من إنسان وحيوان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴾ تلخيص دقيق لما تحتويه الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهذه الكلمات بحروفها القليلة تعني الكثير من فيوضات المعنى المراد، مع ما فيها من القرب وشرف اللفظ وحسن المعنى.(١)

أما آية: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ فقد بين ابن قتيبة ما فيها من المعاني يقول: (كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر، والحب والثمر والحطب، والعصف واللباس والنار والملح؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء).(٢)

ويكشف الفخر عن الإيجاز في أساليب المجاز، كالاستعارة والكناية. فالاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لعلاقة المشابهة، وقد أشار الفخر إلى أنها حين تأتي في الكلام فإنها تدل على معاني كثيرة، فيقول وهو يتحدث عن معنى إحياء الأرض بعد موتها في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٣): (واعلم أن وصفه تعالى

---

(١) ينظر الإيجاز والإعجاز، للثعالبي: ١١.

(٢) تأويل مشكل القرآن: ٥.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٦٤.

ذلك بالإحياء بعد الموت مجاز ؛لأن الحياة لا تصح إلا على من يدرك ،ويصح أن يعلم ،وكذلك الموت ،إلا أن الجسم إذا صار حياً حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء ،والنشور والنماء ،فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء، وهذا من فصيح الكلام الذي على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة).(١)

فالحياة والموت تتجاوزان معانيهما الأصلية ،لتعبرا عن معاني كثيرة جاءتا على سبيل الاستعارة .

وقد ذكر عبد القاهر أن من مناقب الاستعارة أنها تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ .(٢)

كذلك أسلوب الكناية يؤدي المعنى على وجه الإيجاز بجملة أخرى ، وهذه الجملة تنوب مناب الجملة المحذوفة ،وهي تحمل من المعاني ما لا تحمله الجملة الأصلية ، يذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(٣) قال : (جعل قوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(٣) قال : (جعل قوله : ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ ﴾ قائماً مقام قوله فاتركوا العناد ،وهذا هو الإيجاز الذي هو أحد أبواب البلاغة ،وفيه تهويل لشأن العناد لإنابة اتقاء النار منابه ، متبعاً ذلك بتهويل صفة النار).(٤)

فالأسلوب يكون موجزاً إن تحققت به الكناية ،وإذا بقي على معناه الأصلي فلا إيجاز فيه .

---

(١) التفسير : ٤/٢٢٠ م٦ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢٤ .

(٤) التفسير : ٢/١٣٢ م١ .

وقد ذكر الزمخشري الكلام السابق وهو يتحدث عن الكناية وزاد عليه بأن قال : (فوضع : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ موضعه - أي موضع فاتركوا العناد - ؛لأنّ اتقاء النار لصيقه وضميمة تركه العناد من حيث إنه من نتائجه).(١)

ولذلك فقد رد عليه السيد الشريف بأنه لو قيل : فاتركوا العنـــاد لكانت تلك الوسائط مرادة أيضاً فلا إيجاز بسبب الكناية .(٢)

وأقول إن الفخر لم يرد ربط أسلوب الكناية بالمعنى الكنائي ،وقد اقتضب من عبارة الزمخشري ما يدل على أنه يريد وصف أسلوب الكناية بالإيجاز دون اعتبار الوسائط التي تؤدي إلى المعنى الكنائي .

وهكذا فالفخر يرى أن أساليب البيان تحقق الإيجاز من خلال تعبيراتها الموجزة المعبرة عن فيوضات من المعاني .

---

(١) الكشاف : ٢٤٩/١ .

(٢) ينظر حاشية السيد الشريف الجرجاني على الكشاف : ٢٤٩/١ .

التوكيد

الأساليب التي تفيد التوكيد كثيرة جداً ، ومنتشرة في أكثر أبواب البلاغة ، فأساليب البيان قد تفيد التوكيد ، وكثير من أساليب المعاني تفيد التوكيد كالذكر والحذف والتكرار والفواصل والجمل المنفصلة والاعتراض . . . وغيرها .

ويتسع مبحث التوكيد عند الفخر فلا يشمل التأكيد بالأدوات فحسب بل يمتد ليشمل التأكيد بأكثر أساليب المعاني .

وسأعرض هنا لما اهتم به من مظاهر التوكيد في التعبير ، وأسبق ذلك بما ذكره من الحديث عن دواعي التوكيد .

ذكر الفخر في تفسيره قصة المبرد مع الكندى يقول : (روى الأنبارى أن الكندى المتفلسف ركب إلى المبرد وقال : إني أجد في كلام العرب حشواً ، أجد العرب تقول : عبد الله قائم ، ثم تقول إن عبد الله قائم ، ثم تقول : إن عبد الله لقائم ، فقال المبرد : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر لقيامه).(١)

ثم يتحدث الفخر عن بعض دواعي التوكيد كما ذكرها عبد القاهر في دلائل الإعجاز .

فقد يأتي التوكيد بـ (إنَّ) جواباً لسؤال سائل ، أو إذا كان الخبر بأمر يظن السامع خلافه ، أو إذا ظن المتكلم في الذى وجد أنه لا يوجد (٢) ويذكر أمثلة لكل هذا من القرآن والشعر ناقلاً ذلك من عبد القاهر (٣) .

---

(١) التفسير : ٢/٤١ م١ .

(٢) ينظر المصدر السابق الجزء والصفحة .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٣٢٤ ومابعدها .

ثم لا أجده في التفسير يطبق ما ذكره من كلام عبد القاهر ، ولا يهتم فيه كثيراً بالحديث عن دواعي التوكيد في الآيات ، إلا في مواضع قليلة .

فمن ذلك أنه يذكر أن التوكيد يأتي لمواجهة تكذيب المكذبين ، فالمرسلون لما كذبوا حملوا كلامهم توكيدات تزيل الشبهة العالقة في نفوس المكذبين يقول في قوله تعالى : * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * (١) : (إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم ، وأكدوه باليمين : * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وأكدوه باللام ؛ لأن " يعلم الله " يجري مجرى القسم ، لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب . . . وفي قوله : * رَبُّنَا يَعْلَمُ * إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ، وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون . . . يعني هو عالم بالأمور وقادر فاختار بعلمه لرسالته) (٢) .

فالتوكيد حاصل بالقسم ، والتقديم في قوله تعالى : * رَبُّنَا يَعْلَمُ * .

ويؤكد الفعل بضمير الفصل في الأمر الذى يظن الإنسان أنه من فعله ولا يؤكد به فيما لا يتوهم أنه من فعله ، فالتوكيد يتصاعد بحسب الاعتقاد . كما في قوله تعالى : * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * (٣) يقول : (قال تعالى : * وَأَنَّهُ خَلَقَ * ولم يقل وأنه هو خلق ، كما قال : * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان ، وفي الإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيداً ، لكن ربما يقول به جاهل ، كما قال من حاج إبراهيم الخليل

---

(١) سورة يس : ١٦ .

(٢) التفسير : ٥٢/٢٦ م١٣ .

(٣) سورة النجم : ٤٣ ، ٤٥ .

عليه السلام حيث قال : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (١) فأكد ذلك بذكر الفصل ، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعله أحد من النـــاس فلم يؤكد بالفصل ،ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى ، وكان في معتقدهم أن ذلــك بفعلهم كما قال قارون : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ (٢) ولذلك قـــال : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ لأنهم كانوا يستعبدون أن يكون رب محمد هـــو رب الشعرى ،فأكد في مواضع استبعادهم بالنسبة إلى الله تعالى الإسنـــاد ولم يؤكد في غيره) (٣).

والتأكيد بضمير الفصل يفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأمور .

ويأتي التأكيد ليحقق صحة ما اعتقده الإنسان من أن النفقة قربـــة عند الله ، يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّـــهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَـــةٌ لَّهُمْ﴾ (٤) : (﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهذه شهادة من الله تعالـــى

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٥٨ .
في النسخة (أنا أحيي وأميت) بسقوط الواو ،وهذا خطأ واضح فـي الآية والصحيح ما أثبته، وهـو خطأ مطبعي ،بدلالة عدم وجوده في نسخة المطـبعة الخيرية : ٧/ ٥٣٩ .

(٢) سورة القصص : من الآية ٧٨ .

(٣) التفسير : ٢٩/ ٢١ م١٥ .

(٤) سورة التوبة : من الآية ٩٩ .

للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، وقد أكد تعالى هـذه الشهادة بحرف التنبيه وهو قوله : " ألا " وبحرف التحقيق وهو قوله : "إنها" ثم زاد في التأكيد فقال : * سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ * وقد ذكرنا أن إدخال هذه السين يوجب مزيد التأكيد) .[1]

واهتم الفخر ببيان عناصر التوكيد في الآيات ، التي قد تكثر وقد تقل على حسب المعنى المراد تقريره .

فقد تتكاثر عناصر التوكيد في آية قصيرة مكونة من عدة كلمات كما في قوله تعالى : * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ *[2] يقول : (واعلم أن قوله : * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ * فيه أنواع من التأكيدات :

أحدها : أنه يفيد الحصر فقوله * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ * أى لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى ، وأقبل بالكلية على الله تعالى .

وثانيها : أن الألف واللام في لفظ البشرى مفيد للماهية ، فيفيد أن الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم .

وثالثها : أن لا فرق بين الإخبار و بين البشارة ، فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات . . .

ورابعها : أن المخبر بقوله : * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ * هو الله تعالى وهو أعظم العظماء . . .) .[3]

---

(١) التفسير : ١٦/١٧٢ م٨ .

(٢) سورة الزمر : من الآية ١٧ .

(٣) التفسير : ٢٦/٢٦٠ م١٣ .

فالتوكيد في الوجه الثالث ليس بحرف أو أداة أو تقديم ،إنما يكون أيضاً في اختيار الكلمة دون غيرها ،وفي المعنى الذى تحمله الجملة ،ولذلك فقد حرص الفخر على كشف طاقات الكلام في بث المعنى من خلال كل ما يتعلق بنظمه.

كما كان يهتم بهذه العناصر ويسمع ما قاله العلماء فيها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١) : (سمعت بعض الأفاضل قال: إنه تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات :

أولها : كلمة (إنَّ) وهي للتأكيد .

وثانيها : كلمة (كُلّ) وهي أيضاً للتأكيد .

وثالثها : اللام الداخلة على خبر (إنّ) وهي تفيد التأكيد أيضاً .

ورابعها : حرف (مَا) إذا جعلناها على قول الفراء موصولاً .

وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام وإن جميعهم والله ليوفينهم .

وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم .

وسابعها : النون المؤكدة في قوله : ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ .

فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على أمر الربوبية والعبودية ،لا يتم إلا بالبعث والقيامة والحشر والنشر ، ثم أردفه بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وهو من أعظم المؤكدات) . (٢)

والفخر هنا يسمى الآية التي تؤدى معنى واحداً كلمة واحدة و قد كرر هذا في عدة مواضع من التفسير .

---

(١) سورة هود : ١١١ .

(٢) التفسير : ١٨ / ٧١ م ٩ .

وكان يرى في الآية من المؤكدات ما لم يره غيره ، وقد تناول آية :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) وبين ما تحتويه من مؤكدات ، يقول : (... اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من المؤكدات :

أحدها : قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ والمعنى أنه سبحانه لكونه إلهاً ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد .

وهذه الدلالة كما أرى تفهم من صيغة تقديم الجار والمجرور على المسند إليه ومن ذكر لفظ الجلالة أيضاً ، ثم يقول :

ثانيها : أنه ذكر : ﴿ النَّاسِ ﴾ ثم أبدل منه ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ ، وفيه ضربان من التأكيد ، أما الأول : فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكريره ، وذلك يدل على شدة العناية ، وأما ثانياً : فلانه أجمل أولاً وفصل ثانياً ، وذلك يدل على شدة الاهتمام .

وثالثها : أنه سبحانه عبر عن هذا الوجوب بعبارتين ، الأولى : لام الملك في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ ، والثانية : كلمة : ﴿ عَلَى ﴾ وهي للوجوب في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

ورابعها : أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه ، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام .

وخامسها : أنه قال : ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ مكان " ومن لم يحج " ، وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج .

وسادسها : ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان .

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٩٧ .

وسابعها : قوله : ﴿ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ ولم يقل عنه ،لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان ،وعن طاعته ،فكان ذلك أدل على السخط .

وثامنها : أن في أول الآية قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴾ فبين أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الألهية وكبرياء الربوبية ،لا لجر نفع أو لدفع ضر ، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾)[1].

وقد ذكر الزمخشري بعض هذه الوجوه ،لكن الفخر أسهب وفصّل وأضاف فالزمخشري قد ذكر الوجه الثاني والسادس والسابع[2] ،والوجوه الأخرى استنبطها الفخر.

ويتعدد مثل هذا الكشف لعناصر التوكيد في تفسيره في الآية الواحدة. وقد لحظت أنه كثيراً ما كان يرجع الأسرار البلاغية لكثير من أساليب المعاني للتوكيد .

فالجملة في آخر الآية تأتي توكيداً ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ﴾[3] : (أنه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال : ﴿ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً ﴾)[4].

ويأتي التكرار توكيداً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾[5]

---

(١) التفسير : ٨/١٦٩-١٧٠م٤ .

(٢) ينظر الكشاف : ١/٤٤٨-٤٤٩ .

(٣) سورة الإسراء : ٥ .

(٤) التفسير : ٢٠/١٥٧م١٠ .

(٥) سورة المائدة : من الآية ١١٠ .

يقول : (أنه تعالى اعتبر الإذن في خلق الطين كهيئة الطير ، وفي صيرورته ذلك الشيء طيراً ، وإنما أعاد قوله : * بِإِذْنِي * تأكيداً لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وإيجاده).(١)

ويأتي المصدر لتأكيد فعله في قوله تعالى : * وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً *(٢) ، يقول : (وإنما ذكر المصدر وهو قوله : * تَفْصِيلاً * لأجل تأكيد الكلام وتقريره كأنه قال وفصلناه حقاً ، وفصلناه على الوجه الذى لا مزيد عليه والله أعلم).(٣)

ومثله قوله تعالى : * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً *.(٤)

وقد تأتي الصفة توكيداً في قوله تعالى : * تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ *(٥)
يقول الفخر : (إن التوكيد طريقة مشهورة في كلام العرب ، كقوله : * وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وقال : * وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ * ، والفائدة فيه أن الكلام الذى يعبر عنه بالعبارات الكثيرة ويعرف بالصفات الكثيرة أبعد عن السهو والنسيان من الكلام الذى يعبر عنه بالعبارة الواحدة ، فالتعبير بالعبارات الكثيرة يدل على كونه في نفسه مشتملاً على مصالح كثيرة لا يجوز الإخلال بها . أما ما عبر عنه بعبارة واحدة فإنه لا يعلم منه كونه

---

(١) التفسير : ١٣٤/١٢ م٦ .
(٢) سورة الإسراء : من الآية ١٢ .
(٣) التفسير : ١٦٧/٢٠ م١٠ .
(٤) سورة النساء : ٦١ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ١٩٦ .

مصلحة مهمة لا يجوز الإخلال بها ، وإذا كان التوكيد مشتملاً على هذه الحكمة، فإن ذكره في هذا الموضوع دلالة على أن رعاية العدد في هذا الصوم من المهمات التي لا يجوز إهمالها ألبتة) .(١)

والفخر في كلامه السابق يبين فائدة التوكيد إذا نشأ عن تعدد الصفات في الكلام وقوله تعالى : * الَّتِي فِي الصُّدُورِ * و : * يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ * قيود جاءت توكيداً ، ولكل منها سر خاص دعا لمجيئه .

---

(١) التفسير : ٥/١٦٩م٣٠ .

القصـــــــــر

هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص.(١)

تحدث عنه الفخر في نهاية الإيجاز بعد الحديث عن (إنّ) واقتصر فبين أدواته وما تختص به من معاني ، وذكر منها: إنما والنفي والاستثناء.

لكنه في التفسير ذكر طرقاً أخرى للحصر ، فالتقديم قد يدل على الحصر و تعريف الطرفين كذلك .

و بين إفادة كثير من صور التقديم لمعنى الحصر ، و قد بينت رأيه في هذا في باب التقديم ، فكثير من صور تقديم الجار والمجرور عنده تفيد الحصر.

يقول في قوله تعالى : * وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... *(٢) : (إن قوله : * وَلَهُ أَسْلَمَ * يفيد الحصر وله أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره).(٣)

ومثله قوله تعالى : * بِيَدِكَ الْخَيْرُ *(٤) ، وقوله : * لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ *(٥) وقوله تعالى : * وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *.(٦)

كما أن بعض صور تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد القصر عنده .

---

(١) ينظر شروح التلخيص : ٢/١٦٦ ، المطول للتفتازاني : ٢٠٤.

(٢) سورة آل عمران : من الآية ٨٣ .

(٣) التفسير : ٨/١٣٤ م٤.

(٤) سورة آل عمران : من الآية ٢٦ .

(٥) آل عمران : من الآية ١٥٨.

(٦) سورة آل عمران : من الآية ١٦٠.

التعريف :

يأتي ضمير الفصل مبتدأ فيفيد الحصر ،ولا يعده أكثر البلاغيين من طرق القصر ،ويعلل ابن المغربي ذلك بقوله : (وللقصر طرق أى أسباب لفظية تفيده وهي كثيرة منها تعريف الجزأين وفصل المبتدأ بضمير الفصل والمذكور للمصنف أربعة ، وإنما لم يذكر غيرها ،لأن الغير إما أنه ليس معدوداً من الطرق اصطلاحاً كالتأكيد المعنوى ... وإما أنه مخصوص بالمسندين كضمير الفصل،والأ'فيد ذكر ما يعم ...) .(١)

وذكر الفخر صوراً كثيرة منها في تفسيره ،وذكر أنها تفيد الحصر كما في قوله تعالى : ﴿ ... وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾(٢) يقول : (﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ يقتضي الحصر أى من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر .)(٣)

ومثله في إفادة القصر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾(٤) يقول : (ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ،فإنك إذا قلت : زيد هو العالم يفيد أنه لا عالم غيره) .(٥)

---

(١) مواهب الفتاح : ١٨٦/٢ (من شروح التلخيص) .

(٢) سورة العنكبوت : من الآية ٥٢ .

(٣) التفسير : ٨١/٢٥ م١٣ .

(٤) سورة الكوثر : ٣ .

(٥) التفسير : ١٣٣/٣٢ م١٦ .

ويدخل ضمير الفصل على صفات الله تعالى فتفيد قصر هذه الصفات عليه قصراً حقيقياً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [(١)] : (يدل على أن العزيز ليس إلا هو ؛لأن هذه الصيغة تفيد الحصر ، يقال : زيد هو العالم لا غيره ، فهذا يقتضي أنه لا إله إلا الواحد ؛لأن غيره ليس بعزيز ولا حكيم وما لا يكون كذلك لا يكون إلهاً) [(٢)] .

ومثله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [(٣)] يقول : (يفيد الحصر ،فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين ؟ فنقول : السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال ،والكمال في كل الصفات ليس إلا لله ،فهذا هو المراد من هذا الحصر) [(٤)] .

---

(١) سورة الحديد : من الآية ١ .

(٢) التفسير : ٢٩/ ٢٠٨ م١٥ .

(٣) سورة الشورى : من الآية ١١ .

(٤) التفسير : ٢٧/ ١٥٥ م١٤ .

إنمـــا :

يتحدث الفخر في أقوال العلماء في (إنّما) ويفصّل ما قالوه ثـم لا يرتضي إلا أن تكون للحصر مستدلاً على ذلك بالقرآن والشعر والقياس ؛ لأنّ بعض علماء النحو قالوا إنها لا تكون للحصر .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) : (اعلم أن كلمة " إِنَّمَا " على وجهين :

أحدهما : أن تكون حرفاً واحداً ، كقولك : إنما داري دارك ، وإنما مالي مالك .

الثاني : أن تكون (مَا) منفصلة من (إنّ) ، وتكون (مَا) بمعنى الذي ، كقولك : إنّ ما أخذت مالك ، وإنّ ما ركبت دابتك ، وجاء في التنزيل على الوجهين . . . واختلفوا في حكمها على الوجه الأول ، فمنهم من قال : (إنّما) تفيد الحصر ، واحتجوا عليه بالقرآن والشعر والقياس .

أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٢) أي ما هو إلا إله واحد ، وقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (٣) أي لهم لا لغيرهم ، وكذا هذه الآية فإنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ (٤) ،

---

(١) سورة البقرة : ١٧٣ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١٧١ .

(٣) سورة التوبة : من الآية ٦٠ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ١٤٥ .

وصارت الآيتان واحدة فقوله : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُم ﴾ في هذه الآية مفسر لقوله : ﴿ قُل لَا أَجِدُ في ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ لا كذا في تلك الآية.

وأما الشعر فقول الأعشى :

وَلَسْتَ بِالأكْثَرِ مِنْهُمْ حصىً   وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

وقول الفرزدق :

أنَا الذائدُ الحَامِي الذِّمَار وإنَّمَا   يُدَافِعُ عن أحْسَابِهِم أنَا أو مِثْلِي

وأما القياس ، فهو أن كلمة (إنَّ) للإثبات ، وكلمة (مَا) للنفي ، فإذا اجتمعا فلا بد وأن يبقيا على أصليهما ، فإما أن يفيدا ثبوت غير المذكور ، ونفي المذكور وهو باطل بالاتفاق ، أو ثبوت المذكور ، ونفي غير المذكور وهو المطلوب ، واحتج من قال : إنه لا يفيد الحصر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ [(١)] ولقد كان غيره نذيراً ، وجوابه معناه : ما أنت إلا نذير فهو يفيد الحصر ، ولا ينفي وجود نذير آخر) [(٢)].

وقد ذكر أوجه (إنما) هنا ، لأن هناك من جعل (إنما) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُم المَيْتَةَ ﴾ موصولة وتكون (أن) عاملة فيصير المعنى إن الذى حرم عليكم الميتة [(٣)] ، وقالوا : إن (إنما) إذا كانت تفيد الحصر على كل حال لاتجه النفي إلى كل ما عدا المذكور، وذلك قد لا يكون كما في آية : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِير ﴾ . ويرد عليهم الفخر بقوله : (وجوابه معناه ما أنت إلا نذير فهو يفيد الحصر ولا ينفي وجود نذير آخر) أى أن القصر هنا من باب قصر الموصوف على الصفة ، والمنفى هنا صفة أخرى وهي أن يكون في قدرته

---

(١) سورة هود : من الآية ١٢ .

(٢) التفسير : ٥/١١-١٢ ، م٣ .

(٣) ينظر مواهب الفتاح للمغربي : ٢/١٩٦-١٩٧ .

هداية الناس ، فالنبي صلى الله عليه وسلم مقصور على الإنذار لا يتعداه إلى غيره من الصفة المذكورة ،وهذا القصر لا ينفي وجود نذير آخر ،والباطل بالاتفاق كما يقول الفخر هو أن يكون القصر هنا قصر الصفة على الموصوف كأن يقال : إنما نذير أنت لا غيرك .

ويذكر ذلك أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١) بعد أن ينقل كلام الزمخشرى فيها يقول : (قال صاحب الكشاف : إنما يقصر الحكم على شيء أو يقصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد قائم ،أو إنما يقوم زيد ،وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ،لأن ﴿ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ مع فاعله بمنزلة إنّما يقوم زيد ،و ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ بمنزلة إنما زيد قائم ،وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى ... فإن قيل : لو دلت إنما على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إلى الرسول شيء إلا التوحيد ، ومعلوم أن ذلك فاسد ،قلنا : المقصود منه المبالغة) . (٢) فالأول قصر الصفة على الموصوف ، والثاني قصر الموصوف على الصفة ،فالفخر هنا اتبع رأى الزمخشرى في أن (أنما) بالفتح تفيد القصر ،وقد رد أبوحيان على هذا الرأى فقال : إن (أنما) لا تدل على الحصر إلا بالوضع ،لأن الحصر لا يفهم من أخوات (إن) التي كفت بـ (ما) (٣) وقال :

(ولو كانت "إنما" دالة على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إليه شيء إلا التوحيد وذلك لا يصح الحق فيه ،إذ قد أوحى إليه أشياء غير التوحيد) . (٤)

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٨ .

(٢) التفسير : ٢٢/٢٣٢ م١١ .

(٣) ينظر البحر المحيط : ١/ ٦١ .

(٤) ينظر المصدر السابق : ٦/ ٣٤٤ .

وقد رد الفخر الرازي على من قد يقول بما قال به أبوحيان فرأى أن القصر هنا قصر ادعائي فما عداه غير منظور إليه ،فكأنه عليه السلام أرسل للدعوة إلى الوحدانية فقط ،لأن معنى التوحيد الالتزام بكل ما أقر به الله .

وأرى أن الحق مع الزمخشري الذى أتبعه الفخر وأكثر المفسرين كالبيضاوي (١) وأبي السعود (٢) والآلوسي (٣) .

ونتيجة لاعتراض المحتجين ،وقولهم بأن (إنما) تأتي للحصر الحقيقي ونفي كل ما سواه ، فقد حرص الفخر على أن يبين مخرج كل آية لا تحتمل ذلك ،يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) : (قوله " فإنما " تقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك ، فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه . . . والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ،ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) وهذا قصر إضافي .

وأحياناً كان الفخر يرى أن القصر ليس إلا إثبات الشيء للشيء ونفيه عما عداه في كل موضع ،وأن " إنما " تفيد ذلك وإن كان في الواقع ما يخالف ذلك يقول في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا

---

(١) ينظر أنوار التنزيل : ٤/ ٤٨ .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم : ٦/ ٨٩ .

(٣) ينظر روح المعاني : ١٧/ ١٠٦ .

(٤) سورة العنكبوت : ٦ .

(٥) التفسير : ٢٥/ ٣٣ م١٣ .

المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾[1] : ("إنما" للحصر وهذا يقتضي أن لا نجس إلا المشرك ،فالقول بأن أعضاء المحدث نجسه مخالف لهذا النفي ،والعجب أن هذا النص صريح في أن المشرك نجس ،وفي أن المؤمن ليس بنجس)[2].

وقد لجأ الفخر إلى ذلك وإلى دليل الخطاب ليرد على أبي حنيفة في قوله بأن أعضاء المحدث نجسه نجاسة حكمية.[3]

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٢٨ .

(٢) التفسير : ٢٦/١٦ م٨.

(٣) ينظر المصدر السابق الجزء والصفحة.

النفى والاستثناء :

لم يتناول الفخر الحديث عن النفي والاستثناء إلا في مواضع قليلة من التفسير ، فهو عنده إما استثناء متصل ويؤوله على دلالة القصر، أو استثناء منقطع ويؤوله على باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، والذى يعد نوعا من أنواع علم البديع ، وكثيراً ما كان يجمع بين الدلالتين .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾ (١) : (قوله : ﴿ إِلَّا خَطَأً ﴾ فيه قولان :

القول الأول : أنه استثناء متصل والذاهبون إلى هذا القول ذكروا وجوهاً :

(الأول) : أن هذا الاستثناء ورد على طريق المعنى ؛ لأن قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً ﴾ معناه أنه يؤاخذ الإنسان على القتل إلا إذا كان القتل قتل خطأ فإنه لا يؤاخذ به .

(الثاني) : أن الاستثناء صحيح أيضاً على ظاهر اللفظ ، والمعنى أنه ليس لمؤمن أن يقتل مؤمناً ألبتة إلا عند الخطأ .

القول الثاني : أن هذا الاستثناء منقطع بمعنى لكن ، ونظيره في القرآن كثير ، قال تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَموَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً ﴾ (٢) وقال : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ . (٣)

---

(١) سورة النساء : من الآية ٩٢ .

(٢) سورة النساء : من الآية ٢٩ .

(٣) سورة النجم : من الآية ٣٢ . التفسير: ١٠/٢٣٣ - ٢٣٤ م٥ .

وقول الفخر : (والذاهبون إلى هذا النوع يدل على أنه لا يمثل مذهبه وأنه يرى كما يرى جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع ،كابن عطية فهو يقول : (قال جمهور المفسرين في معنى هذه الآية : وما كان في إذن الله وفي أمره للمؤمن أن يقتل مؤمناً بوجه ،ثم استثنى استثناء منقطعاً ليس من الأول ،وهو الذى تكون فيه إلا بمعنى لكن والتقدير لكن الخطأ قد يقع)[١].

وقد يحتمل النفي والاستثناء الوجهين ،لكنه يرجح ما هو عليه المعنى في الظاهر ،يقول في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[٢] "إلا قيلاً" استثناء متصل أو منقطع[٣] ،فنقول فيه وجهان :

أحدهما : وهو الأظهر أنه منقطع ،لأن السلام ليس من جنس اللغو تقديره : لكن يسمعون ﴿ قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ .

وثانيهما : أنه متصل ووجهه أن تقول : المجاز قد يكون في المعنى ، ومن جملته أنك تقول : مالى ذنب إلا أني أحبك فلهذا تؤذيني ،فتستثنى محبته من الذنب ،ولا تريد المنقطع ،لأنك لا تريد بهذا القول بيان أنك تحبه ، إنما تريد في تبرئتك عن الذنوب ،ووجهه هو أن بينهما غاية الخلاف ،وبينهما أمور متوسطة مثاله الحار والبارد وبينهما الفاتر الذى هو أقرب إلى الحار من البارد ،وأقرب إلى البارد من الحار ، والمتوسط يطلق عليه اسم البارد عند النسبة إلى الحار، فيقال هذا بارد ،و يخبر عنه بالنسبة إلى البارد فيقال إنه حار ،إذا ثبت هذا فنقول قول القائل : مالي ذنب إلا أني أحبك ،معناه لا تجد

---

(١) المحرر الوجيز : ٤/ ٢٠٧ .

(٢) سورة الواقعة : ٢٥-٢٦ .

(٣) في النسخة (متصل منقطع) بدون حرف العطف والمناسب للمعنى ما ذكرته وهو مثبت في نسخة المطبعة الخيرية : ٨/ ٥٢ .

ما يقرب من الذنب إلا المحبة ،فإن عندى أموراً فوقها إذا نسبتها إلى الذنب تجد بينهما غاية الخلاف فيكون ذلك كقوله : درجات الحب عندى طاعتك ..).[1]

فهو يتكلف ليؤول المعنى في مجيء الاستثناء المتصل ،وهذا يبعد عن معنى الآية ؛لأن قيل سلاماً سلاماً لا يندرج في اللغو ولا التأثير .

وهكذا نراه يجعل أكثر كل نفي واستثناء محتملاً للوجهين في كثير من المواضع ،يقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ :[2] (ظاهر هذه الآية يقتضي أنه طلب أجراً على التبليغ والرسالة وهو المودة في القربى ... والجواب من وجهين :

الأول : أن هذا من باب قوله :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ[3]

والمعنى : أنا لا أطلب منكم إلا هذا ،وهذا في الحقيقة ليس أجراً ؛ لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب ..

الوجه الثاني : في الجواب أن هذا استثناء منقطع).[4]

فالوجه الأول استثناء متصل يلحقه بقول النابغة ،أى لا عيب فيهم إلا عيب سيوفهم .

---

(١) التفسير : ٢٩/١٦١ م١٥ .

(٢) سورة الشورى : من الآية ٢٣ .

(٣) هذا القول للنابغة والمشهور (بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ) وهذا مثبت أيضاً في نسخة المطبعة الخيرية : ٢٧٣/٧ ،الديوان : ٤٧ ، وقد ذكر الفخر البيت كما ورد في الديوان في مواضع عدة من التفسير .

(٤) التفسير : ٢٧/١٦٦ م١٤ .

وفي آية أخرى يلحق الفخر بيت النابغة بالاستثناء المنقطع وذلك في قوله تعالى : * لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا * (١) يقول : (أنه استثناء منقطع ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يتعلقون بالشبهة ، ويضعونها موضع الحجة ، وهو كقوله تعالى : * مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ * (٢) ، وقال النابغة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ومعناه لكن بسيوفهم فلول) (٣).

فالتقدير كأن بسيوفهم عيب ، وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٥٠.

(٢) سورة النساء : من الآية ١٥٧.

(٣) التفسير : ٤/١٥٤ م٢.

الوصـــــــف

تأتي الصفات في كثير من الآيات القرآنية وفي غيرها لتفيد معاني بلاغية.

وقد اهتم الفخر بصفات القرآن وبيان أسرارها .

فقد تأتي الصفة لتميز الموصوف الذى تتعدد أنواعه كما في قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) يقول : (ميز الرزق بالوصف بقوله : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ ولم يصف المغفرة ؛لأنها واحدة (٢) هي للمؤمنين ،والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ،ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ،ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها) (٣).

ولما كان الرجال أكثر شهرة من النساء فقد وصفهم الله بالكثرة في قوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (٤) يقول الفخر : (..لم خصص وصف الكثرة بالرجال دون النساء ؟ ، قلنا : السبب فيه - والله أعلم - أن شهرة الرجال أتم ، فكانت كثرتهم أظهر ،فلاجرم خصوا بوصف الكثرة وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز ،واللائق بحال النساء الاختفاء والخمول) (٥).

وتأتي الصفة على صيغة المبالغة لبيان ميل طبع الموصوف إلى تلك الصفة،

---

(١) سورة سبأ : ٤ .

(٢) لم يكن الكلام مستقيماً فأضفت كلمة (لأنها) لأنه قال : لم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين .

(٣) التفسير : ٢٤٣/٢٥ م١٣ .

(٤) سورة النساء : من الآية ١ .

(٥) التفسير : ١٦٨/٩ م٥ .

كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (١) يقول الفخر : (فإن قيل لم قال : ﴿ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ مع أن الصادر عنه خيانة واحدة وإثم واحد ؟ قلنا : علم الله تعالى أنه كان في طبع ذلك الرجل الخيانة الكثيرة، والإثم الكثير ، فذكر اللفظ الدال على المبالغة بسبب ما كان في طبعه من الميل إلى ذلك) (٢) .

ويوصف القسم لعظمته في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٣) يقول : (ما الفائدة في وصفه بالعظيم في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ ؟ فنقول : لما قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ وكان معناه لا أقسم بهذا الوضوح المقسم به عليه قال لست تاركاً للقسم بهذا ؛ لأنه ليس بقسم أو ليس بقسم عظيم ، بل هو قسم عظيم ولا أقسم به ، بل بأعظم منه أقسم لجزمي بالأمر وعلمي بحقيقته) (٤) .

ويوصف الشيء للمبالغة في قبحه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٥) يقول : (الأقرب عندي إذا كان مستنكراً مستقبحاً ، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح) (٦) .

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٠٧ .
(٢) التفسير : ١١/٣٥-٣٦ م٦ .
(٣) سورة الواقعة : ٧٦ .
(٤) التفسير : ٢٨/١٩١ م١٤ .
(٥) سورة النحل : ٥١ .
(٦) التفسير : ٢٠/٤٩ م١٠ .

وللزمخشري وجه لطيف في الآية ذكر فيه أن الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية يدل على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريد معنى العدد المخصوص شفع بما يؤكده ، وعندئذ يدل على القصد.(١)

وذكر الزركشي وجوهاً عدة لمجيء هذه الصفة في الآية منها :

١ - أنها جاءت لتوكيد نهي الإشراك بالله ، لأن العبرة في النهي عن اتخاذ الإلهين إنما هو لمحض كونهما اثنين فقط ، ولو وصف (إلهين) بغير هذه من الصفات كقوله : لا تتخذوا إلهين عاجزين ، لأشعر بأن القادرين يجوز أن يتخذا ، فمعنى التثنية شامل لجميع الصفات.

٢ - لو حذفت الصفة لكان النهي عن اتخاذ جنسين آلهة ، وجاز أن يتخذ من نوع واحد أعداد آلهة ، فلما قال (اثنين) بين فيه قبح التعديد ، وأنه منزه عن العددية .(٢)

وتأتي الصفة لبيان قدرة الله وحكمته في إظهار الضد مع الضد كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً ﴾(٣) يقول : (واعلم أن في ذكر "الطرى" فائدة زائدة ، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحاً عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بـ "الطرى" ، فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذى لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة ، بل بقدرة الله وحكمته).(٤)

---

(١) ينظر الكشاف : ٢/٤١٣.

(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن : ٢/٤٣٣ ومابعدها .

(٣) سورة النحل : من الآية ١٤.

(٤) التفسير : ٢٠/٥-٦ م١٠.

وهناك وجه آخر لفائدة الصفة شاع في كتب التفسير [1] وهو أن وصف اللحم بالطراوة حث على المسارعة في أكله خيفة الفساد عليه ، لأن الفساد أسرع إليه .

وهذا الوجه راجع في الأصل إلى الزمخشري ذكره في تفسيره [2] وما ذهب إليه الفخر وجه حسن جداً .

وفي وصف يوم القيامة بما توصف به المحسوسات بيان لشدة هوله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [3]

يقول الفخر : (ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل؟ ، الجواب : استعير الثقل لشدته وهوله ، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله) . [4]

فقد جاء الوصف استعارة لليوم ، لما يحدث فيه من شدائد وأهـــوال تشبه الشيء الثقيل الذي يصعب حمله . [5]

وقد يأتي الوصف بياناً لصفاته جل وعلا ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ . [6]

يقول الفخر : (قال : ﴿ الْمَتِينُ ﴾ وذلك لأن : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ . لا يدل إلا على أن له قوة ما ، فزاد في الوصف بياناً ، وهو الذي له ثبات لا يتزلزل ، وهو من المتين من باب واحد لفظاً ومعنى ، فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه

---

(١) ينظر أنوار التنزيل : ١٧٦/٣ ، إرشاد العقل السليم : ١٠٣/٥ ، روح المعاني : ١١١/١٤ .

(٢) ينظر الكشاف : ٤٠٤/٢ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٧ .

(٤) التفسير : ٢٦٠/٣٠ م١٥ .

(٥) ينظر الكشاف : ٤/ ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٦) سورة الذاريات : ٥٨ .

ثباته ، والمتن هو الظهر الذى عليه أساس البدن والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة) [١] .

ويرى الفخر أن : ﴿ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ جاءت صفة في قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ [٢] لإفادة معنى الدوام والاستمرار مخالفاً بهذا قول العلماء الذين رأوا أنه بدل .

يقول : (لا نزاع في أن قوله : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ يحسن جعلهما صفة ، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك قوله : ﴿ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار ؛ لأن صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد) [٣] .

فقد جعله الزجاج بدلاً ، ويرى الزمخشري أن كونه بدلاً بين الصفات نبوء ظاهر ، والوجه أن يقال إن كلها أبدال غير أوصاف وحذفت الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً (ويجوز أن يقال : قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار) [٤] .

---

(١) التفسير : ٢٣٢/٢٨ م١٤ .

(٢) سورة غافر : من الآية ٣ .

(٣) التفسير : ٢٨/١٢ م١٤ .

(٤) الكشاف : ٤١٣/٣ .

القيـــــــود

قد يتعلق بالجملة قيود تعين على تحديد المعنى وتصويره فتزيد من فائدتها ،وتفقدها بدونها ،وقد قال الخطيب القزويني : إنها تأتي لتربية الفائدة[(١)] ،ولذلك فللقيود أهميتها في الكلام ومذاقاته.

وقد تنبه لها الفخر وذكر أسرارها في آيات من القرآن .

فقد يأتي القيد لتأكيد الفعل وللعلم بقبحه ، كما في قوله تعالـــى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾.[(٢)]

يقول : (فلم قال : ﴿ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا على هذا الوجه ؟ فالجواب من وجهين :

الأول : أن الإتيان بالباطل قد يكون حقاً ،لأن الآتي به اعتقده حقاً لشبهة وقعت في قلبه ،وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً ، ولا شك أن الثاني أقبح ، فقوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ أى أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقاً في اعتقادهم وخيالهم ،بل كانوا عالمين بقبحه ،ومع ذلك فقـــد فعلوه .

والثاني : أن هذا التكرير لأجل التأكيد كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾[(٣)] ويستحيل أن يكون لمدعى الإلــه الثاني برهان)[(٤)].

---

(١) ينظر الإيضاح : ١٧٧.
(٢) سورة البقرة : من الآية ٦١ .
(٣) سورة المؤمنون : من الآية ١١٧.
(٤) التفسير : ٣/ ١١٠ م٢.

وقد يكون القيد لإثبات الصدق والنهي عن الرياء في العمل .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ (١) : (التوبة لا تكون إلا للبارى ، والجواب المراد منه النهي عن الرياء في التوبة ، كأنه قال لهم : لو أظهرتم التوبة لا عن القلب فأنتم ما تبتم إلى الله ، الذى هو مطلع على ضمائركم ، وإنما تبتم إلى الناس ، وذلك مما لا فائدة فيه ، فإنكم إذا أذنبتم إلى الله وجب أن تتوبوا إلى الله) (٢) .

ويأتي القيد للتعظيم ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) يقول الفخر : (النصر لا يكون إلا من الله قال تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٤) فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله : ﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ؟ والجواب : معناه نصر لا يليق إلا بالله ، ولا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته ، ويقال هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذا ههنا ، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (٥) فيقول : هذا الذى سألتموه) (٦) .

ويذكر القيد لإثبات كمال علمه وقدرته عز وجل ، يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٧) : (فإن قيل ما الفائدة في قوله : ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ مع أنه لو أطلق كان أبلغ ؟

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٥٤ .

(٢) التفسير : ٣/٨٥ م٢ .

(٣) سورة النصر : ١ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٢٦ ، سورة الأنفال : من الآية ١٠ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢١٤ .

(٦) التفسير : ٣٢/١٥١ م١٦ .

(٧) سورة آل عمران : ٥ .

قلنا : الغرض إفهام العباد كمال علمه ، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السموات والأرض أقوى ، وذلك لأن الحس يرى عظمة السموات والأرض فيعين العقل علــى معرفة عظمة علم الله عز وجل) .(١)

وكثيراً ما يدل المتعلق عند الفخر الرازي على التأكيد والمبالغة ، كمــا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ .(٢)

يقول : (لقائل أن يقول : الأكل لا يكون إلا في البطن فما فائدة قوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ ؟ وجوابه : أنه كقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾(٣) والقول لا يكون إلا بالفم ، وقــــال : ﴿ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(٤) وقال : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيــرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾(٥) والطيران لا يكون إلا بالجناح والغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة) .(٦)

وألمح مع التوكيد في هذه الآيات معاني أخرى ، ففي الآية الأولى : ذكر البطن مع الأكل لبيان بشاعة عملهم ، وهو أكل مال اليتيـــــــم . وفي الثانيـة : ذكر الأفواه والقول لا يكون إلا بها ، لأنهم لا يقصـــدون ما يقولـــون فهـو من أفواههـم فقط ، وليس من قلوبهـــــــــم . وفي الثالثة : لا يكون الطيران إلا بالجناح للدلالة على قدرة الله وعظمتـه في الخلق .

---

(١) التفسير : ١٧٩/٧ م٤ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١٠ .

(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٦٧ .

(٤) سورة الحج : من الآية ٤٦ .

(٥) سورة الأنعام : من الآية ٣٨ .

(٦) التفسير : ٩/٢٠٧-٢٠٨ م٥ .

وكان يبين أحياناً فائدة التوكيد الذى جاء به القيد ،كقوله في قوله تعالى : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴾ (١) : (ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها من طين ؟ نقول : لأنّ بعض الناس يسمى البرد حجارة، فقوله : ﴿ مِن طِينٍ ﴾ يدفع ذلك التوهم) (٢).

وقد يزداد في الكلام لإظهار البهجة والسرور والافتخار بالعمل يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ (٣) : (واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا نعبد أصناماً ،ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم : ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام) (٤).

فهم حريصون على ذكر أحوالهم مع أصنامهم كاملة على سبيل التفصيل إظهاراً لابتهاجهم وسرورهم.

وهذا الوجه أخذه الفخر من الزمخشرى (٥).

---

(١) سورة الذاريات : ٣٣.

(٢) التفسير : ٢١٧/٢٨ م١٤.

(٣) سورة الشعراء : ٧٠-٧١.

(٤) التفسير : ١٤٢/٢٤ م١٢.

(٥) ينظر الكشاف : ١١٦/٣.

وضع المظهر موضع المضمر وعكسه

اهتم البلاغيون بهذا الباب ،فعبد القاهر بَيَّن فيه مكانة الكلمة ووحيها وإثارتها لكثير من المعاني ؛لأنّ قدراً كبيراً من معنى النص يظل كامناً في الاسم الظاهر لا يستطيع الضمير الإفصاح عنه ،وقد تناول أمثلة كثيرة من القرآن والشعر بين فيها بلاغة الاسم الظاهر في الكلام ،فيقول في قول النابغة :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَاما وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقداما

: (لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار ،وأن له موقعاً في النفس وباعثاً للأريحية ،لا يكون إذا قيل : (نفس عصام سودته) شيء منه ألبتة) [١].

والفخر الرازي اهتم ببيان سر إيثار الاسم الظاهر على المضمر في بعض الآيات في مواضع قليلة من التفسير .

فقد يوضع الاسم الظاهر موضع المضمر لفخامته وعظمته كما في قوله تعالى : * الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ * [٢] يقول : (* الحَاقَّةُ * مرفوعة بالابتداء ،وخبرها : * مَا الحَاقَّةُ * والأصل : الحاقة ما هي ؟ أي : أي شيء هي ؟ ، تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها ،فوضع الظاهر موضع المضمر ؛ لأنه أهول لها ،ومثله قوله : * القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ * [٣].

ويذكر اسم يوم القيامة بدل الضمير للزيادة في وصف شدتها وهولها

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥٥٧ .

(٢) سورة الحاقة : ١-٢ .

(٣) سورة القارعة : ١-٢ ، التفسير : ١٠٢/٣٠ م١٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾[١] : (إنما قال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ ولم يقل بهما ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها)[٢].

وقد يعدل إلى المظهر لما فيه من زيادة التقبيح .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾[٣] : (قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل منكم ،مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ... ﴾ تنبيهاً على قبح ذلك ،وتبعيداً لهم عنهم ،كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلماني يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ،كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعه)[٤].

ففي كلمة ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقبيح لصدور الفعل منهم وهم قد آمنوا بالله وصدّقوا به .

و يكرر الاسم الظاهر بدل الضمير إظهاراً للتعجب من قولهم .
يقول في قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[٥] : (وإنما لم يقل وقالوا بل قال : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾

---

(١) سورة الحاقة : ١-٤ .
(٢) التفسير : ١٠٣/٣٠ م١٥ .
(٣) سورة الحجرات : من الآية ٩ .
(٤) التفسير : ١٢٧/٢٨ م١٤ .
(٥) سورة ص : ٤ .

إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام.)[١]

ويذكر الزمخشري أن الإظهار هنا للدلالة على الغضب عليهم، وأنه قول لا يجسر عليه إلا الكافرون.[٢]

وقد يستغنى عن ذكر الاسم الظاهر بضميره لأغراض ذكرها الفخر منها: الدلالة على شهرة هذا المضمر، وأن كل أحد يعرفه، فلا يحتاج إلى أن يذكر به كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.[٣]

يقول: (إنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح، ألا ترى أنه في السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبي جهل، ولم يخف على أحد اشتهاره، وقوله: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[٤] ولم يذكر الموت لشهرته فكذا هنا).[٥]

ويقصد بالسورة المتقدمة سورة العلق، وفيها آيات تتحدث عن استكبار أبي جهل، وكلها جاءت بالضمير دون الاسم الظاهر للدلالة على شهرته بإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾[٦] ولذلك استغنى عن ذكر اسمه.

ويبين الفخر سر مجيء لفظ الجلالة مرة بالاسم الظاهر ومرة بالضمير في آيتين متشابهتين، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[٧]، الآية الثانية:

---

(١) التفسير: ٢٦/١٧٦ م١٣.

(٢) ينظر الكشاف: ٣/٣٦٠.

(٣) سورة القدر: ١.

(٤) سورة الواقعة: ٨٣.

(٥) التفسير: ٣٢/٢٧ م١٦.

(٦) سورة العلق: ١٥، ١٧.

(٧) سورة آل عمران: ٩.

* رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *(١)

يقول : (فإن قيل فلم قالوا في هذه الآية : * إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وقالوا في تلك الآية : * إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * ؟ قلت : الفرق - والله أعلم - أن هذه الآية في مقام الهيبة ، يعنى أن الألهية تقتضي الحشر والنشر لينتصف المظلومون(٢) من الظالمين ، فكان ذكره باسمه الأعظم أولى في هذا المقام ، أما قوله في آخر السورة : * إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فذاك المقام مقام طلب العبد من ربه أن ينعم عليه بفضله ، وأن يتجاوز عن سيئاته فلم يكن المقام مقام الهيبة ، فلا جرم قال : * إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *..)(٣)

وقد يلجأ الفخر في بيان سر الإضمار إلى حقيقة علمية تتعلق بطبيعة تكوين جسم الإنسان .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ *(٤) : (إن الله تعالى قال : * أَصَمَّهُمْ * ولم يقل أصم آذانهم ، وقال : * وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * ولم يقل أعماهم ؛ وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الأبصار ، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام ، لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ، ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤدى كما يؤدى الصوت القوى فقال : * أَصَمَّهُمْ * من غير ذكر الأذن ، وقال : * أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * مع ذكر العين ؛ لأن البصر ههنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدراً

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٤ .

(٢) في النسخة (المظلومين) والصحيح ما أثبته لأنه فاعل مرفوع بالواو والنون ، وهو خطأ املائي .

(٣) التفسير : ١٩٧/٧ م٤ .

(٤) سورة محمد : ٢٣ .

لما جمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام ،والعين لها مدخل في الرؤية بل هي الكل)[١].

وهذا تعليل حسن جداً من الفخر ،يصل فيها أسرار القرآن بالحقائق الكونية ،وقد دأب على هذا في مواضع عدة من التفسير ،وهي طريقة جيدة في الكشف عن أسرار القرآن .

ومن أحسن مواقع مجيء المضمر موضع الظاهر ما كان الضمير فيه ضمير الشأن والقصة ،والأساليب التي تجيء على هذه الطريقة تصيب موقعها ولها مذاق حسن في الكلام .

وقد تتبعت بعض الآيات التي يعود فيها ضمير الشأن على ما بعده في التفسير فلم أجده يهتم بذكر نكاتها البلاغية ،أو أثرها في النفس، بل كان يكتفي بأنه ضمير شأن وما بعده مفسر له .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٢] : (ما معنى الضمير في قوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ ﴾ ؟ الجواب : هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثاً ومذكراً ،وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ فإنَّه ﴾ ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره (الأبصار)[٣] ولم يفطن الفخر إلى أن الضمير هنا قد هيأ النفس لتلقي ما بعده من أمر عدم وقوع العمى على الأبصار بل هو في القلوب ،ومجيء الضمير على هذه الهيئة ينبيء عن أهمية ما بعده ولذلك فهو يقع في النفس موقع القبول والفخامة .

---

(١) التفسير : ٢٨/٦٤-٦٥ م١٤ .
(٢) سورة الحج : من الآية ٤٦ .
(٣) التفسير : ٢٤/٤٦ م١٢ .

ويقول الفخر في قوله تعالى : * فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا *(١) : (لفظة " هي " .. ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون كناية عن الأبصار ، والمعنى : فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الأبصار ثم أظهر .

ثانيها : أن تكون عماداً ويصلح في موضعها هو . . .

ولم يذكر الوجه الثالث إنّما قال : وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فإذا القصة شاخصة ، يعني أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك)(٢) .

فهو وإن أشار إلى أنواع الضمير لكن لم يبين سره البلاغي الذى دعا لمجيئه ، والذى يخبىء وراءه خبراً ذا بال وشأن ، مهد له بقوله تعالى قبله : * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ * .

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٩٧ .

(٢) التفسير : ٢٢/٢٢٢ م ١١ .